المؤسسة العامة للسينما
NATIONAL FILM ORGANIZATION

مذكرات النجمة الأولى في تاريخ السينما

ماري بيكفورد

شروق وظلال

ترجمة: أحمد عزت طه

الفن السابع 246

شـروق وظلال

الفن السابع | ٢٤٦ |

رئيس التحرير : محمـــد الأحمـــد

أمين التحرير : بندر عبد الحميد

شروق وظلال

مذكرات النجمة الأولى في تاريخ السينما

ماري بيكفورد

ترجمة: أحمد عزت طه

منشورات وزارة الثقافة - المؤسسة العامة للسينما
في الجمهورية العربية السورية - دمشق ٢٠١٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

Sunrise & shadows

By:

Mary Pickford

شروق وظلال: مذكرات النجمة الأولى في تاريخ السينما ماري بيكفـــورد؛ ترجمة أحمد عزت طه .- دمشق: المؤسسة العامة للـــسينما، ٢٠١٤م .- ٢٥٦ ص؛ ٢٤ سم.

(الفن السابع ؛ ٢٤٦)

١- ٩٢٠: بيكفورد، ماري ب ٢- العنوان ٣- بيكفورد

٤- طه ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

فن السينما

فن الصور المتحركة هو من أعظم الفنون التي ساهمت في تقدم الحضارة، وانتشار الأفكار الحديثة، وبعث أقوى الآداب العالمية، وتزويد روادها بأحدث التطورات العلمية والأدبية والطبية والتاريخية.

وقد أصبحت الصور المتحركة وسيلة كبرى من أسباب الدعاية السياسية والخلقية. ولا يعنينا في كثير أو قليل الدخول في موضوع الدعاية السياسية إنما ما يعنينا أن ندلل بوضوح على أن الأفلام القوية قد تساعد على تقدم الأخلاق تقدماً ملحوظاً ملموساً، وتقرب وجهات النظر المبادئ السياسية، وتغرس في نفوس النشء الذي يتخبط في تيارات الأفكار الحديثة، الهدامة منها وغير الهدامة، أقول أنها تغرس في نفوس النشء أفكاراً ترمز إلى المحبة، والأخوة والسلام، والعمل على بناء عالم حر يسعى إلى الخير العام والنفع العميم، كما أن الأشرطة التجارية تشكل خطراً على النشء إذا كان يقصد منها إثارة الغرائز الجنسية والوحشية، وتعليم الجيل الصاعد على اقتفاء أثر أبطال أفلام اللصوصية وقطاع الطرق والإجرام

ومن دواعي السرور أن الرأي العام العالمي قد أصبح يميز بين الغث والسمين، من الأفلام، وراح يتذوق الفن الرفيع العالمي، وبات يرغم شركات السينما في كل مكان أن تزوده بفن رفيع، وتمثيل ممتاز، وتصوير رائع، وموضوع اجتماعي له مساس بتقدم العائلة البشرية وحل مشكلاتها.

لقد بدأ نشوء موضوع الصور المتحركة بالتفكير في أن مبدأ دوام التأثير الضوئي على شبكة العين كان أول فكرة طارئة للعمل في خلق هذه الصناعة، وذلك أنه عندما نشاهد صورة ما فإنها تتشكل في أعيننا. وعندما يزول نورها فجأة تبقى الصورة

الشبكية ثم تأخذ بالتلاشي تدريجياً وما دامت الصورة لا تختفي تماماً نظراً لاستمرار تـأثر العصب البصري فإن العين تستمر في رؤية الأشياء كما لو كانت مضاءة.

وارتقت هذه النظريات تـدريجياً بفـضل جهـود العلـماء الـذين قـاموا بتجـارب واختراعـات عديـدة منهـا مـا هـو بـدائي كتومـاثروب الـدكتور بـاريس عـام ١٨٢٣ والزوؤثروب ١٨٦٨. وبدأ حل تلك المعـضلة يظهـر للوجـود نتيجـة لتجـارب العـالم الأمريكي موبريدج عام ١٨٧٨ والأبحاث المدهشة التي قام بها العالمان الفرنسيان ماري ودوموني من عام ١٨٨٩ - ١٨٩٢ وويليام فريز جرين من بريستول. ثم تحقق بظهور آلة الكينيتوسكوب لاديسون عام ١٨٩٤. ولم يبدأ العرض السينمائي الفعلي إلا عـام ١٨٩٥ في فرنسا نتيجة لجهود الأخوين لوميير اللـذين يعـود إلـيهما الفـضل في إبـراز الـصناعة السينمائية إلى حيز الوجود.

وطلعت السينما الصامتة على العالم بأفلام شيقة منها ما يتـوخى الناحيـة التاريخيـة ومنها الناحية العاطفية. وهناك أفلام تثير الحماسة الوطنية وأخـرى لهـا صـفة المفاجـآت الدراماتيكية.

ومن الأفلام التاريخية التي اشتهرت في أيام السينما الصامتة أفلام سان جين تمثيـل النجمة الأمريكية غلوريا سوانـسون ومـن الأفـلام العاطفيـة «بـائع الثيـاب»مـن تمثيـل الطفل جـاكي كوغـان وفيلمـي «البؤسـاء» و«أحـدب نـوتردام». ومـن الأفـلام ذات الحوادث المثيرة: «ابن زورو» تمثيل دوغلاس فيربـانكس وفيلم «ميـشيل سـتروغوف» تمثيل موسجو كين. وهناك أفلام علمية كحياة «الرحالة ليفينغستون» و«العـالم المفقـود» الذي يمثل حيوانات ما قبل التاريخ تمثيل والاس بيري.

وقد اشـتهر أبطـال كثـيرون في أيـام الفـيلم الـصامت أمثال رودولـف فـالنتينو ورامون نوفاروووالاس بيري وشارلي شابلن ومـاري بيكفـورد وبـيرل هوايـت وثـوم ميكس وغريتا غاربو.

وكانت القصص السينمائية أيام الفيلم الصامت تعتمد على قوة القـصة أكثـر مـن أي شيء آخر نظراً لانعدام المقومات الأخرى التي يمتاز بها الفيلم الناطق.

وارتقت السينما الصامتة عام ١٩٢٦ وأصبحت تقدم إنتاجاً فنياً ضخماً وانتشرت في فرنسا وايطاليا والسويد وغيرها، أما في أمريكا فقد كانت هوليوود وما تـزال المركـز الرئيسي في الولايات المتحـدة للفـن الـسينمائي حيـث تكـتظ فيهـا الـشركات الـسينمائية المختلفة ويتهافت عليها عشاق التمثيل وهواته من الطامحين والطامحات للمجد من كـل بلد وصقع.

وبدأت الأفلام الصوتية بالظهور عام ١٩٢٨ ثم تلتهـا الأفـلام الناطقـة وبظهرهـا أخذت الأفلام الصامتة بالزوال وتلاشى معها عـدد كبـير مـن الأبطـال والنجـوم الـذين فقـدوا ميزتهم الفنية فيما عدا عدد قليل منهم ممن تحدى الفيلم الناطق.

واختلفت الأفلام من حيث الموضوع فهناك الأفلام التاريخية «كحـرب وسـلام» و«كوفاديس» والأفلام الموسيقية التي تمثل حياة عدد من دهاقنـة الموسـيقى «كبيتهـوفن وموزار وشوبان» وغيرهم. والأفلام الراقصة التي زاد في رونقها اختراع الأفـلام الملونـة التي برعت شركات هوليوود في إخراجها وأنفقت عليها ملايين الدولارات لكـي تـأتي معجزة في الإبداع، وملأتها بموسيقى الجاز الصاخبة، وقد كثرت أثنـاء الحـرب العالميـة وبعدها الأفلام التي تمثل المعارك الحربية وكذلك أفلام رعـاة البقـر والـصراع فـيما بـين مهاجري أمريكا والهنود الحمر من سكانها الأصليين. ثم تنوعت مواضيع الأفلام حتـى شملت المواضيع العلمية فنزلت قاع البحار وصعدت رؤوس الجبال وصـارت تبحـث عن حياة الأسماك والحشرات والطفيليات المتناهية في الصغر.

ولما ظهر التلفزيون في أمريكا فت في عضد الشركات الـسينمائية فأخـذت تـسعى السعي الحثيث لتدارك الخطر الماثل أمامها في هذا المنافس الشديد وأخذ الاختـصاصيون والعلماء يبحثون في أنجع الوسـائل لتحـسين فـن الـسينما فاخترعـت الـسينما المجـسمة (سينما سكوب) وانتشرت في أنحاء الولايات المتحدة ثم في جميع أرجاء العالم. حتى قـل أن تجد داراً سينمائية لم تبدل شاشتها لكي تصلح لعـرض الأفـلام الـسينما سـكوبية. كـما أخذت شركات مترو غولدوينمايرو كولمبيا وغيرهما من الشركات الأمريكية تتبـارى في إخراج الأفلام وتنفق عليها بسخاء شديد.

ثم ظهر اختراع (السينيراما) وهي حدث وأضخم أنواع الشاشة السينمائية، غير أنها لم تنتشر خارج الولايات المتحدة نظراً للتكاليف الباهظة والجهود المضنية التي يجب أن تصرف في سبيل إنشائها.

وأظهرت الشاشة الناطقة نجوماً كثيرين منهم كلارك غيبل الذي تربع على عرش الشاشة الفضية مدة تنيف على خمس عشرة سنة، وغاري كوبر، وروبرت تيلور، وغرير جارسون، ومارلين مونرو.

وظهر من النجوم الانكليز ستيوارت غرينجر، والسير لورانس اوليفيه، وفيفيان لي، ثم النجمة السويدية انغريد برجمان بطلة فيلم، جان دارك.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة أفلام ايطالية ذات مواضيع قوية «كالرز المر» و«ابن الحرام» وظهر فيها عدد من النجوم الايطاليين أمثال جينالولوبريجيدا وصوفيا لورين وغيرهما.

وجدير بنا أن ننوه هنا عن أهمية اختراع الصور المتحركة المسماةَ (كارتونَ **Dessin anime**).

من قبل والت ديزني وكم أدخلت من السرور على قلوب الناس كبيرهم وصغيرهم وساعدت على إخراج الأفلام العلمية التي تبحث عن حياة الحشرات والنباتات.

وإنني أنتهز هذه المناسبة لأقدم إلى القراء من عشاق الفن السينمائي نجمة من ألمع نجوم السينما الصامتة وأحبهم إلى قلوب الناس حتى أطلق عليها في الولايات المتحدة لقب حبيبة أمريكا. إن ماري بيكفورد من النجوم اللواتي هن أشهر من أن يعرفن فنرجو أن يجد القارئ الكريم متعة في الاطلاع على تاريخ حياتها المليء بالحوادث الطريفة والله ولي التوفيق.

(المترجم)

توطئـة

لا أعرف، بقدر ما اتصل بعلمي، أن أحداً سمي منذ طفولته باسم ماري بيكفورد سوى شخصين اثنين. كان أحدهما عمة أبي وقد قتلت في حادث اصطدام حافلات الترام في لندن وهي في السابعة من عمرها، وكان الآخر صبياً من الاسكيمو، سمي بذلك على الأرجح لاختلاط ناشئ عن دور الذكر الذي مثلته في رواية اللورد فونتلروي الصغير. فقد قال لي أحد الأصدقاء أنه بينما كان يجوب الأصقاع الشمالية، رأى طفلاً في الثالثة يجري عارياً خارج أحد أكواخ الاسكيمو، وإذا أمه تهرع في أثره تناديه. ولم يصدق صديقي أذنيه وهو يسمعها تناديه باسم ماري بيكفورد. لعل ذلك الطفل الشارد كان أحق مني بذلك الاسم، لأني لم أدع به إلا بعد أن بلغت الثالثة عشرة، وذلك بناء على إلحاح داود بلاسكو الذي لم يعجبه اسمي الحقيقي – غلادسسمث، ولا أرى سبباً للأسف على حكمه.

سألت أمي ذات يوم عن سبب تسميتي باسم غلادس فأجابت: كانت خالتك ليزا تطالع رواية قبيل ولادتك،وكانت البطلة فتاة تدعى غلادس. ولقد حملت هذا الاسم الذي عرفني به الجمهور نقلاً عن جدي الايرلندي جون بيكفوردهنسي، سليل أسرة غنية من ايرلندة الجنوبية. وقد ولدت جدتي أيضاً في نفس البلدة، ولكنها كانت ابنة طحان فقير. ولو بقي الاثنان في ايرلندة لما التقيا بسبب اختلاف محيطهما الاجتماعي. ولكنهما التقيا في مدينة كويبك في كندا وتحابا وتزوجا. ولما بلغ خبر زواجهما مسامع جدتي لأبي ثارت ثائرتها وأقسمت أن لا تكلمه أبداً، وقد برت بقسمها حتى يوم وفاتها. وكانت هي التي

أورثت جدي اسم بيكفورد. كانت جدتي هنسي تعيش في ايرلندة عيشة بسيطة متواضعة كبنات القرى قبل مئة عام. وكان لكل أسرة في تلك القرى رواية، وقد برعت جدتي في تحويل القصص العادية إلى روايات مضحكة مسلية، إذ كانت ذات ذاكرة قوية ومقدرة على التقليد والمحاكاة. فورثت أمي عنها هذه المواهب، ولن أنسى عبارة توارثتها الأسرة وهي: لن أكف حتى أعرض نفسي بالثياب. ولعل من الجدير أن أروي قصة هذه العبارة.

كانت البلاد تعاني إحدى فترات المحل والجفاف، فقررت الأسرة أن ترسل ابنتها كاترين إلى كندا، وقد استفادت من السفر المجاني الذي منحته الحكومة الانكليزية. وأما جدتي هنسي فلم تحظ طيلة حياتها بثوب جديد، وها هي ترسل إلى كندا بأسمالها المتوارثة. فتحمست والدتها واشترت لها قطعتين من القماش من بائع متجول، ودفعت خمسين سنتاً ثمن كل منهما. وما أن تمت خياطة إحداهما حتى ارتدتها كاترين وسارت تختال في الدار وهي تراقب خيالها على الجدار. ورأتها فتاة صغيرة من الجيران فسألتها عما تفعل، فأجابت: إنه أحد الثوبين الجديدين ولن أكف حتى أعرض نفسي بالثياب. وسار هذا القول كالمثل بين أعضاء الأسرة، يكررونه كلما رأوا أحداً منهم يميل نحو الزهو والمباهاة.

كانت جدتي هنسي أي كاترين هذه بطلة الأسرة ذات الشكيمة القوية فورثت أمي طبيعتها وأورثتني إياها. وكانت في نفس الوقت كاثوليكية متدينة تعيش عيشة التقوى وتمارس أعمال البر. وقد حدثتني أمي فيما بعد كيف كانت تقتر على نفسها لتدفع لهن نفقات السفر. كانت تسأل الواحدة منهن: هل تعلم أمك بهذا؟ فتجيب: كلا، ولذلك لا أستطيع العودة إلى البيت. فترد جدتي بقولها: حسناً، ما مضى قد مضى، اطوي الكتاب ولا تحدثي أحداً عن الماضي، عودي إلى أمك وباشري حياة جديدة. وكثيراً ما بكت الفتيات قائلات إنهن يخجلن من مقابلة الأهل والأصدقاء. فتقول جدتي: ولماذا الخجل! طهري قلبك وسيري مرفوعة الرأس متطلعة إلى الحياة الجديدة التي تنتظرك، فإن الله

يحب التائبين. وكانت جدتي أيضاً تأخذهن معها إلى الكنيسة وتطلب إلى الكاهن أن يعظهن.

أما جدتي لأبي وهي من أسرة سمث الانكليزية فقد وصلت إلى كندا وهي في السادسة، وقد واظبت على حضور القداس في كنيستها البروتستنتية طيلة ثمانين عاماً حتى بلغت السادسة والثمانين، وقضت السنوات الخمس الأخيرة معتكفة في منزلها، وكان زوجها رجلاً من لفربول يدعى جوزيف سمث، وهو من أسرة غنية ارتحلت إلى كندا عندما كان جدي سمث رضيعاً ولا أزال أذكر أن جدتي سمث كانت ترتدي دائماً ثوباً من الحرير الأسود وتضع أزهار البنفسج على قبعتها، ولا تسير بدون قفازين أسودين وحقيبة يد حريرية، كانت شديدة الشبه بالملكة فيكتوريا في طول قامتها وعنفوان تصرفها، تثور إذا رأت أحداً يمتع نفسه يوم الأحد، رغم ضيق مجال الاستمتاع في تلك الأيام، وعملت عدة سنوات عضواً في لجنة من المواطنين لسن قانون يحرم سير حافلات الترام يوم الأحد.

بين هاتين الجدتين الجبارتين، الواحدة كاثوليكية والأخرى بروتستنتية، كدت أن أظل بدون تنصير. وقد جرى تعميدي لأول مرة إذ إن أحد الكهنة ويدعى الأب ميرفي طرق بابنا ذات يوم وأنا مريضة، فقالت أمي من الداخل: آسفة يا أبي لا يمكنك الدخول، فقد ضرب علينا الحجر الصحي بسبب الخناق.

– من المصاب؟

– طفلتي غلادس.

– لست أخاف العدوى، ولكني أخشى أن أنقلها إلى الآخرين. كم عمر طفلتك؟

– أربع سنوات.

– لا شك في أنها تعمدت؟

– كلا يا أبي، فان زوجي كما تعلم بروتستنتي و..

– أربع سنوات وفي خطر الموت ولم تتعمد ! أنا داخل.

دخل الكاهن ووضع يده على جبيني، وما كان أعظم سرور جدتي هنسي حين عمدني وسماني غلادس ماري سمث. وإني أذكر أني ملت على جنبي الأيمن واستغرقت في سبات عميق، ولما أفقت شعرت بطمأنينة وكنت قد شفيت. وارتاحت أمي إلى تعميدي ولكنها لم تخبر أبي. وبعد وفاة أبي قامت أمي بعمل يدل على رجاحة عقلها، إذ عمدت ثلاثتنا في الكنيسة البروتستنتية احتراماً لذكرى والدي.

كنت أتصرف دائماً تصرف فتاة أكبر سناً مما كنت فيه، فقبل أن أتجاوز الثالثة وجدتني خالتي ليزا ذات مساء في الشارع جالسة على الرصيف في قميص النوم.

– ماذا تفعلين هنا في هذا الساعة من الليل؟

– إني أفكر يا عمتي.

– هل يعلم والدك أنك هنا؟

– كلا .

فوضعت يدها على كتفي وحاولت سوقي إلى البيت، فهززت رأسي وقلت: كلا، بل يجب أن أبقى هنا لأفكر. ولقد بدا لي آنذاك أني لو أطلت التفكير لتذكرت المكان الذي نشأت فيه. ولا شك في أني كنت صغيرة جداً عندما بدأت أفكر في الله. وفكرت أيضاً في إبليس الذي خيل إلي أنه واقف لي بالمرصاد لاختطاف روحي، كنت في تلك الأيام أحضر القداس في الكنيسة الانكليزية، وبدا لي أن الوقت قد حان لحل مشكلة الله طبعاً، فهو القادر على كل شيء. فأجبتها متحدية: إذن لماذا لا يقتل إبليس فلا أظل فتاة سيئة تذهب أخيراً إلى المكان الملتهب؟ – (تعني جهنم) .

إني على يقين أني ما كنت لأدخل المسرح لو كان أبي حياً، بل لبقينا على الأرجح في كندا. كان أبي رجلاً طيباً وسيماً مرحاً ذا شعر كستنائي

ويدين ناعمتين تصلحان لعمل أفضل، إلا أن كندا كانت تصاب في تلك الأيام بهزات اقتصادية، مما اضطر أبي إلى العمل طيلة الليل في أحد المسارح في إقامة المناظر وتغييرها بحيث أصيبت يداه الناعمتان بخدوش وقروح. وقد سمعت هذا من أمي، فأنا لا أتذكره وإنما أتذكر أول مرة أعطاني فيها نقوداً. إذ وقف إلى جانبي وطلب إلي أن أفتح يدي وألقى فيهما ٧٥ سنتاً كسبها تلك الليلة، وكان هذا المبلغ آنذاك يساوي أكثر من خمسة دولارات في هذه الأيام.

وأعطيت المبلغ إلى أمي بكثير من الزهو. وأتذكر حادثة أخرى تتعلق بإغراء المال، وذلك عندما أسقطت أختي قطعة نقد من فئة خمسة سنتات بين نوابض البيانو، فقررت أن أكسر جميع النوابض لاسترداد الكنز الثمين، وقد قبضت علي جدتي وأنا أحمل المطرقة في طريقي إلى البيانو.

كنت كلما فزت بفلسٍ أمضي إلى بائع الأزهار فأبتاع وردة وأعود إلى البيت لأعتني بها. ورأيت عنده ذات يوم وردة متفتحة تكاد أن تتناثر فطلبت منه أن يعطيني إياها إن كان في غنى عنها، فوهبني إياها مجاناً، وصار من دأبي بعد ذلك أن أشتري وردة مكممة بفلس وآخذ أخرى متفتحة مجاناً، مما دعاه إلى سؤالي ذات يوم: ماذا تفعلين بالزهرة الثانية؟ قلت: إني آكلها. كان هذا هو الواقع – كنت آكلها رغم مرارة طعمها لعلي أكتسب جمالها ولونها وعطر أريجها. وهذا التجاوب البريء مع كل ما هو جميل الشكل أو بديع المنظر دفع بي مرة إلى السرقة. فقد أرسلت لأشتري بعض الحب لعصفورنا، فرأيت عند البائع سمكة ذهبية اللون، أخذت بجمالها المتألق فاختطفتها وعدوت بها وكأني أطير بجناحي ملاك. وكانت المسافة تربو على ميل صعوداً، فوصلت البيت لاهثة ولم أجد مكاناً فيه ماء لأضعها فيه على الفور سوى المرحاض. وما إن ألقيت بها حتى كان لونها قد اربد وذهب معه جمالها وحركتها. وهرعت جدتي هنسي تستطلع سبب اندفاعي وما إن ألقت نظرة على السمكة حتى زفت إلي نبأ موتها.

كانت أمي تباهي بقولها إن أولاد سمث لا يسرقون دبوساً ! فلم أجرؤ على الاعتراف بسرقة السمكة إلا بعد سنوات عديدة. ويؤنبني ضميري أيضاً بسبب «علقة أكلتها» أختي عني وكنت أنا استحقها. فقد كان لأبي رسم كبير معلق على سبورة، وقد جللته والدتي بوشاح من الحرير الأصفر تدلت منه عذبات (شراريب) ناعمة لامعة. فبللت أصابع يدي بريقي وطفقت أفتل العذبات بغية أن تبدو كالحلقات الذهبية. ولكن كانت النتيجة لسوء حظي وخيبتي أن بدت فتلات قذرة شوهاء. وجن جنون والدتي عندما اكتشفت ذلك التخريب وانتهاك حرمة الصورة. فلم تسأل عن الجاني وإنما تناولت أختي وأوسعتها ضرباً. ولا أزال أرى وجه المسكينة وقد تحبهم احتجاجاً على اتهامها وهي بريئة ! واعترفت أخيراً بذنبي، ولكن أمي كانت قد صبت جام غضبها، فأجلستني على ركبتها وطفقت تعظني وتوبخني على التلكؤ في الاعتراف إلى ما بعد وقوع الخطأ. ولعلها أعفتني من التأديب الجسماني لأني كنت مريضة. والحقيقة أني لا أذكر أن أمي ضربتني مرة – إذ كان توبيخها أشد إيلاماً من أي قصاص بالضرب .. قد يكون ذلك العبث بالوشاح الأصفر مبعث الوحي لما عرف فيما بعد بعقصات أو تجاعيد بكفورد – وكانت أختي المسكينة هي التي دفعت الثمن !

الفصل الأول

لم تكن أمي قد تجاوزت العشرين من العمر عندما أصبحت أرملاً تعيل ثلاثة أطفال عدا الجدة هنسي المريضة. إما والدي المتوفي فكان يعمل أميناً لحسابات إحدى السفن التجارية التي تسير بين تورنتو ولويستون بالقرب من شلالات نياغارا. وفي أحد الأيام بينما كان يهبط السلم من ظهر السفينة صدمته بكرة كانت تتأرجح فوق رأسه فسببت له جلطة في دماغه، لم يتمكن أمهر الأطباء من التغلب عليها رغم ما بذلوه من جهد في معالجتها. إنني أستطيع الآن أن أغمض عيني فأتصور صراخ أمي في اللحظة التي انتقل فيها أبي إلى السماء فأرى نفسي وأنا أقفز من سريري مسرعة إلى البهو، فأكون أول من وصل إلى الغرفة، ولن أنسى ما حييت شعور الاشمئزاز والرعب اللذين استوليا علي، فقد كانت أمي هناك تصرخ وتبكي بعصبية شديدة وتضرب الحائط برأسها بعد أن حلت خصل شعرها الطويل فأصبح يتدلى إلى خصرها وقد تخضبت ثيابها بالدماء. واستطعت أن أشاهد نظراتها الموحشة من وراء خصلات الشعر التي كانت تغطي وجهها. ولم تلاحظ أبداً في هذه الأثناء وقوفي بباب الغرفة، كما لم يكن لدي أي فكرة عما جرى. فقد تأملت والدي وهو مسجي في سريره فظننته نائماً، ولكن عندما وصل صراخ أمي إلى مسامع خالتي ليزا، صعدت السلم مسرعة وقد صعقت عندما وجدتني أقف هناك وقد أذهلني الرعب، فحملتني بسرعة ونزلت بي إلى غرفة نومها

في الطابق السفلي، وأخذت تهدهدني بين ذراعيها بينما صعد باقي أفراد العائلة لمواساة والدتي.

وفي اليوم التالي عرفت ماذا حدث عندما حملتني الخالة ليزا صباحاً ونزلت بي إلى غرفة الطعام وقد أدارت وجهي بعيداً عن غرفة أبي، وقد رفضت عندها تناول الإفطار وقفزت عن الكرسي ووقفت بين الحائط والمائدة وأنا أبكي وأنادي أبي بصوت يتجلى فيه الحنان والرعب.

كان أقسى ما مرَّ بي حين حملت لأقبل والدي قبلة الوداع الأخيرة. يا لها من تجربة مؤلمة تفرض على الأطفال الذين هم على شاكلتي، ومع ذلك فقد صممت أن أنقش ملامحه الوسيمة في مخيلتي. وكانت أمي تحبه حباً جماً بلغ درجة العبادة.

وكان من أمتع ذكريات طفولتي، ذكرى اليوم الذي خرجت فيه بصحبة والدي لحضور حفلة عشاء راقصة في إحدى الليالي. وكان ذلك من الحوادث النادرة، وحين أستعيد ذكرياتي أتخيل جمال أمي وهي في ثوبها الحريري الوردي الذي خاطته بنفسها، وشعرها الأسود الجميل الكثيف يزين رأسها، وأبي، أبي الحبيب. كم كان يبدو جميلاً بمعطف العشاء؟

كان أبي في تلك الأيام يتمتع بالقسط الأوفر من حبي. ولم أكن في الواقع أهتم كثيراً بأمي فقد كانت مشاغلها الكثيرة لا تسمح لها بتدليلي ومسايرتي واللعب معي، غير أن أبي كان يتحين الفرص فيقضيها معنا يلاعبنا ويقص علينا القصص المضحكة المسلية، فقد كنا ثلاثة أطفال تحت سن الرابعة، أنا وأختي الصغيرة لوتي والطفل جاك. أما الجدة هنسي فكانت تعيش معنا ترفو وتخيط الثياب، وتطبخ وتغسل، وتقوم بهذا العمل اليومي المتعب الذي له بداية وليس له نهاية.

وكنت أوفر حظاً من أختي وأخي، فقد رحب بي والدي منذ أن حملت بي أمي. أما أختي لوتي فقد أتت بعد أربعة عشر شهراً، في وقت كان فيه

والدي بحاجة إلى المال، وكانت أمي تأمل أن تلد ذكراً، وتألمت حين ولدت طفلة وزنها عشر ليبرات. لقد قيل لي أن والدي حين عاد إلى البيت يوم ولدت لوتي، سأل أمي عن الطفلة الجديدة.

فأجابته أمي، «أوه، أظن أنها في سريرها».

سأل أبي أمي وهو يتأمل وجه الطفلة، «ما الأمر »؟ هل بها شيء؟

أجابت أمي: كلا، إنها طفلة أخرى. وهذا كل ما هنالك.

حمل أبي الصرة الصغيرة وهو يبتسم ثم قال: حقاً إنها طفلة جميلة ! يجب أن تخجلي من نفسك يا لوتي.

ثم التفت إلى أختي وقال لها: لا بأس عليك يا عزيزتي شاكي، ستكونين دائماً طفلة أبيك الصغيرة المحبوبة.

دام الحال على هذا الشكل، فكانت تلك هي أول تجارب الغيرة التي أصابتني بلدغتها السامة، لأن أبي لم يدع لوتي الصغيرة المحبوبة تنسى أنها كانت طفلته المفضلة. وإني لأذكر كيف كانت تركض كالمجنونة حين يرجع والدي إلى البيت في المساء كي يحتضنها بين ذراعيه، وكنت أشعر من أعماق قلبي أنني أحتل المرتبة التالية بعد أختي، فكان هذا السبب الرئيسي في تعاستي. ولكن ضعف بنيتي كان السبب الذي دفع الجميع ليدللوني ويفسدوني وخاصة الخالة ليزا والجدة هنسي.

وعندما مات أبي تبينت أن أمي أصبحت وحيدة، فعزمت أن أعمل شيئاً لمساعدتها، فنبذت لعبتي جانباً وذهبت إلى المطبخ الفسيح، وسألتها، «هل لديك يا أماه أجرة البيت وثمن الفحم للشهر القادم؟».

كانت أمي منكبة على آلة الخياطة، ومنهمكة في إتمام بعض الثياب. وقد أخذت تزاول تلك المهنة بعد وفاة والدي، فانغمست في العالم حتى شحمة أذنيها، كل ذلك لتجمع بأقصى جهد بعض المال لتقيم به أودنا. فأجابتني بدون

تفكير، «كلا يا عزيزتي، ولكن لا تهتمي بذلك، فسأحصل عليه بطريقة ما» وأغلب الظن أنها لم تكن تعني ما تقول في ذلك الوقت.

تابعت أمي خياطتها، غير أني تسللت إلى غرفتي حيث عثرت علي خالتي ليزا بعد بضع ساعات أبكي وأنا متلفعة بالأغطية الحمراء التي اعتدت أن أتدثر بها في البهو.

– ما خطبك يا حبيبتي؟

فأجبتها وأنا انتحب: «أن آمي لا تملك حتى أجرة البيت».

هزت الخالة ليزا رأسها واندفعت إلى المطبخ غاضبة، والتفتت إلى أمي وقالت لها :

– «عليك أن تكفي عن ترديد هذه الأمور على مسامع الطفلة لوتي».

– «أية أشياء وأية أمور؟».

سألت أمي دون أن ترفع رأسها عن آلة الخياطة.

– قولك أنك لا تملكين المال اللازم للطعام أو المنزل.

– أوه يا ليزا، لم أكن أعني ذلك، لقد كنت منهمكة، شاردة الفكر، إن هذا فظيع !

– إنها تذوي وتشحب يوماً بعد يوم، ولن يساعد قلق الحصول على المال في تحسين صحتها.

ولم تقع أمي في مثل هذه الهفوة بعد ذلك. كنت كلما سألتها عن أجرة البيت، أو عن ثمن الفحم تجيبني بابتسامة مطمئنة، «نعم يا عزيزتي لدي مال كثير، فلا تقلقي اخرجي والعبي مع الأطفال الآخرين».

كان الطبيب الذي عالجني حين مرضت هو الدكتور سميث رئيس مستشفى الأطفال في تورونتو. فكانت أمي ترى أنه أنقذ حياتي أربع مرات. فقد أصبت بفقر الدم الشديد قبل أنأتم السابعة من العمر. فكنت أستلقي على

الأرض في أي مكان، وأقع في سبات عميق. وعندما لاحظت أمي أن جسمي كان يندى بالعرق أثناء الليل، أخذتني إلى العيادة. ليبارك الله مثل هذه العيادات، لقد كنت دائماً أقدر ميزة الذهاب إليها. فهناك اكتشف الطبيب لطخة في رئتي، فقال لأمي محذراً، لو تأخرت قليلاً لفاتت الفرصة، ثم أعطاني العلاج اللازم. ورتبت أمي لي طعاماً خاصاً حسب إرشاداته، فلم تمض برهة وجيزة حتى شفيت تماماً. وزارني الدكتور سميث في أحد الأيام، وأخذ يتحدث مع والدتي، فذكرها بأنه وزوجته عقيمان لم يرزقا بأولاد وأنهما أخذا منذ زمن بالتفكير في هذه المسألة، وأنهما توصلا أخيراً إلى قرار نهائي وسأل أمي، هل توافقين أن نتبناها؟ ثم أردف أننا نقدم إليها كل الميزات التي ليست في استطاعتك تقديمها. ولما كانا يحملان لقب سميث أيضاً فلن تكون هنالك حاجة لتغيير لقبي، ولكن أمي رفضت بأدب وبعزم وقالت:

– لا يمكنني أن أتصور ذلك يا دكتور سميث.

ونقلت أمي الحديث بعدئذ إلى الخالة ليزا التي استشاطت غيظاً وضربت الأرض بقدمها وقالت:

– لاحق لكِ أن تقفي في طريقها، لا يزال الأسف يلازمني لأن والدي رفضا السماح لي بأن أرافق الزوجين المثريين اللذين رغبا في أن يتبنياني.

وكانت النتيجة أن ألبستني أمي أحسن ثيابي وأخذتني إلى بيت الدكتور سميث. وفي أثناء الطريق لاحظت أن أمي، التي كانت لبقة تحب الحديث، ممتقعة الوجه صامتة، وفي البيت الكبير شاهدت الغرفة الصغيرة الجميلة التي ستصبح غرفة نومي. وقد قال لي الدكتور سميث، «يمكنك الحصول على كل ما تريدين يا غلادس».

– حصان صغير وعربة؟

– نعم.

– فراخ كل يوم؟

وقد أكدا لي بأنني سأحصل على ما أطلب، وعلى المثلجات أيضاً، ولم تنبس أمي خلال الحديث ببنت شفة. وقد قلت لأمي بسرور بينما كنا ننتظر السيارة العمومية، «تصوري كم ستحب شاكي وجوني ذلك الحصان والعربة! أما أنت والجدة فستحصلان على نصف الفراخ وسنكون جميعنا أغنياء وسعداء».

قالت أمي: «كلا يا بنيتي، فنحن لن نكون هناك، إنك ستكونين ابنة الدكتور سميث، أما شاكي وجاك فسيبقيان مع ماما».

وركعت أمي أمامي على العشب تنظر في عيني بحنان وحب، ثم أخذت تفسر لي كيف أنني لن أصبح ابنتها الصغيرة، بل سأصبح ابنة الدكتور سميث، فشعرت بالفزع يستولي على قلبي، وقلت، «هلا ترغبين في بقائي عندك يا ماما؟».

– لا تظني ذلك يا حبيبتي، فأنا أريدك أن تبقي معي دائماً، ولكني لا أستطيع أن أمنحك الحصان والعربة، ولا الفراخ والمثلجات كل يوم.

وقطعت حديثها وأنا أبكي: «إنني لا أريد أن أصبح بنت الدكتور سميث الصغيرة، ولا أحب الخيل، إنني أريد أن أعود إلى البيت معك يا ماما!».

فأخذت أمي منديلها ومسحت دموعي ودموعها وقالت وهي تهز كتفها بعزم: «لقد انتهى كل شيء، وسأخبر الخالة ليزا بذلك. ولن يحدث عبث من هذا النوع بعد الآن».

كانت أمي شديدة الولع بي فقد كنت كثيرة الشبه بوالدي، وقد أخبرتني فيما بعد أنها عندما كان يشتد بها الشوق والحنين والألم لفقدها أبي، كانت تضعني فوق المنضدة وتتأمل وجهي فتستعيد ذكريات هنائها وفي اليوم الذي قمنا فيه بزيارة الدكتور سميث، عزمت أن أسعى لكي أحل مكان والدي بطريقة خفية، وأن أحفظ عائلتي من التشتت، ومنذ تلك اللحظة بدأ إخلاصي لأمي، ذلك الإخلاص الذي أصبح أقوى وأعمق على مر السنين.

وأطلق علينا بعد ذلك لقب الفرسان الأربعة، والدتي، أختي لوتي، أخي جاك وأنا، وعندما بدأنا نكسب المال، كان يتسرب إلى محفظة أمي التي بقيت وصية علينا إلى النهاية.

ولم يكن لي رفاق من الأحداث عدا أخي وأختي، وعندما اشتدت صداقتي مع أمي، تكتلت لوتي مع جوني ضدنا، وقد جعلتني مثل هذه الأمور وغيرها أنضج قبل الأوان، فحرمت من لذات الطفولة الصحيحة.

أما بالنسبة لأخي وأختي فكان الأمر مختلفاً، لقد سألني أخي في أحد الأيام، وكان يجلس بالقرب مني بينما كنت أسرح شعري استعداداً للذهاب إلى الأستوديو، «أيتها الطفلة المسكينة، هل تمتعت بحياتك؟».

فأجبته: بدون شك، أنني أفعل الآن ما كنت أتمنى دائماً أن أفعله.

فقال: لقد اختلط الأمر عليّ، ثقي لو أنني مت غداً أنا وشاكي، فإن العالم لن يكون مديناً لنا بشيء، لقد عشنا أياماً طيبة مليئة بالمرح والضحك والهناء، أما أنت فقد حصلت على كل شيء، ولكنك يا ماري لم تحيي حياة حقيقية أبداً، ولا تعرفين كيف تلعبين.

ولم أكن قد تجاوزت الخامسة من العمر عندما أصبحت وكيلة عن أمي وكان القيام بتربية جوني وشاكي يشكل عملاً جدياً صعباً بالنسبة لي، وكان مجرد التفكير فيهما وهما يلعبان في الشارع ووجهاهما وأيديهما قذرة يسبب لي أعظم الألم. وكم من المرات كنت أطاردهما حتى آخذهما إلى البيت كي أقوم بتنظيفهما.

الفصل الثاني

لم يكن قد مضى وقت طويل على وفاة والدي حين قررت أمي أن تؤجر غرفة النوم الرئيسية الفسيحة فقد كان في البيت الكبير متسع للعائلة. ولذا فقد تقدم في أحد الأيام رجل أنيق يطلب الغرفة الخالية. ولم يكن قد سكنها حتى ذلك الوقت إلا النساء. ولكن هذا الرجل قد تمكن رغم ذلك من إقناع والدتي بأنه متزوج وأنه على ثقة من أنها ستحب زوجته. وبحثت أمي الأمر مع خالتي ليزا وجدتي. وصدر أخيراً القرار بالموافقة على ذلك العرض بشروط ملائمة محترمة. وكان لهذا القرار أكبر الأثر في تحويل مجرى حياتي. فقد كان هذا الرجل مديراً لمسرح شركة (كامينكر ستوك) في تورنتو.

وفي أحد الأيام، وبعد انقضاء أسبوعين على استقراره مع زوجته في الغرفة، سأل أمي أن تسمح له بمقابلة قصيرة. وبدأ حديثه قائلاً :

لعلك قرأت في الصحف يا مسز سميث أنني أنتج مسرحية بعنوان «الملك الفضي».

– أظن أنني قرأت ذلك.

– حسناً، هل تسمحين لابنتيك بأن تظهرا في مشهد غرفة الصف.

فغضبت أمي وقالت، إنني آسفة يا سيدي فلن أسمح أبداً لطفلتي البريئتين بأن تشتركا مع الممثلات اللواتي اعتدن التدخين.

فقال الرجل: إنني أقدر هواجسك يا مسز سميث. ولكن هل تسمحين لي قبل أن تصدري قرارك الأخير..

فأجابت: لم يعد هناك مجال للبحث. إن مجرد فكرة قيام هؤلاء الأطفال بعرض أنفسهم على مسرح عام..

فقاطعها قائلاً : إن كل ما أطلبه يا مسز سميث أن تأتي معنا هذه الليلة إلى الكواليس. وأؤكد لك أن الفنانين لا يختلفون عن الناس الآخرين. فمنهم الطيبون ومنهم الفاسدون مثل جميع البشر، وكثيراً ما توجد بين الممثلين والممثلات زمرة سعيدة محترمة تآلفت وعاشت مع بعضها زمناً طويلاً.

ولبت أمي الدعوة فقامت في تلك الليلة برحلة جريئة خلف المسرح، فتأثرت كثيراً بسلوك الممثلين والممثلات. وكان من نتيجة تلك الرحلة التفتيشية أن بدأنا أنا ولوتي عملنا المسرحي في تمثيلية (الملك الفضي).

لقد عهد إلي بدورين، ففي الأول كنت فتاة صغيرة شريرة أكره ابنة الملك الفضي (سيسي دنفر) وأحاول أن أثير عليها أترابها. وكانت أول جملة قلتها على المسرح وأنا أدق الأرض بقدمي، «أيتها البنات لا تتكلمن معها. إن أباها قد قتل رجلاً»، أما دور لوتي في هذه التمثيلية فكان متقناً ولكنه كان دوراً صامتاً.

ولعبت في الفصل الأخير دور ند دانفر شقيق سيسي، وهو دور صامت كان علي أن أجلس فيه هادئة تماماً بينما كان أبي الملك الفضي غارقاً في حديث سري مع زوجته. وقد أمرني مدير المسرح أن ألعب بمجموعة من القطع الخشبية وبحصان خشبي صغير، وأن أقيم في إحدى زوايا المسرح بحيث يصعب معه رؤيتي بوضوح. أما أنا فقد قمت عوضاً عن ذلك ببناء هرم كبير من القطع الخشبية، ودفعت الحصان الخشبي نحوه. فذعر الممثلون من ابتكاري المفاجئ وغرقت الصالة في الضحك لمنظرهم أكثر من ضحكها مما صنعته.

ولما أسدل الستار على المنظر الأخير، اقترب مدير المسرح مني وقال، لقد كنت فتاة ذكية لبقة عندما فكرت بهذا العمل.

فأجبته، أشكرك يا سيدي.

– إنك قد نلت أكبر قسط من الاستحسان في هذه الليلة.

– أشكرك يا سيدي، قلتها وقد بدأت أشعر بأنني كنت ذكية جداً، وأخذ صوته يرتفع بحزم وهو يقول: ولكن لا تحاولي مرة ثانية أن تسرقي مشهداً من ممثل آخر.

– أوه، لن أفعل ذلك أبداً يا سيدي.

– ألم تدركي أنك أفسدت الحوار بين الملك الفضي وزوجته.

– كلا يا سيدي

– إن النظارة لم يسمعوا حوارهما، وعليك، ما دمت على المسرح، ألا تصرفي انتباه النظارة عن الموضوع الأساسي.

فأجبته وقد انكمشت على نفسي: حسناً يا سيدي

غير أنني سأقوم بعمل استثنائي. لقد عزمت على إبقاء هذه القطعة الصغيرة في المشهد.

ثم بيّن لي الطريقة التي يمكنني بها أن أنتزع إعجاب الحضور، وأجعلهم يغرقون في الضحك دون أن أصطدم بالممثلين الآخرين.

كان هذا أول درس لي في علم الأخلاق والسلوك في المسرح، وكنت لا أتجاوز الخامسة من العمر، غير أن الدرس كان عميقاً ولا أظن أنني سوف أنساه ما حييت. فقد أصبحت أكره سارق المشهد حتى ولو كنت أنا ذلك الشخص السارق.

لقد كنت أنا ولوتي على ثقة أن الأب سانتا كلوز سيزورنا كالعادة في أول عيد للميلاد بعد وفاة والدي. ولما كنا نعتقد بأننا فتاتان طيبتان جداً فقد

تمنينا وانتظرنا الحصول على عربتين صغيرتين ولعبتين جميلتين، كما أن جاك تمنى دباً راقصاً.

كان صباح عيد الميلاد بارداً معتماً تهطل فيه الثلوج بغزارة، وكانت الساعة قد قاربت السادسة صباحاً عندما نهضنا من فراشنا. وإني لأذكر جيداً كيف شممنا رائحة البرتقال الذكية النادرة عندما هرعنا إلى المطبخ الدافئ، حيث كانت أمي تنتظرنا مع الجدة هنسي، وقد علمت بعدئذ أن أمي وجدتي لم تأويا إلى الفراش في تلك الليلة.

هنالك كانت العربتان واللعبتان النائمتان والدب الراقص بانتظارنا مع البرتقال والعنب والحلويات، وصفارة وطابة من المطاط، وعلى رأس كل جورب من الجوارب شخص من السكر. وقد عرفت بعد مضي عدة سنوات كيف أن أمي تمكنت من عمل هذه المعجزات بما كانت تملكه من الموارد الزهيدة التي حصلت عليها من الخياطة.

وظهرت شجاعة أمي إبداعها قبل أربعة أسابيع من حلول عيد الميلاد، وكانت لا تملك مالاً لشراء أي شيء لنا سواء أكان هدايا أو حلويات العيد المعتادة وكانت قد رأت عربة صغيرة في حانوت مجاور لنا فدخلته وعرضت على صاحبه أن تقدم له حظاراً (بارفان) مطرزاً بالأقحوان مقابل العربتين. فرضي الرجل ووافق على عرضها، ولذا فقد كان عليها أن تقوم بعمل الحظار بعد انتهائها من أعمال البيت والخياطة، (وكم من الليالي البيضاء مرت عليها وهي تطرز ذات الحظار) وإنني مستعدة في هذه الأيام للتضحية في سبيل الحصول عليه بكل غالٍ وثمين.

حلت عشية عيد الميلاد ولم تحصل أمي على غير العربتين، فلا دمى ولا مال حتى ولا الزهيد منه لعشاء تافه بمناسبة العيد. وجلست هي والجدة هنسي في المطبخ وقد تملكهما اليأس وأخذت الجدة تصلي للرب القادر ليساعدهما ويستر سوأتهما، وقد استجاب الله لصلاتها إذ قرع الجرس وحين

فتحت أمي الباب وجدت اثنين من أعضاء محفل كان أبي أحد أعضائه، فحييا وباركا لها بالعيد ثم قدما إليها عشرة دولارات، وكان هذا المبلغ حصتها من فائض المخزون الذي تقرر توزيعه بين أرامل الأعضاء المتوفين.

هرعت أمي إلى البقال والجزار ثم صادفت حانوتاً قريباً ابتاعت منه دباً راقصاً لجاك، وخاطت خلال الليل ثياباً جميلة للعبتينا.

لكم أتمنى أن يعلم رجال المحفل مقدار السرور والإيمان اللذين بعثوهما في قلوب أفراد هذه العائلة البائسة في ذلك العيد، لقد كانت هذه العملية المالية الصغيرة الجميلة ذات أثر حي لنا طيلة الحياة.

بعد أن انتقلت شركة ستوك كامينكر إلى مسرح جديد. أعطيت دوراً صغيراً صامتاً وهو استعراض للممنوعات في مسرحية ذات فصل واحد، أطلق عليها عنوان (الأبنية الصغيرة). وكان دوري يشتمل على حملي إلى المسرح وتنقلي من ذراعي ممثل إلى ذراعي ممثل آخر.

كانت تشترك معي في نفس الدور فتاة تدعى السي جانيس، وقد أسرت والدتي إلي بتقدير وإكبار أن هذه الفتاة تتناول راتباً خيالياً يبلغ خمسة وسبعين دولاراً في الأسبوع. بينما لم يكن يتجاوز راتبي الخمسة عشر دولاراً. أما السي فقد كان دورها يقوم على تقليد بارع للممثلات الشهيرات في ثيابهن القصيرة العصرية ومجوهراتهن اللامعة البراقة. وقد ذهلت أنا وأمي بغنائها وحسن تقليدها. فلم تدع أمي الفرصة تفوتها فأمسكت بيدي وقادتني إلى والدة السي لتسألها عن الوسيلة التي تستطيع بواسطتها التأهب للوصول إلى مستقبل لامع كمستقبل ابنتها.

ونصحتها مسز جانيس فقالت: خذيها لتشاهد أحسن المسرحيات وأقدر الممثلين، ولكن يجب عليها ألا تقلد أحداً، وفيما عدا ذلك يوجد شيء مهم جداً وهو أن تدعيها تكوِّن شخصيتها وتسير على طبيعتها. وقد ساعدتني هذه النصائح كثيراً وأفادتني في السنين التالية. وكان من نتيجة هذه العلاقة أن أصبحنا أنا والسي صديقتين حميمتين، كما أصبحت أمي وأمها كذلك.

وقد أخذت أمي تهتم بالمسرح منذ ذلك الحين، فقد كانت تطالع إحدى الصحف في أحد الأيام، وحينما قرأت أن فرقة جديدة هي «فالنتاين ستوك كومباني» عزمت على إخراج مسرحية «الملك الفضي» أسرعت بإنهاء عملها اليومي ثم ألبستني أفخر ثيابي وخرجنا معاً وهي تقول: إننا ذاهبتان لنرى ما إذا كانوا سيقبلونك للقيام بنفس الأدوار يا عزيزتي. ومع أنه كان لي آرائي الخاصة في تلك اللحظة، ولكنني لم أنبس ببنت شفة، وبعد أن قابلنا (ميس آن بلانك) رئيسة الشركة وتحدثنا إليها رفعت رأسي وقلت لها مقاطعة والدتي التي ملأتها الدهشة والذهول: إنني أريد أن أقوم بدور سيسي دانفر.

ودهشت أمي لدى سماعها ميس بلانك تقول:

– إنني لا أرى أي مانع يدعو لعدم قيامك بهذا الدور.

فقاطعتها أمي قائلة ولكن يا ميس بلانك إنها لا تستطيع القراءة وهذا الدور طويل.

غير أنني علمت بغريزتي أن لميس بلانك قلباً رقيقاً وروحاً طيبة فذهبت إليها ووضعت يدي في يدها ونظرت إلى وجهها وقلت:

– أرجوك يا سيدتي، دعيني أجرب.

وقد أذابت هذه الإشارة مقاومة أمي وعنادها فقالت:

– حسناً، لا بأس، دعينا نجرب، وسنبدأ العمل في هذه الليلة ولكنني أعلم أنها لن تستطيع حفظ هذا الدور الطويل.

واعتزمت أن أتغلب على هذه العقبة وأن أثبت ذلك لأمي. وبدأنا العمل منذ اللحظة التي كنا فيها تحت عمود المصباح ننتظر السيارة العمومية لنقلنا عائدتين إلى المنزل. وقد أخذت أمي تقرأ السطور والإشارات وأنا أرددها وتابعنا عملنا في السيارة أثناء طريقنا إلى البيت، وقبل أن آوي إلى فراشي في تلك الليلة كنت قد حفظت عن ظهر قلب الفصل الأول بكامله.

ولقد كان هناك سبب آخر يدفعني للقيام بدور سيسي دنفر. فقبيل مقابلتنا لميس بلانك، كنت قد حضرت الحفلة الصباحية لشركة فالنتاين ستوك كومباني. وكنت صغيرة لا أستطيع أن أرى ما يدور على المسرح فاضطرت أمي أن تجلسني على ركبتيها أو ركبتي خالتي ليزا أو ابنة عمي، فاستطعت أن أشاهد التمثيل من فوق رؤوس النظارة. وكان يقوم بدور الملك الفضي شاب وسيم الطلعة اسمه جاك وبستر، وحقيقة الأمر أنني وقعت في غرامه، وكان هذا هو السبب الوحيد الذي دفعني لأطلب تمثيل دور سيسي دنفر لأنه كان على وبستر أن يقوم بدور أب لي في التمثيلية.

وفي صباح أحد الأيام، كانت الخالة ليزا تتصفح إحدى الصحف المحلية وهي تتناول طعام الإفطار فاسترعى انتباهها خبر، فالتفتت إلينا وقالت: «أوه، مسكين جاك وبستر».

فسألتها أمي : ماذا حدث له ؟

فأجابتها خالتي : لقد أصيب المسكين بذات الرئة.

وصادف في هذه اللحظة أن خطفت أختي شاكي ملعقة البيض من أمامي، فصرخت وقفزت من مكاني على المائدة، وارتميت باكية على السرير، وأنا أضرب الهواء بقدمي، وكان من نتيجة عملي هذا أن صبت العائلة جام غضبها على شاكي المسكينة. ولكن ابنة خالتي قالت بكل لطف:

– لا تتوهموا، إنها لا تبكي على ملعقة البيض، بل إنها تبكي على مرض جاك وبستر.

ومضت بضعة أيام أخذت بعدها أسعل بشدة، وارتفعت حرارتي، وقد شعرت بالمرض يأكل جسمي. وبعد أن جاء الطبيب وفحصني أعلن أن ما بي حالة خطيرة لذات الرئة. فشعرت بسرور عظيم لقوله لأنه لم تكن لدي أي فكرة عما تعنيه كلمة ذات الرئة، وكنت سعيدة هانئة عند ذاك لأنني وقعت بنفس المرض الذي وقع فيه حبيبي جاك وبستر. وحين أخذت في التماثل

للشفاء بعد حين، وبينما كنت أقضي دور النقاهة في منزلنا أسندت ميس بلانك إلي دوراً في مسرحية «كوخ العم توم ». وكان من دواعي سروري العظيم، أن أرسلت لنا عربة لتقلني وأمي. وكنت لا أزال أشكو انحطاط قواي من آثار ذات الرئة، وقد تدثرت بأغطية ثقيلة قبل أن استقل العربة إلى المسرح، فكانت هذه هي أول تجربة لي في التمتع بنوع من أنواع الرفاهية. وحين وصلنا خرج جاك وبستر إلينا وحملني وأغطيتي إلى المسرح. وربما كان عمله هذا، هو أعظم انتصار لي في حياتي.

ولم ينزعج جاك من حملي إذ إنه كان يشعر بانعطاف نحوي، هذا إلى جانب كونه رقيقاً لطيفاً، بينما كنت صغيرة الحجم وأنا في سن السادسة، فكان من ينظر إلي يظن أنني لم أتجاوز الثالثة من العمر، وعندما حملني قال:

– إنني سعيد لأن أرى طفلتي العزيزة الصغيرة تعود ثانية.

ولم يسعفني التفكير إلا أن أجيبه بهذه الكلمات التافهة : مستر وبستر، لقد أصابني نفس الشيء الذي أصابك.

قال : إنني أعلم ذلك، وإني أشعر بمثل ما تشعرين يا طفلتي المسكينة.

ولم أر جاك وبستر بعد ذلك أبداً كان بإمكاني رؤيته بعد سنين عديدة، ولكني أردت أن أحفظ ذكرى حبي الأول كما عرفته.

وقررت جدتي سميث القاسية أن تشاهد مسرحية (كوخ العم توم) التي كنت أقوم بأحد الأدوار الصغيرة فيها. ولم أكن أعلم رأيها في تمثيلي، غير أن النتيجة كانت أنها حرمت على نفسها الذهاب إلى المسرح، إلى أن مثلت فيلماً سينمائياً تخيلت جدتي من عنوانه (في عربة الأسقف) أنه فلم ديني. وكم كان استنكارها وأسفها شديدين عندما اكتشفت أنني كنت أقوم بدور لص في ذلك الفلم الملعون. وقد قيل لي حينذاك أنها أصيبت بنوبة إغماء عندما خرجت بثوب الرقص القصير. فتركت المسرح مسرعة وهي تغطي وجهها بيديها وترجع القهقرى بسرعة.

وعلى الرغم من حبي لجدتي الايرلندية فإنني أعترف بأنها لم تكن أحسن ولا أدق تفكيراً بالنسبة للمسرح من الجدة سميث.

وإذا كنت قد ورثت حب المسرح، فمن المؤكد أن ذلك يعود إلى جدي الايرلندي المرح الذي كانت تحدثني أمي عنه، وكيف أنه كان يقف خارج المسرح، وينتظر الساعات الطوال حتى يكون أول الداخلين إلى الصالة من النظارة. وقد استطاع أن يقنع الجدة هنسي بمرافقته في إحدى الليالي، ولما استقرا في مقعديهما صادف أن مرت عربة الإطفاء من أمام المسرح وهي تدق بأجراسها، فخيل إلى جدتي أن البيت يحترق، وأن أولادها أصبحوا طعماً للنيران، فاندفعت خارجة من المسرح إلى البيت وفي أثرها جدي غاضباً، فوصلت وهي على وشك الإغماء، لتجد البيت والعائلة والأولاد سالمين لم يمسهم أذى. وكانت هذه هي خاتمة المسرح بالنسبة لجدتي، لأنها أعلنت بعد ذلك أنها لن تدفع مالها لكي تغش نفسها بمشاهدة أشخاص جعلوا من أنفسهم أضحوكة للناس.

وتضاءلت أمامي فرص الدراسة عندما ابتدأت بالتمثيل، أما دراستي الفعلية الوحيدة التي تحققت فهي عندما كنت في سن السادسة في مدرسة شارع لويزا في تورنتو والتي تخرج منها والدي وأخوته وأخواته جميعاً.

وفي تلك الأيام كانت أمي تخرج مبكرة للعمل، وكان علينا أنا وشاكي أن نغسل وجوهنا ونلبس ثيابنا، وكنا دائماً نندفع مسرعتين كالمجانين إلى المدرسة، وغالباً ما كنا نتأخر، ولن أنسى الرعب الذي كان ينتابني ويشل تفكيري لدى سماعي ناقوس المدرسة يقرع بينما لا نزال أنا ولوتي في منتصف الطريق نحو هدفنا، وقد أنذرتنا رئيسة المدرسة مراراً بأنها تكره التلميذات المتأخرات. وفي أحد الأيام، كنا قد تأخرنا أنا ولوتي مرتين متواليتين، فأخذت الرئيسة في تأنيبنا بقسوة وأنذرتنا بشدة قائلة :

– «إذا تأخرتما ثانية فإن الشيطان سيرسل إليكما عربة كبيرة سوداء، ولن تريا أمكما بعدها أبداً» .

ولم ننتظر حتى نسمع كلمة أخرى ولم نرتد قبعتينا ولا معطفينا وخرجنا في البرد القارص نسقط تارة وننزلق أخرى ونحن نبكي حتى جمدت الدموع في أعيننا. وحين وصلنا إلى البيت، وكان قد صادف وصولنا إلى البيت بعد وصول أمنا بقليل، دخلنا وتركنا باب البيت مفتوحاً على مصراعيه ونحن لا نستطيع التكلم من شدة الرعب الذي سيطر علينا. وعندما أخبرنا أمي ونحن نرتجف بما قالت الرئيسة استولى عليها غضب شديد ثم أخذت تطمئننا بأن ما قالته ما هو إلا من نافلة القول وأنه خال من الحقيقة وأنه وهم وخبل ثم ألبستنا ثياباً دافئة، وعادت بنا إلى المدرسة، وعندما واجهت الرئيسة سألتها بهدوء عما إذا كانت حقاً قد وجهت إلينا هذا التهديد بأن الشيطان آتٍ ليأخذنا في عربة كبيرة سوداء.

فأجابت الرئيسة: بدون شك، لقد قلت ذلك يا مسز سميث، وهذا هو أقل ما تستحقانه.

فسألتها أمي: ماذا تستحقان حسب تقديرك يا مس أدامس؟

-علقة جيدة .

فأجابتها أمي بهدوء بأنها إذا وضعت يدها علي أو على لوتي، فإنها (أي أمي) لن تكون مسؤولة عما يمكن أن يحدث لها. وأنها ذاهبة إلى مجلس التربية لتقدم شكواها ضدها.

ومضي علي عدة أسابيع كنت أصحو خلال ليلها من نومي فأقفز من السرير وأنا أصيح : «العربة السوداء.. كلا.. كلا..».

وفقدت شهيتي بسبب هذه الأحلام المزعجة، ففكرت أمي بأن تعرضني على الطبيب الذي نصح بأن أترك المدرسة، والواقع أنني كنت مريضة وعصبية المزاج خلال السنين التالية في أكثر الأوقات وغير صالحة للبقاء في المدرسة لضعف جسمي، وعندئذ اضطرت والدتي، التي كانت قد تلقت علمها وثقافتها عن الراهبات، أن تبتاع لي كتباً مدرسية وأن تحمل على عاتقها عبء

تعليمي، ومع هذا فأنا أعزو كثيراً من السهولة التي كنت أقرأ بها في صغري إلى ممارستي قراءة اليافطات والإعلانات المعلقة في القطارات ولم يعد بوسعي الآن تقدير كمية القرطاسية التي استعملتها وأنا أتنقل في الفنادق لتحسين خطي، فكنت أنسخ كل ما يعجبني، فساعدني ذلك على تقوية ذاكرتي وتعويدها على الحفظ، تلك الذاكرة التي كانت نعمة ونقمة في وقت واحد.

وقد كانت أمي تسعى لتقوية ذاكرتي أيضاً. وإنني لأذكر الآن كيف كانت ترسلني إلى أحد مخازن البقالة وتطلب مني أن أكوِّن قائمة في عقلي تحوي كل شيء كنت أراه. فكنت أجرب حين أرجع أن أقدم إليها تقريراً مفصلاً عما رأيته. أما أعظم انتصار لي فكان يوم أرسلتني أمي إلى أحد المخازن في تورنتو لكي أشتري لها ملفاً من الخيوط الوردية لاستعماله في خياطة أحد ثياب السهرة الذي كانت تقوم بصنعه. ولم أتحقق أنني لم آت بمثل الخيط المطلوب إلا عندما وصلت المخزن. لقد كان الطريق من البيت إلى المخزن طويلاً، فقررت أن أبتاع مطلوبي دون الرجوع إلى المسطرة. ولما كنت أصغر من أن أرى ما على المنضدة فقد قرعت الصندوق الزجاجي، وعندما انحنت البائعة رأتني، قلت لها أنني أريد أن أبتاع بعض الخيوط الوردية التي تناسب ثوباً للسهرة.

فقالت، أين هي مسطرتك؟

– لا يوجد معي مسطرة.

فاستدارت ورفعتني بين ذراعيها وأخذت تريني الملفات.

قلت لها، سآخذ تلك اللفافة، وعند رجوعي إلى البيت وجدت الخيط مناسباً تماما للثوب، وأصبحت بعدها لا أخفي اعتزازي بنفسي لأن والدتي أعجبت بي منذ ذلك اليوم، وحدث أن قمت مرة بدهان بيانو أمي الثمين المصنوع من خشب المفني، فطليته باللون الأحمر الفاتح. إذ بللت الطباشير في فمي واستعملتها في تلوين البيانو. وكنت أستحق أشد العقاب جزاءً لي

على ما فعلت، ولكن أمي لم تكن امرأة عادية لقد أدركت تلك الحبيبة أنني كنت أعمل لأفاجئها بلون جديد من الجمال، فيا لها من أم يمكن الركون إليها لتقود طفلة حرمت من فرص التعليم المدرسي.

أصبحت لا تكاد الدنيا تسعني لاقتنائي دراجة جميلة، لقد كنت أقتر على نفسي حتى أجمع من مصروفي الضئيل عشر سنتات فأستأجر بهذه النقود دراجة لمدة ساعة، وبعد انقضاء الساعة أرجع ثانية للتقتير، وهكذا دواليك. وكانت تلك السويعات هي الفرص البسيطة تقريباً، التي كنت أشعر خلالها بطفولتي. وإني لأذكر جيداً يوم قادتني أمي إلى واجهة أحد المخازن ثم أشارت إلى دراجة وقالت : هذه هدية عيد ميلادك.

كنت في الثامنة من العمر ومع شعور الغبطة الذي غمرني لحظة وجيزة حين سماعي قولها، فقد تغلبت شخصيتي المقتصدة، فطلبت أن أعرف ثمن تلك الدراجة. وحين أخبرتني أمي أن ثمنها خمسة وعشرين دولاراً. رفضت قبولها بتاتاً وقلت لها، إنها غالية الثمن. ولكنها أقنعتني أنها سوف تحل مشكلة الثمن، إنني أعتقد أن والدتي تستحق اللوم لشدة تسامحها معي، وأخيراً خرجت من المكان وأنا أركب الدراجة وسرت جنباً إلى جنب مع والدتي في الشارع، وإني أثق الآن أن أية سيارة لا يمكن أن تجعلني أشعر بالفخر والكبرياء حتى ولا سيارتي الرولس رويس كما شعرت حين كنت أركب الدراجة.

كانت أختي لوتي تتوق للحصول على ريشة كبيرة من الصفصاف الأبيض. فاشترتها أمي بخمسة دولارات لتقدمها لها احتفالاً بعيد ميلادها. وقد لامتها إحدى صديقاتها على هذا الإسراف. ولكن أمي أجابتها، سأقدم لأطفالي كل ما يمكنني في سبيل إسعادهم ما دمت على قيد الحياة. وحين أفارق هذه الدنيا فلن تكون لريشة الصفصاف أي قيمة عند لوتي. أما الآن فإنها تعني شيئاً كثيراً. لقد كان هذا مثل الأمهات الذين كانت شارلوت سميث منهن. فلا بد أن يعبدها أولادها.

الفصل الثالث

بدأت سيسي دنفر تعمل مع شركة فالنتاين فقامت بسلسلة من الأدوار التي تألقت فيها. ومنها دور مابل بين في التمثيلية (المدرسة الصغيرة الحمراء). لقد غيرت هذه التمثيلية مجرى حياتي. أما مؤلفها «هال ريد» والد الممثل السينمائي الشهير والاس ريد، فقد قدم إلى تورنتو ليشرف على إخراج هذه التمثيلية. وقد ارتبطنا نحن الأربعة معه بعقد للتمثيل في برودواي خلال وجوده هناك وكنا نتوقع أن نتلقى كلمة منه في الخريف القادم عندما نأتي إلى نيويورك، أما أمي فقد أسرعت فباعت جميع أثاث منزلنا، واتخذت استعدادات كبيرة لانتقال دائم إلى المكان الذي قيل لنا بأن شوارعه مرصوفة بالذهب.

مضى أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أُكتوبر) .. ولم يخطرنا مستر ريد بشيء، وقد داخل أمي الشك بأن هناك خطأ ما، ثم تكشف السر في أواخر كانون الأول (ديسمبر) ولم نعلم بما حدث إلا بعد زمن طويل، حينما كنا في نيويورك، أن هال ريد قد باع تمثيليته إلى أحد المنتجين في نيويورك كما اتضح أنه نسي تماماً الاتفاق الذي عقد بينه وبين عائلة سميث في تورنتو، أما أنا وشاكي فقد أزعجنا الانتظار لأننا أحببنا التمثيلية.

وفي أيلول ظهر أن العمل قد بدأ في مسرحية (المدرسة الصغيرة الحمراء) وأن فتاة جميلة تدعى ليليان كيش، قد حلت محلي في دور مابل بين. وكانت تلك الفتاة تحت رعاية صديقة حميمة للسيدة كيش. شاءت الصدفة

أن تمرض هذه السيدة، فتضطر للعودة إلى نيويورك لإجراء عملية، فاضطرت ليليان عندئذ إلى التخلي عن دورها، ويظهر أن بعضهم تذكر عائلة سميث، فأبرق إلى والدتي: «نريد غلادس غلادس فقط». غير أن جواب أمي كان حاسماً إذ أبرقت تقول «إذا كنتم تريدون غلادس، فعليكم أن تتعاقدوا مع لوتي وجاك وأمهم أيضاً». ويبدو أنهم كانوا بحاجة ملحة لفتاة صغيرة تقوم بهذا الدور، لأنهم استسلموا وخضعوا لتصميم والدتي، فاضطروا أن يتعاقدوا معنا لقاء مبلغ إجمالي قدره عشرون دولاراً في الأسبوع.

حفظت أمي الدور النسائي، ولوتي دور جوني واطسون – وهو الدور الذي كانت قد بدأته في تورنتو – كما ظهر كل من جاك ولوتي في مشهد المدرسة وغيروا اسم التمثيلية فأصبح «لأجل حياة إنسانية».

قضي الأمر، وقررت والدتي متابعة العمل واتخاذ التمثيل حرفة، فانتقلنا من بوفالو إلى نيويورك. وقد استولت علي خيبة أمل شديدة لدى وصولي، وكان أعظم منظر في هذه المدينة الصاخبة وقعت عيناي عليه هو بناية فلايترون وإني لأذكر كيف أن رؤيتها لأول مرة لم تثر من مشاعري إلا النزر اليسير، وكيف أنني كنت أشعر بالاشمئزاز والضيق من الفنادق المعدة لنزول الممثلين في نيويورك. وأشهرها في ذلك الحين «موم باروز». وقد شعرنا حين دخوله لأول مرة كأننا حقاً في استعراض فني. ورغم ذلك الجمال فلم تنشأ بيني وبين (موم بارو) صاحبة الفندق ألفة قط. وأذكر أنها اندفعت إلى غرفتي في صباح يوم في الساعة التاسعة دون أن تقرع الباب وصاحت قائلة، «عليك أن تنزلي إلى القاعة لتناول طعام فطورك خلال خمس دقائق، وإلا فقدت طعامك». فقلت لها، إن أهل الفن والمسرح لا يستيقظون باكراً، ولكنني مع هذا ألزمت الصمت فلم أنبس ببنت شفة لأنني كنت قد صدمت بإيقاظي باكراً، ولكن ملامح وجهي كانت تعبر عن مختلف مشاعري.

كان علينا أن نتعلم آداب المائدة من جديد في نيويورك، كيلا يفتضح أمرنا. فقد علمتنا أمي على الفور الطريقة الأمريكية لتبديل الشوكة إلى الخلف

وإلى الأمام بدلاً من إبقائها في الجهة اليسرى كما هي العادة لدى الكنديين والانكليز. لقد كانت أمي ترغب في أن نظهر على أحسن حال، كما كانت تقول لنا. وكنا في كل ليلة نغسل ونكوي ما اتسخ من ثيابنا «احتراماً لأنفسنا وللآخرين ثانياً» وكانت شديدة التشبث في لبس قفازها، ولا أنسى أبداً ما أعلنته بهذا الشأن قائلة، لا تستحق السيدة لقبها إلا بعد أن تمتنع عن الخروج من منزلها بدون قفاز. أما السيدة التي تضعهما وهي على عتبة منزلها، فلا تكون سيدة بالمعنى الصحيح. أما السيدة التي تضعهما في الشارع فهي ليست سيدة إطلاقاً.

كانت أمي قد أتت إلى نيويورك في مهمة التماس عمل لنا للموسم القادم. ولا يمكن لأي كان أن يكون فكرة عما يعنيه هذا، ما لم يجرب أن يبحث عن عمل على المسرح. فهناك في نيويورك حرارة الصيف القاسية، وخشونة المستقبلين، ورؤية الممثلين الجائعين بياقاتهم المصنوعة من السللو لوئيد ووجوههم النبيلة، والنساء الشقراوات شديدات البياض في جواهرهن الفيروزية وثيابهن المزركشة، وأحمر الشفاه الذي بدأ يتلاشى لازدياد الحرارة، وطول أيام الصيف. كل هذا يضيف إلى كاهل الباحث عن العمل عبئاً يزداد ثقلاً على مر الأيام وسترافقني تلك الصور، ومنها صورتنا، ونحن ندلف إلى مكاتب العمل، سترافقني إلى آخر العمر.

لقد حلمت طيلة حياتي حلمين متكدرين، كان كل منهما كالكابوس يملؤني رعباً، أحدهما رؤية المسرح فارغاً لدى العرض وقد لازمني هذا الحلم حتى هذا اليوم، ويلوح لي أن عظم الكارثة القادمة من أي مشروع أو أية رحلة يقاس بعدد المقاعد الشاغرة، وما ارتفع الستار مرة إلا وكنت في حالة نفسية قلقة خوفاً من أن يكتب القدر بأصابعه القاسية الفشل للتمثيلية وتكون من نتيجة ذلك أن تحزم الشركة متاعها وتتركنا وتذهب.

أما الكابوس الآخر فحينما أكون على خشبة المسرح، فأنسى الحوار الوارد في الرواية. وأقف وقد ارتج علي القول من الرعب، ويزداد هذا

الضغط خوفاً من الإهانة التي ستلحقني، ويحيق بي رعب مميت مما قد يأتي به الغد.

والحقيقة أنني لم أتحرر تماماً من الخوف حين الظهور على المسرح والوقوف أمام الكاميرا. ولا أذكر أنني وقفت مرة أمام الكاميرا إلا وشعرت بالرهبة واعترتني قشعريرة وارتفعت حرارتي في الأيام الثلاث أو الأربع الأولى بصرف النظر عما إذا كان وقوفي لأداء دور تمثيلي أم فلم سينمائي. وأود بهذه المناسبة أن أقول أنني لم أحب أياً من أفلامي، وحدث ذات مرة أن كنا في بازادينا قبل تصوير أحد الأفلام، فرأيت نفسي أصرخ أمام جميع أفراد الشركة وأقول، «إنني أقدم اعتذاري إليكم عن هذا الفيلم وعن تمثيلي فيه، فهما أردأ مما يجب أن يكونا عليه».

ولنرجع ثانية إلى أيام طفولتي، لقد وقعت أمي عقداً باسمنا مع سوليفان وشركاه لنقوم بالتمثيل في رواية شهيرة أطلق عليها اسم (الزواج المشؤوم) ولما كان العمل سيبدأ في الخريف فقد عدنا إلى تورنتو لتمضية أشهر الصيف ولكن لم نكن نملك سوى مبلغ ضئيل من المال، وكم قاسينا من المتاعب والمشاق في ذلك الوقت.

وكان عندنا ديك كما أذكر، وكنا نحبه كما لو كان أحد أفراد العائلة ونحتفظ به في الباحة الخلفية من البيت حيث استأجرت والدتي منزلاً لإقامتنا في تورنتو، ومضى علينا وقت طويل دون أن نتناول طعاماً شهياً طيباً وفي ذات يوم ظهرت على المائدة بعض المأكل الدسمة الطيبة ومنها ديك، فنظرت من النافذة التي تشرف على الباحة الخلفية ولم أفه بكلمة كما لم ينبس أحدنا ببنت شفة، ولم يلمسه أحد منا. وعندما انتهينا من الطعام كعادتنا رمى أخي جاك بنفسه على السرير وهو ينتحب بمرارة. ووصل بنا الضيق إلى أقصى حدوده وذلك حينما أصيبت أمي بمرض يتطلب عملية جراحية، وقد أجريت لها في غرفتها، فلم نكن نستطيع أن ندفع مصاريف المستشفى وأخذت بعدها أعمل على ماكينة الخياطة والرعب يسيطر على نفسي من أن أفقد الآن أمي

كما فقدت أبي، ولم يتح لأمي المسكينة أن تقضي فترة مرضها براحة، فقد اضطررنا بعد مضي أربع وعشرين ساعة أن نستقل القطار في طريقنا إلى نيويورك.

لا أدري كيف عاشت أمي بعد قيامها بهذه الرحلة وهي جالسة طوال الليل في القطار، ولكننا في صباح اليوم التالي كنا نقوم بالتمارين في نفس الوقت المحدد بدون أن يتاح لنا فرصة تناول إفطارنا.

كان مدير مسرحية (الزواج المشؤوم) قاسياً متعجرفاً، يسره تعذيب من يعمل تحت إشرافه. وحين كنا نقوم بالتمارين في ذلك الصباح التفت إلى أمي وقال، «عليك أن تحسني عملك وإلا بدلتك بأخرى». وقد وقعت هذه الكلمات عليّ كضرب السياط، وكان باستطاعة أمي أن تهمس بأننا لم نتناول طعاماً منذ البارحة ولو تناولت قدحاً من الشاي على الأقل لأحسنت عملها، ولكنها مريضة جائعة منهكة.

فأجابته أمي وهي تعتذر، أعدك بأنني سأكون أفضل في تمرين هذا المساء. وكنت الوحيدة بين الأطفال التي تعلم حق العلم ما كانت تكابده في تلك اللحظة. كنت أعلم أنها كانت تتألم، فقد كانت ضعيفة، تعبة، خائفة، ولكن كان كل مستقبل عائلة سميث غير المؤمن يتعلق بنتيجة حاصل هذا اليوم القاسي.

ولا يزال بإمكاني أن أتصور دناءة نظرات ذلك المدير التي لاحت على وجهه حين كنا نقوم بتمرين آخر أقيم بعد ذلك بوقت قصير كانت أمي تقوم بدور خادمة ايرلندية تدعى بريدجيت، وكان دورها يقضي بأن تحمل آنية ملأى بالزهور. وقد أخذ المدير يهزأ بها قائلاً، «ماذا تظنين أنك تحملين يا مسز سميث، هل تظنين أنك تحملين قطعة من الجبن؟». وكانت أول حفلة لمسرحية (الزواج المشؤوم) ستقام لليلة واحدة في بوتسفيل في بنسيلفانيا. وكانت أمي أول من يبدأ الكلام. وقد أخذت لوتي وجوني إلى زاوية مظلمة

من الأجنحة قبل أن تبدأ أمي دورها، وركعنا وأخذنا نصلي لله أن تنجح في دورها لنضمن عملنا وقوتنا قائلين :

– «نتوسل إليك يا رب ألا تدع أمنا تنسى حوارها».

وكنا نخشى أن يعاقبها الرب لأنها كذبت على المنتج فقالت له، أنها لعبت كثيراً من الأدوار مع أن الحقيقة كانت، أنها لم تمثل قطعاً من قبل. وكانت أمي نفسها تكره الكاذب أكثر من السارق، وقد اعتادت أن تظهر احتقارها للكاذب في كل فرصة مناسبة. ولما كنا نعتقد أن الله لن يغفر لها هذه الخطيئة فقد بقينا راكعين طوال وجودها على خشبة المسرح نبكي ونصلي لله، وفي نفس الوقت نصغي بإحدى آذاننا إلى المسرح. وأتذكر أننا كنا نتناوب مراقبة أمنا لسماع ما تقوله، ثم نكر راجعين ونحن نلهث ونعود إلى الركوع والصلاة ثانية.

الفصل الرابع

لقد كنت نجمة مسرحية (الزواج المشؤوم). وهي حقيقة واقعية أثبتتها الدعاية كذلك بالنسبة لي وللجمهور. فقد وزعت آلاف الإعلانات المنمقة والملونة بمختلف الألوان، الحمراء والقرمزية والبرتقالية البراقة، سواء في الشوارع أو في البيوت والحوانيت، وقد كتب عليها (مسرحية الزواج المشؤوم) مع الطفلة المعجزة غلادس سميث، وقد أطلعت مرة على أحد هذه الإعلانات وتيقنت أن ما بها هو جدّ لا علاقة للدعاية فيه، فبدأت أنظر إلى نفسي على أساس أنني عظيمة جداً وذات قيمة لا غنى عنها، ونما في هذا التقدير الذاتي. فقد دخلت وأمي ذات ليلة غرفة زينة النجم الأول في المسرح، وكانت تسودها حالة من الغموض والفوضى وعدم الترتيب، فقالت أمي، «لم أرَ في حياتي غرفة بمثل هذه القذارة». أما أنا فوضعت يدي على ردفي وقلت:

– «يا لها من فكرة أن ينتظر مني وأنا النجمة، أن ألبس في مثل هذا المكان القذر».

وشدت أمي مئزراً على وسطها وأخذت تنظف منضدة الزينة، وفي خلال عملها كانت ترمقني شزراً بعينين تشبهان عيون النسور. والحقيقة أنني لم أر منها ولن أرى نظرة استنكار تجلى بها الاحتقار والازدراء كتلك النظرة التي ارتسمت على وجهها. وحين انتهت من تنظيف الغرفة وترتيبها رفعت رأسها واستدارت إليّ وقالت بجد :

– أريدك أن تكرري ما قلته منذ لحظة.

وأعدت كلامي وأنا أشعر بالانقباض وعدم الثقة بنفسي.

قالت أمي: أشكر الله أنه لم يسمعك أحد من أصحاب الشركة. إنك لست نجمة الشركة، كما تتوهمين، فأنت لست أكثر من طفلة حديثة النعمة خبيثة، فاسدة، مغرورة.

فأطرقت برأسي خجلاً ولم أقل شيئاً.

وتابعت أمي كلامها قائلة، لقد كتب لي أن أعيش حتى أسمع هذا الكلام الذي يبعث على الاشمئزاز من فم ابنتي، ولقد اشتبهت بوجود مثل ذلك بعض الوقت، ورأيته بالفعل في تمثيلك منذ عهد قريب، لقد أصبت بشيء واحد فقط، وهو أنك لن تستمري في القيام بدورك هذه الليلة، فستأخذ لوتي دورك، ولن ترجعي إلى التمثيل حتى تستطيعي أن تتعلمي الوداعة وتحسني سلوكك كأي طفلة عادية ظريفة. وكان هذا أقسى عقاب أوقعته بي أمي وقد حزّ في نفسي وترك أكثر من أثر ألف جلدة.

وأتممت أمي كلامها قائلة: والآن اذهبي يا غلادس وفتشي عن سطل وممسحة للأرض ومكنسة وساعديني على تنظيف هذه الغرفة.

ولا أزال منذ ذلك الحين إلى اليوم في خوف من أن يقال لي أنني مغرورة، حتى إنني خشيت من وقوع رد فعل جعلني أتطرف غالباً للجهة الأخرى. وانقضى تسعة عشر أسبوعاً لعرض حفلات (الزواج المشؤوم) التي كانت تتراوح بين ثماني وتسع حفلات تمثيلية في الأسبوع من ضمنها حفلات (ماتينيه) لم ننم خلالها مرتين في نفس السرير، يا لها من أسابيع محمومة بالنسبة للأرملة سميث وأطفالها الثلاث، جوني البالغ من العمر خمس سنوات، ولوتي ذات السنين السبع، وكلاديس البالغة ثماني سنوات. وكانت أمي دائماً تقوم بغسل الثياب وحزم الأمتعة والخياطة. وتصنع لنا ثياباً جديدة عندما يكون في مقدورها، وتتوفر أمامها السبل، أما أعز ذكرياتي خلال تلك

الأسابيع المملوءة بالحركة والضجيج فهي رؤيتها وهي جالسة في منتصف الليل تخيط الثياب الجديدة لي وللوتي.

وحين يضيق بنا الوقت عن اللحاق بالقطار، كنا نندفع خارج الفندق في الطريق مسرعين كي نلحق به. أما أمي فكانت تعمل ما في وسعها لتبقينا يقظين. وفي صباح أحد الأيام ابتكرت لعبة صغيرة لتغرينا بالاستيقاظ والحركة فطلبت منا أن نعيرها اهتمامنا، وأعلنت أننا سنشكل فرقة جنود ألمانية. وعلى الرغم من أن التعب والنعاس كانا يسيطران علينا، فقد نجحت الحيلة، فهبطنا سلم الفندق إلى الشارع ثم إلى المحطة ثم إلى القطار كدمى صغيرة صلبة من الجنود. غير أن جوني أعلن العصيان في صباح أحد الأيام، وكان تعباً يسيطر عليه النوم، ومع هذا فكنا مضطرين أن نلحق بالقطار وقد ذهب كل جهد في محاولة إيقاظ جوني عبثاً. وأخيراً قالت أمي تحثه على النهوض: «يجب عليك أن تنهض وترتدي ملابسك يا جوني».

غير أن جوني راح يتقلب في السرير الواسع والتصق بالحائط وقال: «إن النعاس يغلبني يا أماه، وأود أن أبقى هنا، ولا أريد الذهاب».

وثارت أمي لقوله، وتلك كانت إحدى المرات القليلة التي رأيت فيها أمي توشك أن تثور. وإني أثق بلا شك ولا ريب، أنه كان يحز في قلبها أن تجبر جوني الصغير النعسان على ارتداء ثيابه، والنهوض من فراشه في هذا الجو القارص المثلج ليلتحق بالقطار.

وفاض قلبها بالحنان فجلست تبكي بينما ذهبنا أنا ولوتي إلى جوني وألبسناه ثيابه وجواربه في منتهى السرعة فقد كانت رؤية أمي وهي تبكي حافزاً لنا على القيام بعمل حاسم في هذا السبيل. ولم تكن تلك الحادثة نهاية القصة، فبينما كنا نسير في طريقنا إلى المحطة مقلدين الجنود، تمرد جوني مرة أخرى، ودق الثلج بقدمه وهو يصرخ: «لن أذهب يا أماه، إنني أريد أن أعود إلى فراشي، فأنا شديد النعاس».

وأخذت أمي تتملقه وترجوه وتعده بإهدائه دوامة، وكل ما يصبو إليه، إذا قام بالمزيد من الجهد وتحلى بروح رياضية عالية، ولكن ذهبت تلك الوعود والتملق بغير طائل ولا جدوى. فقد ثبت جوني في مكانه، وكأنه تسمر في الأرض وكرر قوله، «لن أذهب» وكانت أمي تحمل حقيبتها وحقيبته، بينما كنت أنا ولوتي يحمل كل منا حقيبته. وصدف وجود سكة حديدية في منخفض شديد من الأرض حيث وقف جوني، فألقت أمي الحقائب بعزم إلى جانب الطريق، وتراجعت بضع خطوات حتى اقتربت من جوني. ودون أن تنبس ببنت شفه دفعته فوق تلك السكة داخل طبقة عميقة لينة من الثلج، وفي تلك اللحظة شعرت شعوراً أكيداً بالكراهية والاحتقار لأمي، وقد فاتني لصغر سني أن أدرك أنها استعملت تلك الطريقة العنيفة، لأن الحالة كانت أشد ما يكون حرجاً وأن معيشتنا مرهونة بإدراك القطار، والأهم من كل ذلك أنه كان يعني بقاؤنا نحن الأربعة مجتمعين. وقد سارت أمي بإصرار وعزم، وأنا ولوتي نتبعها داميتي الفؤاد وقد تملكنا الحزن والأسى. وحانت مني التفاتة فرأيت جوني قد خرج من الثلج وهو ينادي، «لا تتركيني يا أماه» فاستخفني السرور وهرعنا أنا ولوتي إليه، وعدنا به إلى أمنا وإذ بالدموع تنحدر من عيوننا مريرة يشوبها الفرح في هواء ذلك الصباح الباكر المثلج.

لقد بقيت أمقت اللون القرمزي سنين عديدة، وكان السبب هو لون مفروشات عربات القطار القرمزية، التي كانت تفوح منها رائحة غبار الفحم وكانت والدتي تمددنا فوق المقاعد ذات المساند الحديدية، ثم تستلقي لتبقى مستيقظة طوال الوقت. وكان القطار يمتلئ ببطء أثناء مروره بالقرى الواقعة على طريقه، وحين استيقظت بعد ثلاث أو أربع ساعات وجدت قدمي فوق المدفأة وحذائي يفرقع من شدة الحرارة. وقد تعلمت لكثرة الأسفار أن أنام وأنا جالسة، وحتى وأنا واقفة. ولم نكن نعلم أبداً ونحن في أعز أحلامنا، نعيم عربات النوم نحن الذين تعودنا أن نجعل من الحقائب وسائد نتكئ عليها وننام، وقد عملنا حتى من ملفات الصحف الضخمة مساند ومخدات ووسائد.

أما فطورنا فكان يتكون غالباً من الشطائر المصنوعة من لحم الخنزير المقدد مع قدح من الماء المثلج. وقد سمعت في تلك الأيام ممثلين يشكون من بعض المضايقات التافهة في حين أني أتعجب كثيراً من شجاعة شارلوت بيكفورد هنسي سميث الخارقة.

كانت والدتي ذات جمال باهر، وقد واتتها فرص ذهبية عديدة لتتزوج ثانية، ولكنها لم تفعل حتى ولم تفكر، وقد أولتني ثقتها رغم صغر سني، وكما لو كنت نداً لها. أما طالبو يدها المتتالون فكانوا يتلقون رفضاً قاطعاً فيخرجون بينما نأخذ في الضحك والتندر بأقوالهم وتزلفهم. وكان يقض مضاجعنا (أنا ولوتي وشاكي) أن تغير أمنا موقفها وتأتينا بأب جديد.

وكنا ندبر المؤامرات دون أن تعلم بها والدتنا لإحباط حظ كل مناضل يطلب يدها وإني أذكر من هؤلاء شخصاً ذا جاذبية شديدة ولهجة لندنية يدعى جونز. وأدركنا بغريزتنا حين زارنا أول مرة، أنه أقوى منافس علينا أن نقاومه فاجتمعنا نحن الثلاثة واتخذنا قراراً حاسماً في ما يجب أن نفعله، وحين جاء لزيارة والدتي في أحد الأيام، صرنا نكثر من الدخول والخروج من الغرفة التي كان يجلس فيها، ونحن نغني مقطوعة لندنية لا تفهم منها أية كلمة، ولكنها كادت تذهب بصوابه. ومهما كان شوقه في التقرب من أمي، فقد هرب حين أعمل فكره فيما ينتظره كزوج ثان للأرملة سميث. ولن أنسى أبداً منظره حين خرج والغضب يتجلى على وجهه وهو يكاد ينفجر من الغيظ. وقد حاولت أمي بعد أن أبدت غضبها أن تعاقبنا بعد هزيمة مستر جونز، ولكنها انضمت إلى موكب السرور والمرح بعدما أغلق الباب الرئيسي خلف آخر عاشق لها. وكان انتقادها الوحيد لي قولها: «لقد كانت لهجتك اللندنية فظيعة يا غلادس ! يجب علينا أن نقوم بعمل ما بشأنها».

ومن بين الأشياء التي نبغت أمي فيها، إيجادها طريقة لجعل أي من المأكولات يدوم طويلاً. وإني لأذكر الآن كيف كانت تضع شريحة لحم البقر

في رغيف من الخبز وتطرقه بسيخ دوار حتى يطرى. هذا عدا عن أنها كانت تصنع طبقاً من المأكولات أطلقنا عليه اسم «اللحم المفروم المجيد» ولم أتعلم طريقة صنعه رغم أنني اعتبره طبقي المفضل المحبوب حتى الآن، كما لم تكن أمي تهمل مياه الخضراوات حتى المحفوظة منها. فكانت تضيف إليها الطحين والزبدة وقليلاً من الملح والفلفل، وربما قليلاً من الحليب أو الكريم فتكون النتيجة طعاماً لذيذاً مغذياً مشبعاً ورخيصاً، وحين يمرض أحدنا كانت أمي ينبوعاً للمؤاساة لا ينضب. فقد امتلأ الكتاب الطبي البيتي بمئة وواحد من العلاجات التي كانت تكتنزها في رأسها، وهي تركة عدة أجيال ذهبت قبلها. وكانت تستعمل الشحم والدقيق والبصل الأحمر لإنقاص السموم في الجسم. واعتدت أن أراقبها برهبة بينما كانت تدهن باطن قدمي وراحتي يدي وتحت ذراعي وحول رقبتي بهذا التركيب الغريب.

قال لها الطبيب مرة بعد أن لاحظ تحسناً في حالتي: «هل تعلمين يا مسز سميث شيئاً آخر غير ما وصفته؟» أنني لا أفهم كيف أن رقبة الطفلة لم تتورم ولا تزال لينة.

وفسرت أمي له (وكأنها اقترفت جرماً) ما كانت تقوم به من الأعمال وتردد الطبيب هنيهة ثم قال: حسناً، إنني لا أدري، ولكنني أرى أنه لا ضرر في الدوام على استعمالها.

وعندما ذهبت لوتي مرة إلى المستشفى، وكانت مريضة بالحمى التيفية، بقيت أمي معها عشرة أسابيع طويلة إلى أن تحسنت حالتها، وقد كفت الممرضات والراهبات عن محاولة إقناع أختي بأن تتناول شيئاً من الطعام، وكانت أمي فقط هي الوحيدة التي تستطيع أن تقنعها أن تأكل أو لا تأكل وقد قال الطبيب بعد ذلك : أن لوتي مدينة بحياتها لتمريض والدتي.

الفصل الخامس

لن أنسى ما حييت المرة الأولى التي افترقنا فيها أنا ولوتي عن أمنا، فقد كنا تعاقدنا للقيام بأدوار في تمثيلية تدعى (الزوجة الطفلة) وبقيت أمي وجوني وحدهما ولا أزال أذكر الوحشة التي اعترتني بسبب بعدي عنهما أثناء رحلتي بالقطار إلى عدد من المدن.

ولم تسمح لنا والدتي بالذهاب إلا بعد أن اشترطت على مدير المسرح بأن يؤمن ذهابنا إلى المسرح وعودتنا منه، مع رجل وزوجته ممن يعملون في الشركة. ولم ينجب هذان الزوجان أطفالاً، فاكتشفنا سريعاً أنهما لا يميلان إلى الأولاد. لذا فقد كانا يتعمدان تجنبنا فعزمنا على عدم استشارتهما أو أخذ رأيهما في أي أمر من أمورنا، وكان هذا يعني أن علينا أن نقرر شؤوننا بسرعة، وكنا قد وصلنا إلى بلتيمور عندما دقت الساعة معلنة الثالثة صباحاً ولم يكن لنا مسكن نأوي إليه، فقبعت أنا ولوتي في مقعد بمؤخرة السيارة العمومية التي نقلت أفراد الفرقة إلى قلب المدينة، وأخذت أراقب اللوحات على طول الطريق بينما كانت السيارة تسير بنا بأقصى سرعة لها، وعندما لاح لي ما يشبه الفندق وكزت لوتي، وطلبت من السائق أن يقف. ثم تسللنا من السيارة دون أن ندع أحداً من أفراد الفرقة يشعر بذلك.

لقد كان الفندق مكوناً من صالة واسعة لا ترتفع عن مستوى الشارع، ومن عدد من الغرف ومنافعها في الطابق الأعلى. وكانت أبوابه مغلقة عندما

قرعنا الجرس. ولكن النور كان يسطع من الداخل، وبعد لحظات ظهر بالباب رجل ضخم كالطود يضع على وسطه مئزراً، فسألنا عما نريد بلهجة تختلط فيها الانكليزية بالألمانية.

قلت له، «إننا من الفنانين، ونريد أن نستأجر غرفة في فندقكم».

فسألني، أين هي أمكما؟

– إننا مسافران لوحدنا يا سيدي.

– آه ... لوحدكما فقط ! يا إله السماء ! إنكما لا تزالان طفلتين.

ثم نادى زوجته ذات البنية القوية التي تولت أمرنا بالحال، بينما راح زوجها يعد لنا عشاء من اللبن الساخن والخبز، كانت هي تضع لنا كيسين من الماء الساخن في فراشنا. وكانت تلك العشية ليلة عيد الميلاد، ثم تلاها أسبوع كان بمثابة الجنة بالنسبة لي وللوتي، لا يشوبه إلا فكرة بعدنا عن والدتي وجاك. لقد منحتنا هذه العائلة الألمانية كل ما نحتاج إليه من الحب والحماية خلال أسبوع إقامتنا في بلتيمور. وقد عملا على أن نصل إلى المسرح ونعود منه في أمان كل يوم. ولم يسأل أحد من أفراد الفرقة عما حدث لنا فقد كانوا يظنون أن الزوجين العقيمين يتوليان أمرنا.

كنت أتقاضى خلال ذلك العقد عشرين دولاراً في الأسبوع. ولكي أجعله يظهر أكثر عدداً من ذلك، فقد كنت أبدل ورق الخمس دولارات بأوراق من فئة دولار وأضعها في محفظة مصنوعة من جلد الشاموا معلقة حول عنقي.

وقد قررت ولوتي في ليلة العيد تلك أن علينا أن نعمل شيئاً لحماية ذلك المبلغ الذي أصبح الآن ثمانية وستين دولاراً. وقضينا كثيراً من الساعات الباقية من ليلة عيد الميلاد نبحث عن الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها ثروتنا الكبيرة. وفي صباح عيد الميلاد قطعنا الأمل من إخفاء رزمة الأوراق المالية ثم استعدناها. وفي اليوم التالي، بعد أن تداولنا بصوت منخفض، أخذنا محفظتنا إلى مكتب البريد وأرسلنا إلى والدتنا حوالة بريدية بكامل المبلغ. كان

فراقنا حلماً مزعجاً بالنسبة لوالدتي، فبعد رجوعنا قررت عندها أن تجمع العائلة ثانية في الموسم الذي يلي مسرحية «الزوجة الطفلة» .

أسرعنا نحن الأربعة بالنزول إلى الشارع الأسفل من برودواي لكي نلتمس عملاً في مكتب رجل يدعى أوغست دوبو، وهو مدير أعمال شونسياولكوت، أحد أساطين المسرح في ذلك الحين وكان الكوت هذا وكل من يعمل معه بالفرقة، ايرلنديين.

وعندما دخلنا أنا ولوتي وجاك مكتب مستر دوبو، كنا نحاول تقصير أنفسنا داخل ثيابنا لكي نظهر أصغر سناً بقدر المستطاع. وكنا نهدف من وراء ذلك، إلى أنهم إذ أرادونا أكثر طولاً فيكون باستطاعتنا العودة إلى طبيعتنا، وكم شعرنا بوطأة الفشل عندما علمنا أنهم يريدون ولدين كبيرين وفتاة صغيرة للقيام بأدوار لورد برتي ولورد الكرنون وليدي فيليس في مسرحية تدعى «ادمون بورك» وهي إنتاج فخم – بأقمشته الحريرية وستائره المطرزة – ومع ذلك فقد استطاعت أمي إقناعهم بلهجتها الايرلندية الناعمة، بأننا نستطيع القيام بالأدوار الثلاثة. وبذلك تمكنت من حملهم على قبولنا ونحن نكاد نطير من شدة الفرح.

لعبت لوتي دورين في مسرحية «ادموند بورك»، الأول دور صبي فلاح والثاني دور لورد الكرنون. ولعب جاك دور ليدي فيليس، وقمت أنا بدور لورد برتي. وما عليك إلا أن تتصور عظم الإهانة التي لحقت بجاك حينما اضطر للقيام بدور فتاة. ولا يعلم إلا الله كم بذلت من جهد وما فعلت وأنا أتوسل إليه وأتملقه وأداهنه حتى وضع على رأسه الشعر المستعار وارتدى السراويل الطويلة والمصنوعة من الأوركاندي. غير أن أشد إهانة في نظره، كانت في السراويل. وقد بذلت كل ما لدي من قوة في إقناعه حتى جاءت اللحظة التي أعلن فيها موعد بدء التمثيل.

أذعن جاك أخيراً، ولكنه لكي يظهر تحديه بين حين وآخر، كان يرفع تنورته فوق رأسه عند خروجه من المسرح أو صعوده السلم إلى غرفة

التزين، كي يكشف عن سراويله الطويلة. وكنت دائماً أقرأ تأثير الصدمة على وجوه المساعدين المسرحيين الذين لم يكونوا يعرفون في بادئ الأمر أنه كان صبياً.

ويظهر أن تمثيلي لدور (لورد برتي) كان مقبولاً وجيداً، لأنني وجدت نفسي بعد مضي عام أكلف بدور ذكر، وهو دور صبي إيرلندي يدعى «باتسي بور» في مسرحية معروفة باسم «في ثوب المجرم المخطط». وأبلغ المدير والدتي أنه يجب علي أن أقص ضفائري الطويلة لكي أقوم بذلك الدور، فرفضت أمي ذلك رفضاً باتاً، وأخذنا نتهيأ للخروج عندما اقترح المدير أن أبقي على ضفائري، شريطة أن أضع على رأسي شعراً مستعاراً، فقبلت أمي ذلك. ولم يكن لديّ ما أقوله بهذا الشأن، فقد كانت كلمة أمي هي الكلمة النافذة حتى آخر يوم من حياتها. وعادت أمي إلى كندا مع لوتي وجاك لتدخلهم إلى المدرسة. أما أنا فقد قمت مع الفرقة برحلة وأنا بالفعل أشبه باتسي بور ذا الرأس الثقيل فقد كنت أضع على رأسي شعراً أحمر مستعاراً يختبئ تحته شعري الطويل الذهبي مما جعل رأسي بحجم وعاء كبير.

الفصل السادس

كان على أمي أن تجد من يتولى العناية بي قبل أن تتركني في نيويورك خلال فترة التمرين على مسرحية «في ثوب المجرم المخطط»، وكان المشرف علي في هذه المرة سيدة اسمها جين باتريكوين، وهي معلمة سابقة من سان فرانسيسكو، وقد تعرفت بحارستي العتيدة في مسرح قائم في الشارع السابع بعد المائة، ثم أخذنا نترافق في ذهابنا إلى التمرين. وأذكر أننا تبادلنا شعور الكراهية في أول لقاء بيننا. ولكن حين سيطرنا على انفعالاتنا الأولى فيما بعد، قالت لي إنه بعد أن تم تعارفنا سألها زوجها عني فأجابت، إنها تشبه طفلة مسرحية، شقراء الشعر. فقلت لها بدوري، وإنني عندما سألتني أمي عن رأيي في مس باتريكوين أجبتها، أنها سيدة ذات سماء عابسة دائماً، كما لا أظنها تحب الأطفال. ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحنا صديقتين حميمتين، ولم نزل كذلك إلى يومنا هذا.

كان موسم العمل ذاك شاقاً منهكاً، ولم تكن أمي موجودة معي، أضف إلى ذلك قذارة المسارح والجمهور العنيد. وإني لأذكر كيف غضبت مرة عندما أثار الجمهور ضجيجاً وصراخاً شديدين وأخذ يقرع الأرض بأقدامه فابتكرت في الحال حيلة كان لها تأثير سحري، فقد وقفت وظهري إلى الصالة، ثم التفت لألقي بعض النظرات الحزينة المتقطعة نحو الجمهور، وظللت على هذا إلى أن انقطع الضجيج. وفي خلال رحلتي هذه نصبت مس

باتريكوين وصية على نفسي. كنت قد حملت كتبي المدرسية معي، وقد فحصت مس باتريكوين هذه الكتب بعناية تامة ثم أشارت علي بعدها أن أستعيض عنها بكتب أحدث وأكثر تقدمية، وعملت بنصيحتها بعد أن أنعمنا النظر فيها صفحة وصفحة ونحن نستقل القطار إلى الحفلة التالية لمسرحية «في ثوب المجرم المخطط». وفي هذه الأثناء عزمت مصممة بأن أحط الرحال في برودواي أو أهجر المسرح نهائياً. وكنت قد بلغت حينئذ الثالثة عشرة من العمر. وكما حسبت فقد قضيت أسبوعي الصيف الأولى وأنا أجد وأسعى لإيجاد عمل لي في برودواي، وصممت أن أطلب من عائلة ايرلندية كريمة هي عائلة (هويلان)، التي كان أحد أفرادها جيراناً لنا أثناء إقامتنا الأخيرة في نيويورك، أن أعيش بينهم، ثم أخذت أفكر فيما لو فشلت فيما أبغي، بأن أسعى لأكسب عيشي من تفتيح الخيوط الليفية في مؤسسة لعمل الثياب. أما في الليل فيجب أن أذهب إلى المدرسة لكي أتعلم تصميم الأزياء الذي كنت أهدف من ورائه إلى غاية عليا، وهي إنشاء معملي الخاص في المستقبل القريب. ولم أكن أقصد أن أضع كل آمالي في سلة واحدة !

وبينما كانت عائلتي العزيزة لا تزال في كندا، كنت أعيش مع آل هويلان – ميني وأختها كيت وولدي أخيهما. ثم بدأت نشاطي المألوف من الانتظار والبحث، وصعود سلم بعد سلم، وسير ميل بعد ميل على الرصيف في ذلك الطقس الحار الندي، وفي خلال ذلك كنت أنام الليلة بعد الأخرى في شقة آل هويلان النظيفة، على كرسي موريس بعد أن أنزل ظهره ثم أضع كرسياً محشواً تحت قدمي لأهيئ لنفسي سريراً مؤقتاً. وكان قليل من العائلات من ترضى أن تأخذ في بيتها فتاة مثلي بأجر أو بدون أجر، غير أن عائلة آل هويلان كانت عائلة صديقة وطيبة حقاً.

وفي أحد الأيام بينما كنت أتصفح بعض الصحف قرأت أن بلانش بيتز تقوم بتمثيل دور في رواية تدعى «فتاة الغرب الذهبي» لبلاسكو على أحد مسارح بروكلين. فصممت على خطة عملية جريئة. لقد كان دافيد بلاسكو

أحد اثنين من المنتجين الذين كنت أهدف إلى لقائهما، فركبت في تلك الليلة قطار المترو إلى بروكلين، وحين وصلت، أخبرت بواب المسرح أنني أريد رؤية مس بيتز، فقال لي، سأدعو لك خادمتها الزنجية يا آنسة، وعندما أتت الخادمة، أوضحت لها أنني أريد من مس بيتز أن تعطيني رسالة إلى مستر بلاسكو تطلب فيها أن يسمح بمقابلتي. ولم أعلم إلا بعد زمن طويل من بيتز نفسها كيف أن التماس هذه الفتاة الزنجية الكريمة لمصلحتي جعل مس بيتز تسمح لي بالاستفادة من اسمها. لقد رفضت في أول الأمر وقالت، إنني لا أرغب في رؤية أحد، فأنا مرهقة جداً. غير أن الخادمة أصرت عليها وقالت إنني لم أطلب منك امتيازاً طيلة السنين التي خدمتك خلالها. ولكني أطلب ذلك الآن، أرجوك يا مس بيتز، أرسلي تلك الفتاة ذات الشعر الذهبي لترى مستر بلاسكو. إنني على يقين من أنك ستشعرين بشعوري لو أنك رأيتها. ورضخت مس بيتز أخيراً لتوسلات خادمتها الطيبة وقالت حسناً، دعيها تقول لمستر بلاسكو أنني أرسلتها، لكن لا تعودي لإزعاجي بهذا الخصوص. وكنت أصعد إلى مكاتب مستر بلاسكو في بناية الجمهورية في صباح يوم الاثنين من كل أسبوع. وفي تمام العاشرة كنت أطرد مع باقي الممثلين ويقال لي بأن أعود صباح الاثنين القادم في العاشرة. ولم تكن عندي فكرة عن المسرحية التي كان ينوي مستر بلاسكو أن يقدمها في الموسم القادم، ولما كان ينتج مسرحية واحدة فقط في السنة، فقد كان أمامي حظ ضئيل يعادل واحداً بالمائة في أن يحتاج لطفلة ممثلة.

وضاق ذرعي أخيراً فلم أنتظر إلى يوم الاثنين القادم، صعدت السلالم في الصباح التالي إلى مكتب بلاسكو وقد قويت عزيمتي برسالة مس بيتز، غير أن صبي المكتب أوقفني. ولما ناولته رسالة مس بيتز لم يتزحزح. وحينما ارتفع صوتي وهو مملوء بالعزم والإصرار، فتح أحد الأبواب وخرج منه رأس ويليام دين مدير أعمال بلاسكو وقال، لِمَ كل هذا الشغب؟ دع الفتاة تدخل.

وفي اللحظة التي دخلت فيها مكتب مستر دين صحت قائلة، إن حياتي تتوقف على رؤية مستر بلاسكو. ويبدو أن ذلك أثر فيه وسره بقدر ما أثرت فيه رسالة مس بيتز دون شك. لأنني بعد انتظار عصبي دام بضعة أسابيع تلقيت منه كلمة يطلب فيها أن أحضر إلى ردهة المسرح في إحدى الليالي بعد التمثيل. كانت التمثيلية هي «وردة المزرعة» ويقوم فيها بالدور الرئيسي فرنسيس ستار. وقد صحبتني ميني هويلان في تلك الليلة الخطيرة. وعند انتهاء الحفلة دخلنا الردهة وجلسنا ننتظر، وأخيراً ظهر مستر بلاسكو، فراقبته وهو يقترب، فاستولت علي الرهبة من سيماه الكهنوتي وشعره الأبيض المتجعد وحاجبيه العريضين السوداوين، والعينين اللتين لم أر أجمل ولا أحر منهما لرجل أو امرأة. وعندما وقف أمامنا سألني مباشرة ما اسمك؟

فأجبته، في البيت في تورنتو، أدعى غلادس سميث، أما في الطريق فأنا غلادس ميلبورن سميث.

وأثار هذا الجواب سروره الذي حاول إخفاءه، وقال، يجب علينا أن نجد لك اسماً آخر. ما هي الأسماء الأخرى في عائلتك؟

فسردت عليه عدة أسماء من بينها اسم بيكفورد.

– إنه اسم بيكفورد. هل غلادس هو اسمك الوحيد؟ أليس لك اسم آخر؟

– لقد عمدت باسم غلادس ماري.

– حسناً يا صديقتي الصغيرة، سيكون اسمك بعد الآن ماري بيكفورد. هل لكِ أن تعودي مساء الغد مع عمتك لكي تشاهدي تمثيلنا؟

وبعد أن توقف قليلاً أضاف، استعدي لكي تعطيني نموذجاً عن تمثيلك؟ لقد فقدت النطق من شدة الفرح والتأثر، وتحول مستر بلاسكو لكي يذهب عندما التفت إلي قائلاً بهذه المناسبة، ما الذي جعلك تقولين أن حياتك تتوقف على رؤيتي؟

– حسناً، فأنت ترى يا مستر بلاسكو، أنني قد بلغت الثالثة عشرة من العمر، وأظن أنني أصبحت في مفترق الطرق بالنسبة لحياتي. وكان علي أن أعمل جيداً في الفترة الممتدة من الآن إلى أن أبلغ العشرين من العمر، وليس أمامي سوى سبع سنوات فقط لمثل ذلك العمل. بالإضافة إلى أنني بمثابة والد لعائلتي وعلي أن أكسب ما أستطيع من المال.

قال بتردد، لقد فهمت، ولكن لم كل هذه السرعة؟

فأجبته وأنا أتطلع الآن إلى وجهه مباشرة، «لقد صممت إذا لم أتمكن من الظهور في تمثيلية في برودواي هذا الخريف أن أترك المسرح إلى الأبد.» واستطعت أن أرى تلك الومضة المكبوتة من التسلية تبدو في عينيه، ما الذي دعاك لهذا الانتخاب ولانتخابي بالذات؟

«كانت أمي تقول، يجب أن يكون هدفي عالياً وإلا فلا».

همهم.. ومن اخترت غيري؟

– مستر تشارلس فرومان.

– ألم تقابليه بعد؟

فقلت، كلا يا سيدي. لقد أردت أن أراك أولاً.

تركنا مستر بلاسكو. ولما خرجنا من المسرح سألت العمة ميني، كما كنت أناديها، عما إذا كانت لا ترى مانعاً، من السير معي إلى الشقة، بدلاً من أن نستقل السيارة العمومية، ومع أن الوقت كان متأخراً. لقد كنت في أشد حالات الغبطة والسرور فلم أستطع إلا أن أفعل ذلك.

في الليلة التالية، أتيت والعمة ميني لمشاهدة تمثيل «وردة المزرعة» وانتظرنا في اللوج الذي أعد لنا حتى خرج جميع الناس من المسرح وانكشف الممر، فأتى مستر بلاسكو إلى اللوج، وقادني من يدي إلى خشبة المسرح. وسألني قائلاً :

– هل تودين أن نضع لك شيئاً تستندين إليه؟

– إنني أرغب بكرسي لكي أمثل دور الشرطي.

وقدمت اعتذاري إلى مستر بلاسكو عن الحوار الركيك في ذلك الدور قائلة، إنه المشهد الوحيد الذي أحفظه. ولما لم يكن لدي وقت لحفظ شيء آخر، فقد تمنيت أن يدرك أن تلك السطور قد أخذت من تمثيلية تتخللها ألحان محزنة. (ميلودراماتيكية).

ولم يفعل مستر بلاسكو شيئاً سوى أن هز رأسه وهو في مقعده في الصف الأول وأشار إلي أن أبدأ. وكانت العمة ميني وهي المتفرجة الأخرى الوحيدة، مختبئة خلف الستائر المخملية في أحد الألواج، وكان المشهد عن باتسي بور حين أخذ يتوسل إلى الشرطي كي لا يقبض عليه لأن أمه العمياء المسكينة ليس لها معيل سواه. ومع أنه لم يكن لدي ما أستعين به سوى كرسي المطبخ وفانوس الدليل القاسي والبارد، فقد أعطيت نموذجاً عن تمثيلي. ولما انتهيت من إلقاء مناجاتي أغلقت فمي ووقفت باردة كالثلج وأنا أرتجف، وتسلق مستر بلاسكو خشبة المسرح وأمسك بكلتا يدي وهو يقول :

– هكذا فأنت تريدين أن تصبحي ممثلة يا بنيتي؟

فأجبته دون تردد:

– كلا يا سيدي، لقد كنت ممثلة، وإنني أريد الآن أن أصبح ممثلة قديرة.

وسطعت على وجهه تلك الومضة المكبوتة من السرور وقال :

– هل تريدين أن تقابلي ممثلة قديرة؟

– نعم يا سيدي

– حسناً، تعالي إذن معي.

وقادني من يدي وطرق باباً لإحدى غرف التزين وقال، «فرنسيس» هذه هي سيدة صغيرة تريد أن تصبح ممثلة قديرة مثلك.

فأجابت مس ستار بلطف، لن يكون ذلك شاقاً عليك يا صغيرتي العزيزة، فأنا على يقين أنك بإشراف المايسترو ستصبحين من شهيرات الممثلات. أجلت ناظري في أرجاء غرفة زينة الكواكب حين دخلت، وكان في قرارة نفسي شيء يهمس قائلاً: سوف تكون هذه الغرفة لك بكل ما تحتويه في أحد الأيام. وفي تلك الليلة عرض علي مستر بلاسكو دوراً في إنتاجه المقبل «آل وارن من فرجينيا». وحين خروجي من المسرح كان أول ما تبادر إلى ذهني هو أمي، فأنا لم أذكر لها شيئاً عن مشروعاتي الجديدة، لأنه لم يكن من السهل أن أحصل على موافقتها وخصوصاً على فكرة المدرسة الليلية. ثم على مشروع تصميم الملابس، لو أن أماني المسرح قد فشلت. وقد سمحت لي العمة ميني بأن أكتب إلى أمي في تورنتو رغم الوقت المتأخر وحاجتي إلى النوم. وكانت رسالتي تحتوي على سطرين مكتوبين بأحرف كبيرة في أعلى الصفحة :

غلادس سميث أصبحت الآن ماري بيكفورد، ارتبطت مع دافيد بلاسكو للظهور على مسارح برودواي في هذا الخريف.

وقرر مستر بلاسكو أن يسند إلي دور بيتي، الابنة الصغرى، في التمثيلية التي ألفها ويليام دي ميل الذي كان يعمل مع أخيه سيسيل دي ميل وعدد وافر من شخصيات المسرح في تلك الفرقة، ومن بينهم الممثلة الموهوبة (إمَّا دان). وكان دوري يقتضي أن أتكلم بلهجة أبناء الجنوب فأخذت أحاول أن أتعلمها وأتقنها بالإصغاء إلى الحديث الطبيعي في لهجة أولاد الجنوب، التي كان يتحدث بها أفراد الفرقة.

وقد أحرزت بعض النجاح في أحد الأيام عندما سألتني والدة ويليام وسيسيل دي ميل، وهي جنوبية عريقة، خدعت بلهجتي، قالت : من أية جهة من الجنوب أتيت يا ابنتي؟

لم يمض زمن طويل على بدء التمرين حتى حدث أول اختبار لي مع دافيد بلاسكو أثناء العمل. وكانت الأمور تسير بهدوء، مع انتقادات غاضبة

عرضية، وإيضاح لأسلوب الإلقاء والتمثيل. إلى أن عملنا طويلاً تلك الليلة. وقد غلب علي النعاس في اللوج بانتظار الفصل الثاني. وكان المشهد يمثل غرفة طعام في أحد قصور فرجينيا القديمة، كل ما فيها أصيل، من السجاد والأواني الأثرية إلى أوعية العسل الأسود البللورية والفضية، وكان مستر بلاسكو لا يطيق التقليد الرخيص، فارتفع صوته فجأة:

– أوقفوا كل شيء

فاعتدلت في جلستي بسرعة وعيناي وأذناي تهتز في ترقب وحذر كقطة صغيرة، وصعد مستر بلاسكو إلى خشبة المسرح وأمسك وعاء العسل الأسود، وكان الجميع واقفين وكأن على رؤوسهم الطير، وركز مستر بلاسكو نظارته على عينيه وتصفح المخطوط الذي في يده. ثم أخذ ملعقة وذاق ما تحتويه آنية العسل الأسود. ورمى الملعقة في اشمئزاز واضح، وبصوت يشبه زئير الأسد نادى مدير أمتعة التمثيل، وأمره قائلاً :

– ذق هذا !

فغمس المدير الملعقة في السائل الكثيف ورفعها إلى شفتيه.

وهرع المايسترو وهو يقول: ماذا وجدت في داخل الوعاء؟

– إنه شراب القيقب يا سيدي.

– أخبرني من فضلك، ماذا يطلب المخطوط؟

– عسلاً أسوداً يا سيدي.

والتفت إلى مدير أمتعة التمثيل وصرخ به، هل تتجاسر بأن تضيع وقتي ووقت هؤلاء السيدات والسادة بشراب القيقب.

ثم حطم الوعاء بإلقائه على الأرض، وأخذ يدوس بقدميه قطعه اللزجة المتناثرة إلى أن جعل منه ما يشبه بساطاً شرقياً جميلاً. وأخيراً عندما بدأ غضبه يتلاشى، أمر مدير أمتعة التمثيل بأن ينظف المسرح، وقال له :

– احذر أن تقوم بذلك مرة ثانية.

ثم اتجه إلى اللوج حيث كنت أجلس، وكنت منكمشة من الرعب والخوف اللذين سيطرا عليّ وقد حاولت أن أقلد (أليس في بلاد العجائب) فأنكمش في مقعدي حتى أختفي ولا يراني أحد ولكن ذلك كان بدون جدوى، لأنه نظر إلي بعينين متلألئتين ثم سألني :

– قولي لي يا بيتي، ما رأيك في تمثيلي؟

فكان كل ما تمكنت من الإجابة به هو: أنا – أنا لا أظن، إنني أفهم يا سيدي.

فقال في تكتم تشوبه السخرية : هذا سر بيني وبينك، إن من رأيي أنه من الضروري جداً أن أكسر شيئاً، وأظهر الغضب على الأقل مرة قبل ليلة الافتتاح حتى لا يتجاوزوا حدودهم، وقد اعتبرت من تلك الحادثة وعلمت كم كان مستر بلاسكو قاسياً لا يرحم في التفاصيل.

ففي إحدى ليالي التمرين، تعرضت بدوري لغضبه، وأنا بلباس التمثيل، وكان لباس في دور ابنة عائلة وارن الفقيرة، يتألف من غطاء مائدة وردي اللون من القطن قد بهت لونه من كثرة الغسيل، وتحت ذلك الثوب السراويل التي كانت موضع اشمئزاز عائلة سميث. وأتذكر أنني سمعت مستر بلاسكو ينادي بذلك الصوت الجامح المستبد، أين هي بيتي؟ وصعدت بيتي الصغيرة خشبة المسرح بثيابها الباهتة اللون. ونظر مستر بلاسكو إلي نظرة فاحصة برهة من الزمن وقال :

– هناك خطأ في زيها. ثم بعد لحظة من التفكير قال: أنا أعلم، أنا أعلم، ثم زمجر، أين سراويلها :

فأسرعت السيدة المكلفة بالثياب بالخروج لكي تواجه ثورة بركان هائج، وهي ترتجف وقالت: مستر بلاسكو إنني ألبست بيتي السروال بنفسي، وعادت تلك العيون النافذة الثاقبة تنظر إلى ثيابي متفحصة، ثم سألني بوقار: ماذا عملت بها ؟

رفعت عندها السيدة المكلفة بالثياب ثوبي، ثم أنزلت طرفي السراويل الملفوفة إلى الأعلى، وكان هذا أسوأ بألف مرة مما كنت أحاول تجنبه، لأنه حول انتباه الجميع نحوي. فارتبكت لدرجة يصعب وصفها. ولكني لم أنبس ببنت شفة. لقد كان دافيد بلاسكو بالنسبة لي بمنزلة ملك انكلترا ويوليوس قيصر، ونابليون مجتمعين بشخص واحد. وقبل أن نبدأ الحفلات في برودواي كنا في رحلة امتدت أربعة أسابيع لعرض تمثيلية «آل وارن من فرجينيا» وكانت أول محطة لنا في بوسطن في أوائل خريف عام ١٩٠٧، وقد مضى مستر بلاسكو كامل الأسابيع الأربعة معنا، مصمماً ومسجلاً للحوار، أثناء تنقلنا من مدينة إلى أخرى.

وفي ليلة الاثنين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٠٧، افتتحت تمثيلية «آل وارن في فرجينيا» في مدينة نيويورك. وبذلك وصلت إلى الهدف الذي طالما سعيت إليه، فقد أصبحت حقاً في برودواي وأعمل في إحدى مسرحيات بلاسكو.

يا له من منظر عظيم يراه الواقف على خشبة المسرح في تلك الأيام. فالنساء يرتدين ثياب السهرة والرجال بالزي الرسمي تلمع قمصانهم وصداريهم في الظلمة. هذا عدا موجات الروائح العطرية الزكية التي تصل إلى أنفك فتغرقك في لذات الخيال، ثم يهب شذاها من خلال الأضواء الممتدة على أرض المسرح. فتملؤنا السعادة.

تبع ذلك عقد طويل ناجح لـــ(آل وارن من فرجينيا)، وفي خريف عام ١٩٠٨ أخذنا طريقنا في جولة أطول وأكثر مشقة إلى كثير من البلدان. كنت أتقاضى ثلاثين دولاراً في الأسبوع، فجهدت لأن أعيش بعشر دولارات. فأخذت أغسل وأكوي ثيابي العادية وملابس التمثيل بنفسي. ولم يكن ذلك جديداً علي، فقد كنت أسافر دائماً ومعي لوحة الغسيل ومكواة كهربائية، وبينما

كنت أتجول مرة في شيكاغو مع (آل وارنز) جرت لي أول تجربة في الصور المتحركة، وكانت دار التمثيل السينمائي المؤقتة عبارة عن مخزن ضيق طويل في شارع ستيت ستريت مجهزة بمقاعد، كتلك التي تستعمل في القطارات والسيارات العمومية. أما آلة عرض الأفلام فقد وضعت على قاطرة كانت تسير خلال الأنفاق وحول السكك الحديدية.

كنت أشعر بالرهبة والخوف يسيطران على مشاعري من التمثيل السينمائي، فنذرت في نفسي الابتعاد عنه. أما لوتي وجاك فلم يكونا من رأيي، لقد أصبحنا مدمنين بسرعة على هذه الهواية الجديدة وأذكر أني توسلت إلى أمي كي تحاول إبعادهما عن هذا الشر المخيف، ولكنهما كانا يسرعان إلى صالة العرض في الشارع الثالث والعشرين لرؤية أحد الأفلام كلما توفر لهما خمس أو ست سنتات.

وفي ربيع عام ١٩٠٩ عندما أتمت «آل وارن من فرجينيا» دورتها، عدنا جميعنا إلى الاجتماع في نيويورك، وكنت قد وفرت نحو مئتي دولار، وكذلك كان مع أمي ولوتي بعض المال من الجولات.

وقمنا عندها بدفع الأجرة والطعام واشترينا أثواباً جميلة، وسارت الأسابيع تطوي نفسها طياً، فبدأت ذخيرتنا تنفذ، وعاد إلينا إحساسنا القديم بالخطر، فقض مضاجعنا. فقد كنا ندرك أن علينا أن نجد عملاً، وأن العثور على عمل يعني مع ذلك أننا سنفترق مرة أخرى، وكان هذا من الأسباب التي جعلتني أشد تصميماً على أن أوفر لعائلتي الطمأنينة الحقيقية في المستقبل، ولم أشك لحظة أنني سأفعل ذلك بنفسي آخر الأمر. وكانت ثقتي في ثروتنا المقبلة تبدو بها كثير من المبالغة، حتى أصبحت موضوع فكاهة للجميع. وأذكر في ظهر أحد الأيام حين كان يغطي الوحل الشارع كنت وابنة خالتي مابل (وهي إحدى بنات الخالة ليزا) ننتظر السيارة العمومية في أحد الشوارع، فمرت بنا

سيارة ليموزين خصوصية، في داخلها سيدتان تبدو عليهما مظاهر الثراء، فنثرت الوحل على أفخر ثوب ارتدته مابل، وعلى ثوبي الوحيد فثارت ثائرة مابل وصاحت :

– لماذا لا نستطيع أن نستقل إلا السيارة العمومية القذرة، بينما غيرنا من الناس يسير بأقفاص بللورية مثل هذه ؟ إننا لا نقل عنهم بشيء بل نحن أفضل منهم وأجمل.

فأجبتها مهدئة: لا بأس عليك يا مابل، ستكون لنا سيارة مثل هذه وأحسن منها في القريب العاجل.

وكان ردها اللطيف : عفواً يا مسز آستور بيلت، لقد كاد تاجك الماسي ينزلق من فوق رأسك.

لقد مرت عدة أعوام قبل أن تمحي ذكرى هذه الملاحظة العابرة عن السيارة، واستغل جاك هذه الحادثة فأصبح كلما أراد مخاصمتي والهزء مني، يمسك بكرسي ويطلب إلى لوتي أن تجلس في المقعد حتى يتمكن من الإمساك بمقود السيارة.

وعندما كنت أعود إلى البيت من العمل، كان الاثنان يسرعان إلى النافذة ويهتفان، هل ربطت سفينتك إلى عمود الضوء؟

ولكن لم تمر ست سنوات ونصبح في عام ١٩١٣ إلا وحلت ساعة الظفر، فلم ننتظر السيارة العمومية في ذلك الشارع، بل كنا نجلس في سيارتي «الكاديلاك» الجميلة ذات اللونين الرمادي والكريم. وحينما مررنا قرب الزاوية التي كنا نقف فيها في إحدى المرات، أمسكت مابل بذراعي قائلة، هل تذكرين يا ماري تلك الزاوية ؟ لقد قلت لي أننا سنقود سيارة مثل تلك السيارة التي نثرت الوحل على ثيابنا في أحد الأيام، وها قد تحقق لنا ما أملنا.

وفي الربيع الذي انتهت خلاله حفلات «آل وارن من فرجينيا» تضاءلت مدخراتنا لدرجة جعلت أمي تعرض علي عرضاً مخجلاً حين قالت يوماً: «هل تمانعين يا كلاديس في طلب العمل في استوديوهات البيوغراف؟».

فأجبتها: أوه، كلا يا ماما.

– حسناً، والآن فليس هذا ما كنت أريده لك يا عزيزتي، ولكن لو تمكنت من جمع بعض المال، فإن ذلك يكفي لإبقاء العائلة مجتمعة. إنني على يقين أن ذلك سيعوض الانخفاض في مستوى معيشتنا. وأردت أن أجادلها ولكنني رأيت أن من الأفضل أن لا أفعل وقررت الموافقة.

قالت أمي، لقد كنت على أتم الثقة أنك ستقبلين في سبيل أن نبقى سوية. إنهم يقولون أن الراتب جيد.. وبالإضافة إلى ذلك سأدعك تلبسين جواربك الحريرية وحذاءك ذا الكعب العالي، وربما كان ذلك الإغراء سبباً من جملة الأسباب التي جعلتني أوافق.

في الصباح التالي قررت وأنا آتية بثوبي الجديد، أن أمشي من المنزل الذي كنا نعيش فيه في الشارع السابع عشر إلى الشارع الرابع عشر، ثم أستقل سيارة تنقلني إلى برودواي. وحين نزلت من السيارة أمام استوديوهات بيوغراف وبيو سكوب. هممت بدخول هذا المكان البغيض وقد قلت في نفسي، يجب أن أقوم بهذه الزيارة التي وعدت بها، وأن أخرج منها بأسرع ما يمكن. وسوف أستعمل بطاقة التنقل للوصول إلى وكالات المسارح الأخرى في برودواي، باستطاعتي بعد ذلك أن أقول لوالدتي بكل أمانة وإخلاص، لقد عملت حسبما طلبت، وقد كنت في قرارة نفسي مستاءة من أمي، التي تريد من ممثلة في فرقة بلاسكو هي ابنتها أن تذهب إلى أحد هذه الاستوديوهات السينمائية الكريهة الرخيصة المحتقرة. لقد كان ذلك يحط من مقامي كممثلة

كما كنت أعتقد بنفسي في ذلك الحين. ومع هذا فقد صعدت كمحاربة درجات البيوغراف.

كانت عائلتي دائماً تدعوني غلادس حتى ذلك الوقت. ولم تأخذ اسم ماري بعين الاعتبار أبداً. غير أنه في ذلك اليوم من آذار (مارس) عام ١٩٠٩، وفي الشارع الرابع عشر الكائن في شرق نيويورك، عادت غلادس إلى كندا، وبدأت ماري بيكفورد حياة رائعة تهز القلوب.

الفصل السابع

بينما كنت أجتاز دهليز البيت الرخامي الذي اتخذته شركة استوديوهات البيوغراف مقراً لأعمالها خرج رجل من الباب المتحرك، (الباب اللولبي) ولما رآني أخذ ينظر إلي بسرور ولطف أثار أعصابي.

ثم سألني: هل أنت ممثلة؟

فأجبته : نعم بكل تأكيد.

– هل لي أن أسألك عن تجاربك في هذه المضمار؟

فأجبته ببرود: عشر سنوات فقط في المسرح يا سيدي، منها اثنتان مع دافيد بلاسكو.

– إنك صغيرة السن كثيرة السمنة، غير أنني سأمنحك فرصة لإثبات قدرتك، إنني أدعى غريفيت، فما هو اسمك؟

لم يكن اسمه يعني شيئاً بالنسبة لي فقد ظننته مخلوقاً متبجحاً ثقيل الظل لا يطاق، فشعرت برغبة جامحة تدفعني للهرب من هذا الجو الخانق، ولكني قبل أن أنفذ رغبتي، وجدته يقودني من خلال الباب المتحرك، إلى غرفة ملابس السيدات. وإنني لأذكر الآن الرعب الذي استولى علي آنذاك لدى رؤيتي صالة الرقص المستديرة التي تحولت إلى استوديو خاص، والمصابيح المنخفضة التي تنشر أشعة من النور الأزرق فتضفي على جو المكان رهبة

كما لو كان مشحوناً بالشؤم، ولم يعرنا أحد اهتماماً حينما مررت بصحبة غريفيت، فدخلنا أخيراً غرفة ملابس خالية، فأجلسني وطلب مني أن أنتظره.

لقد كنت أسمع عن الاستوديوهات من جاراتنا من الفتيات اللواتي هن أكبر مني سناً واللواتي يقطن في الحي الغربي حيث كنت أقيم مع العمة ميني والعمة كيت. كما سمعت أحاديث مختلفة عن استوديو المهندس ستانفولا هوايت وعن فتاة تسكن في نفس الشارع تدعى ايفلين نبيت.

خرجت مسرعة على رؤوس أصابعي من غرفة الملابس في اللحظة التي عاد فيها مستر غريفيت فأخبرني أنهم سيجرون لي فحصاً، وكان ذلك الفحص هو الوحيد الذي أجريته في استوديو البيوغراف. فقمت بدور في تمثيلية (مرور بيبا) (pippa passes) وساعدني مستر غريفيت في ارتداء ثياب التمثيل بنفسه. وكانت النتيجة أنني أصبحت أقرب إلى شخصية (بانشوفيلا) مني إلى شخصية بيبا. وقد أحضروا لنا ثياباً من فرع الملابس، وخصصوا زاوية من القبو لتعلق فيه تلك الملابس.

قادني غريفيت إلى المسرح وأنا بهذه الثياب القبيحة المستهجنة دون أن يعرفني على أحد من أفراد الفرقة، وأعطاني ملخصاً لما يتوجب علي أن أقوم به. وفي نفس اليوم تلقيت صدمة أخرى في ذلك الاستوديو فقد سمعت الممثلين والممثلات يتخاطبون بأسمائهم الأولى المجردة، وكنت أعتقد أن ذلك غير لائق قطعاً فلم أصدق أذنيّ. ففي فرقة بلاسكو والأوساط المسرحية لا يخاطبون بعضهم إلا بألقابهم. أما هنا فقد لاحظت أنهم لا يخاطبون السيد الذي يرتدي البذلة المخططة (أي مدير الفرقة) إلا بكلمة مستر غريفيت.

وزاد في قلقي واضطرابي، أنهم أعطوني قيثارة وأمروني أن أمثل كما لو كنت أغني وأعزف عليها، وخلال تصوير هذا المشهد، وبينما كان كل فرد منا يبتكر من الحديث ما يناسب المقام وما يحلو له، تقدم مني شاب وسيم الطلعة وسأل بصوت موسيقي ايرلندي بغير اكتراث، من تكون هذه الفتاة (Dame) ؟

وكان ذلك أكثر مما أستطيع أن أتحمل. نسيت كل شيء عن القيثارة والمشهد وزيي القبيح المستهجن ومستر غريفيت، فصببت جام سخطي وغضبي على رأس هذا الجلف.

كيف تجرؤ على إهانتي يا سيدي؟ عليك أن تدرك أنني فتاة محترمة، فلا تناديني بهذا اللقب المزري.

عندئذ زأر غريفيت بصوت يتضاءل معه زئير أسد مترو غولدوين ماير، وصرخ : «يا آنسة.. يا آنسة.. بحق الشيطان ما اسمك؟ لا يهمني اسمك... ولكن إياك أن تتوقفي في منتصف المشهد، أتسمعين ! هل تعلمين كم يكلف القدم الواحد من هذا الفيلم الذي أفسدتيه ؟ ابدؤوا من الأول.

في تلك الأيام كانت كلمة (Dame) تعني امرأة ساقطة، ولم أكن قد سمعت أبداً أنه يجوز مخاطبة فتاة بهذا اللقب علناً، وبالطبع فذلك الشاب الايرلندي لم يفكر بإهانتي، بل كان يتكلم ببساطة كجميع الذين كانوا يعملون في أوائل عهد السينما، ومهما كانت خطيئاته، فلم تكن بذاءة اللسان أمام السيدات إحداها. وقد علمت بعد ذلك، أن اسمه اوين مور وقد أصبح زوجي الأول.

لا زلت إلى الآن أجهل السبب الذي حدى بمستر غريفيت أن يطلب مني أن أرجع إلى الأستوديو في اليوم التالي، فقد كان قلبي يحدثني وكنت علي يقين بعد ذلك الحادث أن مستقبلي في السينما قد أشرف على نهايته. لقد قضيت عشرة أعوام في المسرح وأصبح باستطاعتي أن أميز بين التمثيل الجيد والرديء، وقد شعرت بأن تمثيلي في ذلك اليوم في (أستوديو بيوغراف) كان رديئاً وغير مرض.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما عدت إلى غرفة الملابس لأخلع ثياب التمثيل القبيحة وهناك رأيت مستر غريفيت ينتظرني خارج الغرفة.

حياني وقال : أتسمحين في تناول طعام الغداء معي؟

فأجبته: إنني آسفة يا مستر غريفيت، فأنا لم أتناول الغداء مع أي ولد مطلقاً فكيف به إذا كان مع رجل! ومع ذلك فبودي الذهاب إلى بروكلين بدون إبطاء، فأمي وأختي تمثلان مع مستر اولسكوت.

هل لك أن تعودي غداً؟ نحن ندفع أجورنا يومياً.. خمسة دولارات للشخص الواحد.

صعد دمي الاسكتلندي إلى رأسي ومع هذا تمالكت نفسي فقلت، إنني يا مستر غريفيت من ممثلات فرقة بلاسكو، يجب أن أتناول عشرة دولارات.

ضحك وقال : موافق، خمسة دولارات هذا اليوم وعشرة غداً. ولكن... أرجو أن تكتمي هذا، فنحن لا ندفع أجراً كهذا لأحد، فإذا انتشر الخبر فسيسبب لنا متاعب كثيرة.

بدأ المطر يهطل بغزارة منذ برهة، وأصبح الآن يتدفق كأفواه القرب ومع هذا فقد رافقني مستر غريفيت طيلة الطريق وهو يحمل مظلته إلى أن وصلنا إلى مدخل المترو فودعني وقال : إلى الغد في تمام التاسعة.

وصلت المسرح في بروكلين والماء يسيل من جميع أجزاء ملابسي ومن جسمي وثوبي الجميل الأزرق لقد كان علي أن أسير مسافة طويلة بعد نزولي من المترو، لم يتوقف المطر خلالها أبداً فكان من نتيجة ذلك أن تلف حذائي ذو الكعب العالي وجواربي الحريرية، وقبعتي المصنوعة من القش، والمزينة بقوس من الساتين الأزرق والتي دفعت ثمنها ثلاثة دولارات ونصف. فوآسفاه لقد أصبحت بحالة تستثير الدموع.

وعندما فتحت باب غرفة الملابس، أول من وقع عليه نظري هو أخي جوني وهو نائم كحلزون صغير فوق صندوق الملابس، أما أمي ولوتي فكانتا على المسرح. جلست أنتظرهما وأنا أرتجف من البرد وفي يدي ورقة الخمسة دولارات. وحين فتحتا الباب شاهدتاني بهذا الحالة الكئيبة المزرية فأسرعتا نحوي، وأخذت أمي تنزع عني ثيابي المبللة ثم وضعتها فوق المدفأة مع الورقة المالية.

قلت لها وأسناني تصطك من البرد: سيدفعون إلي يا أماه عشرة دولارات منذ الغد.

قالت أمي : أرأيت كيف أنني كنت على حق يا عزيزتي؟

ولم أجرؤ أن أشرح لها شدة كراهيتي لذلك المكان البغيض الذي يقع في الشارع الرابع عشر.

في صباح اليوم التالي، سقط المنبه عن المنضدة إلى أرض غرفة النوم وهو يدق السابعة والنصف وكان النعاس مستولياً علي والألم في جميع أطرافي.

ولم أكره النهوض المبكر في حياتي مثل كرهي له في ذلك اليوم. ورغماً عن جميع هذه المصاعب فقد بلغت الأستوديو في تمام التاسعة سيراً على الأقدام وقد فعلت ذلك حتى أوفر السنتات الخمسة أجرة التذكرة، ولقد دعوت الله مبتهلة ألا يراني أحد فناني المسرح وأنا أصعد درجات البيوغراف.

مثلت في ذلك اليوم فيلماً يدعى «قطع البسكويت الأولى» وبعد أن وصلت إلى الأستوديو ببرهة وجيزة نادى مستر غريفيت، ليندا ارفيدسون التي كان قد تزوجها سراً، وقال لها، اذهبي يا لندا إلى الشارع الخامس وابتاعي لهذه الطفلة ثوباً من الكتان المزركش بحجم عشرة وحذاءً وجوراباً قصيراً وقبعة تناسب الذي ستقوم به.

وعلمت بعد ذلك أن ثيابي هذه قد كلفت مبلغ عشرة دولارات ونصف، فتأكدت عندها أن صناعة السينما كانت مجنونة مع أني كنت في شك من ذلك.

لقد وجدت العمل أقل إرهاقاً في ذلك اليوم، كما وجدت مفاجأة سارة تنتظرني، فبعد أن عدت من غرفة الملابس ونزعت عني ثياب التمثيل وارتديت ثيابي العادية، اجتزت الباب المتحرك إلى الدهليز، فوجدت غريفيت ينتظرني فبادرني متسائلاً : هل ترغبين في تمثيل الدور الأول؟

أجبته: «أوه. نعم يا سيدي !».

«هل تعلمين شيئاً عن المغازلة؟».

فأكدت له ذلك بعد أن بلعت ريقي عدة مرات.

وفي تلك اللحظة مر بنا نجار يحمل عموداً من الورق المضغوط فطلب منه مستر غريفيت أن يضعه على الأرض.

والتفت إلي وقال : والآن يا آنسة بيكفورد، غازلي هذا العمود.

وكنت في الخامسة عشرة من العمر. ومع هذا فلم أكن قد ذهبت إلى أي موعد غرامي من قبل. كما لم يقبلني أي شاب في حياتي ولكن، ولكي أنقذ نفسي قلت :

عفواً يا مستر غريفيت، كيف يمكنني أن أغازل عاموداً بارداً ؟

لم تكد هذه الكلمة تخرج من بين شفتاي حتى ظهر اوين مور على عتبة غرفة ثياب الرجال فصاح به غريفيت : تعال هنا يا مور.

اتجه مور إلينا تعلو وجهه الإيرلندي الجميل ابتسامة استغراب.

قال له غريفيت : قف هناك، إن الآنسة بيكفورد لا تحب أن تغازل عاموداً جامداً. انظر إذا كانت تتمكن أن تعمل برفقتك شيئاً أفضل.

استولى عليّ الذعر وكنت على وشك أن أتمرد، وأترك هذا العمل المعيب غير أنني تذكرت العشرة دولارات التي وعدني بها مستر غريفيت فجمعت كل ما بي من شجاعة وحاولت أن أتذكر كيف كنت أشاهد الناس يتغازلون على المسرح. فرأيت أن أفضل وسيلة لذلك العمل هي أن أنظر بشغف إلى عيني الرجل. وقررت في نفسي عدم السماح لأحد بتقبيلي، وكنت أعتبر التقبيل أمام الناس ابتذالاً وغير لائق وخصوصاً على المسرح حيث يمكن للممثل أن يتصنع التقبيل دون أن يقوم بذلك.

ومهما بلغت جدارتي في محاولتي العاطفية للغزل في تلك الليلة، فيبدو أنها أعجبت مستر غريفيت. لذلك أسند إليّ الدور الرئيسي أمام اوين مور في

فيلم «صانع الكمان من كريمونا» ولم أنسَ تلك اللحظة التي أحاطني فيها بذراعيه، وقلبي يدق بسرعة وأنا في شدة الارتباك، ولم يداخلني الشك بأن دقات قلبي المضطرب قد استرعت انتباهه.

كان تصوير الفيلم في تلك الأيام يقتضي يوماً من العمل في الداخل ويوماً في الخارج، ويظهر أن فيلم «صانع الكمان من كريمونا» كان ناجحاً. كما أن مستر غريفيت كان سعيداً جداً بهذا الفوز الأخير. لأنه أعلن لرؤساء الشركة أنه عقد العزم على أن أعمل معه بعقد في الشركة وأتقاضى بموجبه خمسة وعشرين دولاراً في الأسبوع في الأيام الثلاثة الأولى، وخمسة في الأيام الثلاثة الباقية. وقد صعق رؤساء الشركة من طلبه هذا.

قال لي مستر غريفيت إنهم صاحوا به وهم مندهشون: «أربعون دولاراً في الأسبوع إلى طفلة صغيرة كهذه؟ لا شك أنك فقدت عقلك». أما هو فقد صمم على رأيه ووعدني بضمان ذلك.

صاح الجميع بصوت واحد، ماذا فعلت تلك الفتاة كي تحصل على عشرة دولارات في الأسبوع زيادة عن غيرها من أفراد الشركة. وتبع ذلك جدل عنيف. لم ينته إلا بعد أن هدد مستر غريفيت بترك العمل. فاضطرهم إلى التعاقد معي بعد احتجاجات وتكهنات مختلفة وهم يذكرونه باحتمال إفلاس الشركة.

وبعد الانتهاء من (صانع الكمان من كريمونا) مثلت فيلماً ظهرت فيه بدور أم لها عدة أطفال كان أكبرهم يصغرني بخمس سنوات، ولعبت أدوار نساء ساقطات من كافة الطبقات ومن مختلف الجنسيات غير أني لاحظت سريعاً أن مستر غريفيت أصبح يفضل أن يسند إلي أدوار النساء الهنديات والمكسيكيات. وربما كان ذلك لأنني كنت الفتاة الأولى في البيوغراف، ولأن عيني كانتا تظهران سوداوين في الصور، مع أنهما بلون البندق. ومهما كان السبب في ذلك الاختيار فقد قمت بتلك الأدوار وتعلمت أن أدهن يديّ وقدميّ

بقطعة من الإسفنج مملوءة بالطين الأحمر الممزوج بالماء. وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً، كنت غالباً ما أرتدي ثوباً موشى بالخزف يزن عدّة ليبرات، ثم أضع حول عنقي عقداً من أسنان التمساح وفوق رأسي طاسة مستعارة من شعر الخيل الأسود.

ورغماً عن أنني طفلة في ذلك الوقت فقد أخذت أفكر جدياً في كل ما له علاقة بالتمثيل. وفي أحد الأيام قطعت عهداً وصممت ألا أنقضه أبداً. فقد أقسمت ألا أبالغ في التمثيل مهما كان الإغراء قوياً. وكانت محاولتي هذه تعني ثورة على أساليب السينما في أول عهدها، حيث كان الممثلون يستعينون بإشارات متقنة يستعملونها طبقاً لأسلوب التمثيل الصامت الفرنسي.

قلت بحزم: لقد صممت ألا أبالغ في تمثيلي يا مستر غريفيت، لأن في ذلك إهانة واستهتاراً بفهم وذكاء النظارة.

وتشاحنا وكانت هذه واحدة من سلسلة المشاحنات التي وقعت بيني وبين ذلك المدير، والتي غالباً ما كانت تنتهي بانفصالي عن العمل ثم عودتي إليه بعد ساعات قليلة.

وفي أحد الأيام، وبعد مشاحنة صاخبة، غيرت ملابسي وهبطت إلى الشارع وأنا أحمل حقيبة ثيابي، فقد عقدت العزم على أن أعود إلى البيت فأخبر والدتي بأن علاقتي بالسينما قد انتهت إلى غير رجعة. كنت أقوم بدور فتاة كورس مخدوعة في فيلم من نوع الميلودرام يسمى «إنقاذاً لروحها» وفي ذروة القصة كان على خطيبي أن يهددني بمسدس وهو يقوم بدور «ارثر جونسون» فصعب عليّ بلوغ ذروة الانفعال خلال التقاط ذلك المشهد لسببين، أحدهما أن آرثر سولت له نفسه بأن يتهكم عليّ أثناء تناولنا الطعام فأخذ يلوح بمسدسه بوجهي، والسبب الثاني هو اضطراري لإخفاء ظهري عن آلة التصوير بسبب ضيق ثوبي المخملي الطويل من الخلف وثنيه بدبابيس إنكليزية.

تقدم مني مستر غريفيت وقد استشاط غضباً فأمسكني من كتفي وأخذ يهزني بشدة وهو يصرخ: «سأريك كيف تقومين بهذا العمل، قليلاً من العاطفة، يااللعنة ! إنك تشبهين قطعة من الخشب !». فمددت يدي وصفعته، وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي قمت فيها بمثل ذلك العمل المزري، وفي تلك اللحظة، قفزت لوتي، وكانت ترافقني عادة، فوق ظهره وأمسكت بأذنيه وأخذت تشدهما كما لو كانت أعنة حصان.

تخلص مستر غريفيت من قبضتينا، ووقف ينظر إلينا بدهشة يشوبها الغضب، وصرخت لوتي به عندما وقفت بجانبها: كيف تتجرأ على معاملة أختي بهذا الشكل؟

قلت له: إذا لم أكن ممثلة فلن تستطيع أن تعلمني التمثيل بالضرب يا سيدي، من الذي أعطاك الحق بأن تضع يديك عليّ؟ لقد قررت أن أقطع علاقتي بك وبالسينما وبكل ما يتعلق بها.

فصاح مستر غريفيت: «وأنا أريد أن أتخلص منكما أيتها القطتان المتوحشتان». ومر بيده على أذنيه، وقد شعر بالطمأنينة تعود إليه عندما وجد أنهما لا تزالان ملتصقتين برأسه.

وساعدتني لوتي في خلع الثوب ذي الذيل الطويل، وفي هذه المرة عزمت على ألا أعود إلى ذلك العمل، لقد قررت أن أنفض عني غبار الذل وأترك هذا الأستوديو عائدة إلى المسرح نهائياً. وكنت على يقين من أنني سأنجح عندما أصبح بعيدة عن هؤلاء الناس الخشنين الذين لا ينفكون عن الصياح.

كنا نسير على رصيف الشارع الرابع عشر، نسرع الخطى نحو بيتنا ونحن نرتجف غضباً إذ كنا نشعر بأننا على حق، عندما لحق بنا مستر غريفيت، عاري الرأس يلهث من سرعته وهو يركض.

فقال: «إنني آسف، فقد تصرفت بفظاظة، وأنا على يقين من أنك تستطيعين القيام بذلك الدور، دعينا نجرب مرة أخرى».

عدنا نحن الثلاثة إلى الأستوديو، وكانت أعصابي متوترة مضطربة من شدة الصدمة لدرجة جعلت مستر غريفيت يتردد قبل أن يستمع إلى حواري. وصاح بي: «تعالي الآن، دعينا نشاهد بيكفورد الحقيقية، إنني متأكد من أنك تستطيعين القيام بالدور».

وبدأت الدموع تنهمر فتغسل وجهي بعد أن هدأت العاصفة، وأخذت آلة التصوير تدور، فبدت إمارات السرور تلوح على وجه غريفيت.

الفصل الثامن

لم يعد غريفيت يتقيد بنصوص الحوار الخطية حين كنا نقوم بالتمثيل. فقد تلاشى ذلك الترف من الأستوديو منذ أيام البيوغراف القديمة، وكان جل ما كان يقوله لي مدير الفرقة ونحن نمثل أدوارنا، فكري، أنك امرأة منحطة يا ماري، ويلتفت إلى آخر، وأنت يا بوبي، فكر أنك أحد أبناء المزارعين، وكثر الابتكار بعد ذلك حتى أصبحت آلة التصوير تسجل في كثير من الأوقات مشاهد كثيرة مرتجلة لا صلة لها بالمشاهد الأصلية.

وخلال تصوير فيلم (بيغي العنيدة) المقتبس من قصة (ابن العم الريفي) قلت لمستر غريفيت: لقد مللت هذه الأدوار المائعة، وكم أود أن أمسك بتلك التي تمثل دور أمي فأهزها عندما تأمرني أن أتزوج رجلاً في سن جدي، كما جاء في محتويات قصة هذا الفيلم.

فقال مستر غريفيت: إنها فكرة حسنة فلا تدعيها تفوتك، وليس لي من اعتراض عليها.

وعندما سمعت هذه الكلمات المشجعة بادرت إلى آت بروس التي كانت تمثل دور أمي، فهززتها هزاً عنيفاً بينا كان مستر غريفيت يراقب المشهد بعين ملؤها الرضا والموافقة، وأخيراً التفت إلى كات وقال : ما رأيك يا كات لو فعلت بك فتاة في السادسة عشرة من العمر ما فعلته ماري الآن دون أن يكون الأمر تمثيلاً ؟

– امسكها واضربها «علقة» قوية.

– إذن ماذا تنتظرين، عليك بها، وقد فعلت بك الكثير.

فقلت لهما : إذا كنتما تظنان أنني أسمح بأن أخضع لهذا الهراء فأنتما واهمان، ثم ركضت حول شجرة تفاح وكات ورائي تطاردني إلى أن عثرت قدمها فوقعت، فعدت إليها وجلست بجانبها وقبلتها ثم تعانقنا، وبقي مشهد المطاردة والعناق في الفيلم.

وكنت ذات مرة أمثل فيلماً مع أخي جاك، وكان عليه أن يضربني، ولكنه قسا علي قسوة تزيد عما كان مقرراً في الفيلم، فاجتاحتني رغبة ملحة في أن أنتقم منه فأخذت أطارده، وقد نسيت التمثيل وجرى المدير في أعقابي والمصور وراءه، وأخيراً أمسكته وطرحته أرضاً وقعدت فوقه، غير أنه بدأ يضحك فما لبثت أن وجدت نفسي أشاركه الضحك في حين كانت هذه الصور قد أخذت وألحقت بالفيلم.

كان جاك أكثر أفراد العائلة مرحاً وحباً للمزاح والمشاكسة، وحين كانت تحدوه الرغبة في الحصول على سنتات من أمي كان ينتظر فرصة وجودنا في إحدى عربات المترو المزدحمة بالركاب ويبدأ لعبته الرتيبة هامساً :

– أعطيني خمسة سنتات يا أماه.

فتجيبه أمي بهمس أيضاً: أن خمسة سنتات لا تنبت فوق الشجر.

فيعلو صوته: إذن أعطيني عشرة !

وترفض أمي قائلة: لقد نبهتك كثيراً فعليك أن تقتصد فلا تبذر السنتات، أما الدولارات فستحافظ على نفسها، وهذا ما سأفعله تماماً.

وارتفع صوت جاك مرة ثانية ليقول : سألفت نظر الركاب إلى معطفك.

– لن تجرؤ أن تفعل ذلك.

فصاح جاك بملء فيه : ضعي يا أماه قليلاً من الشعر فوق هذه البقعة الجرداء في معطفك وراقبي نموها ثانية.

فشعرت أمي بحرج شديد، وحصل جاك بعد ذلك طبعاً على سنتاته الخمسة.

واستعمل جاك معي نوعاً مماثلاً من النصب، عندما بدأ الناس في الحفلات السينمائية يلقبونني بـــ(فتاة البيوغراف). ففي أحد الأيام وبينما كنا في عربة المترو، اقترب مني وهمس في أذني بقوله، إذا لم تعديني بإعطائي نصف دولار فإنني سأخبر جميع الحاضرين في العربة، أنك فتاة البيوغراف. وكانت ثمرة النصب تصل إلى خمسة عشر سنتاً، تبعاً لكثافة الركاب. وقد أوحى ذلك إلي بفكرة غريبة دفعتني إلى أن أطلب من مستر غريفيت زيادة عشرة دولارات على أجرتي.

فأجابني متسائلاً: هل أصبحت في هذا الأسبوع أحسن تمثيلاً عما كنت عليه في الأسبوع الماضي؟

قلت : كلا يا سيدي، غير أن شخصين تعرفا عليّ في عربة المترو هذا اليوم. وإن كان الناس يرغبون في مضايقتي في الأماكن العامة، فيجب أن أنال ثمن هذه المضايقة.

نظر إليّ مستر غريفيت باستغراب شديد، ثم انفجر ضاحكاً وقال : إنني أمنحك خمس دقائق يا بيكفورد لكي تعطيني سبباً أفضل مما ذكرت، أما أنا فإنني أمنح جميع مرتبي لو تمكن أحد ركاب المترو أن يعرفني.

ومما أذكره الآن، أن غريفيت صاح بالمصور في مساء أحد الأيام: تعال يا بيلي، دعنا نلهو قليلاً، حرك هذه الآلة إلى الأعلى قليلاً، واقترب من ماري.

وكان ذلك تحولاً مرعباً عن النمط المقبول للتصوير الفوتغرافي، وأدار بيلي آلة التصوير، وكانت من طراز جديد صعب المأخذ تزن مئة ليبرة، يحتفظ بيلي فيها بغذائه أحياناً، وفي أثناء ذلك طلعت عليهم ببدعة أخرى فغيرت زيي للمرة الثانية، وحتى ذلك الحين كان الممثلون في السينما يقتصرون على ارتداء زي واحد يومياً، فالتقط بيلي صورة نصفية لي.

وقد سأل مستر غريفيت حين رأها : ما رأيك بها يا بيكفورد؟

وعندما شاهد رؤساء البيوغراف هذه الصورة هاجموا مستر غريفيت بشدة وقالوا :

– إننا ندفع لهذه الفتاة مبلغ مئة دولار في الأسبوع، ونحب أن نرى صورها كاملة من رأسها إلى قدميها، ولن نقبل بصورتها النصفية فحسب. وقال مستر غريفيت : لقد فار مرجل غضبهم من هذه الصورة، فهم يريدون صوراً تساوي ما يدفعونه من المال.

وكان يندب كل يوم حظه الذي قدر له أن يشترك بالعمل مع هؤلاء المغفلين، ومع ذلك فإنه لم يلق إليهم بأي اهتمام، فسار في طريقه المستقيم، يقوم باختبارات فنية جديدة في التصوير الفوتوغرافي، فكانت ذات أثر بعيد في فيلم (ولادة أمة) وأصبحت بضاعة كل مدير يهتم باستعمال آلة التصوير كأداة قوية ذات تعبير فني.

الفصل التاسع

ما إن حل الشتاء التالي، حتى انتشر فجأة خبر قيام الفرقة بأول رحلة لها إلى كاليفورنيا، وكانت الرحلة في ذلك الزمن تستغرق أربع ليال وخمسة أيام من نيويورك إلى لوس انجلوس. وعندما أوشك القطار على الانطلاق أخذ جاك يبكي وهو يصرخ : خذيني معك يا أختاه !

قلت له : لا تكن غبياً، فليس معك حقيبة ثيابك.

فأجابت أمي : خذيه معك إنه مسكين !

فقلت : لا أريده أن يذهب معي، فإنه يضايقني.

فما كان من أمي، التي أثارتها مقاومتي، إلا أن حملت أخي ووضعته على درجات عربة القطار وهي تصيح به، اعتن بأختك يا جوني.

وأجابها وقد حمل الأمر على محمل الجد، سمعاً وطاعة يا أماه.

بدأت رحلتنا في كانون الثاني واستمرت حتى أواخر نيسان وخلال هذه المدة لم يمر بنا يوم دون أن ينبهني أو يحذرني حين يرنو إلي أحد الشباب ولو كان يمر عرضاً على الرصيف المقابل. فقد كان يعتبر أي كلمة أو إشارة تصدر عن رجل غريب مصدراً لضرر غير قابل للإصلاح بالنسبة لأخته الكبيرة. وصلت قافلتنا السينمائية وكأنها جماعة من الرواد إلى لوس انجلوس وهي بلدة صغيرة متأخرة، ازدانت بأشجار الكينا والبرتقال المزهرة. وقد سبقتنا بعثة أخرى إليها، مؤلفة من شركتي برونكور – بيليزو آساني وغيرهما.

كان الأستوديو عبارة عن قطعة أرض مسورة مساحتها آكر ومنصة فسيحة عليها ستائر من قماش قطني تشدها الأسلاك، أما الأستديوهات فقد أقيمت في الهواء الطلق بلا سقف ولا جدران. ولم تكن عندنا غرف للزينة فكنا نلبس ثيابنا صباحاً في الفندق. كما كنا نقوم بالتمارين في غرفة علوية استأجرها مستر غريفيت في بناية قديمة متداعية في شارع (مين) وكان كل ما لدينا من الأثاث منصة وثلاثة كراسٍ ، خصصت لجلوس أعضاء الفرقة المسنين، بينما كان الصغار منا يجلسون على الأرض. وفي أحد الأيام وقف غريفيت ينظر إلى ممثليه الجاثمين على الأرض. ثم سأل : هل يحفظ أحدكم قصة ما؟

فأسرع ثلاثة أو أربعة منا وأخذوا يكتبون بهستريا جنونية. وكنت في الأسابيع الأولى من اشتغالي في البيوغراف، قد بعت بلا خجل إلى مستر غريفيت ملخصاً لأوبرا (تابيس) لقاء عشرة دولارات. أما في هذه المرة فقد غامرت بتقديم رواية من تأليفي دعوتها أيار وكانون الأول. أو (مايو وديسمبر). وتبرم كثيرون من الرجال حين حازت قصتي إعجاب غريفيت فاشتراها، وأعطاني شكاً بخمسة عشر دولاراً. وبعد مدة عرضت عليه قصة تصلح لفلم طوله ألف قدم وأخرى لفيلم مضحك، فرفضهما. فما كان مني إلا أن خرجت مع أخي جاك على ظهر حصانين استأجرتهما، وذهبنا إلى مستر سبور من شركة (اساني) فأعطاني شيكاً بأربعين دولاراً ثمناً لهما. وكان منافسي في هذا العمل الأدبي الثانوي، هو ماك سينين الذي اعتاد أن يسخر مني فيقول : أن قصصي تباع بطول (ضفائري الذهبية) ومع كل هذا فقد عرض علي أن أضع اسمي على قصصه مقابل خمسة دولارات للأشرطة وعشرة دولارات للوصف عن كل قصة يبيعها.

ولكني اشترطت عليه أن أقرأ كل قصة وأوافق عليها قبل أن أذيلها بأسمي، فرضي بشرطي. وبعد بضعة أيام عرض علي قصة لم تنل رضائي فقد كانت حوادثها عن أفراد من الشرطة يقومون بتصرفات مشينة. فقلت له :

إذا أردت أن أضع اسمي على هذه القصة، فعليك أن تغيرها وتجعلها عن أفراد الشرطة الخاصة، لأن تصرفاتهم الفاضحة تجعل الأمر معقولاً. فرفض بغضب، وكان ذلك نهاية تعاوننا.

ثم ازدادت أرباحنا، فبدأت وجاك نغذي أحلامنا بالثراء العظيم. وقد أصبح عملي يدر علي أربعين دولاراً في الأسبوع، يضاف إليها راتب سخي قدره أربعة عشر دولاراً لمصاريفي الخاصة. كما أن جاك أخذ يعمل ستة أيام في الأسبوع بأجر قدره خمسة دولارات في اليوم. وحين حل الربيع كنا قد جمعنا مبلغاً خيالياً قدره ألف ومئتا دولار. فلم أعد عند ذاك أستطيع البقاء بعيدة عن رؤية أمي ومفاجأتها بما وفرناه من المال.

وفي نيسان (ابريل) عام ١٩١٠ وصلت مع جاك إلى نيويورك، ولم تكن أمي ولوتي قد انتهيتا بعد من العقد الذي ارتبطتا به للتمثيل في (وقفة كاستر الأخيرة) فذهبت فوراً إلى أمينة صندوق شركة البيوغراف وطلبت منها أن تبدل ما لدي من المال إلى خمس وعشرين ورقة جديدة من فئة الخمسين دولاراً، ثم ذهبت مع جاك فاشترينا لأمي محفظة يدوية سوداء وضعنا فيها جميع الأوراق النقدية. وحين وصلنا البيت قدمنا لها المحفظة، فسرت بها. وانتظرنا أن تفتحها بفارغ الصبر. ولكنها نظرت إليها بابتسامة ملؤها الرضى، وقالت ببساطة :

– أوه، أجور التمثيل.

ولم تكن أمي فضلاً عنا قد رأت ورقة من فئة الخمسين دولاراً، وعندما أكدنا لها أن هذا المال هو نتيجة جهد حقيقي وتعب أشهر عديدة بدأت بإحصاء الأوراق بصوت يشوبه التأثر. ولم تكد تنتهي حتى انقض أخي الخبيث على الأوراق المالية وأخذ ينثرها في الهواء. فأخذت أمي تطارده، واشتركت أنا ولوتي في مطاردته حتى استرجعناها منه، وكان ذلك بداية ثراء عائلة بيكفورد.

الفصل العاشر

يجب أن أعترف أن هناك سبباً آخر يدعوني للعودة إلى نيويورك في ذلك الربيع. وهو أنني كنت أريد رؤية اوين مور أيضاً. وفي الحقيقة إنني قد شغفت بحبه منذ عدة شهور، غير أنني كتمت حبي طوال الصيف الذي كنت أعمل به في البيوغراف. وطالما فكرت في الأمر عندما كنت في لوس انجلوس، غير أن التفكير لم ينفعني لأنني كنت غارقة في حبه حتى أذني.

وكان اوين مور شاباً وسيم الطلعة، مديد القامة، ذا هيئة ايرلندية، وأسنان بيضاء ممتازة، وعينين زرقاوين، وصوت موسيقي جميل. وفوق ذلك، فقد كان أكثر الشباب أناقة في شركة البيوغراف. وقد اتخذ الشركة سلماً يصل بواسطته إلى المسرح كغيره من ممثلي وممثلات الشركة.

لا أظن أن اوين أبدى شيئاً من الاهتمام بي في أول الأمر، ولما كان يكبرني بسنين عديدة فقد كان ينظر إلي كطفلة صغيرة. أما إذا كان اهتم بي حقاً، فإنه كان أبرع مني في إخفاء اهتمامه.

وكانت عواطفي الهوجاء تظهر واضحة جلية أمام أعين الجميع. وقد فاتحني نجار الأستوديو، سام لاندرز، ذات يوم قائلاً :

– لا أظنك يا ماري ترغبين في الزواج من ممثل. وحتى لو كنت تريدين ذلك، فإن اوين مور ليس بالرجل الذي يصلح لأن يكون زوجاً لك. إنني أكره أن أقول لك هذا، ولكني رأيته مراراً في لوشوز مخموراً يغط في نومه.

لم تكن قصة إدمان اوين على الخمر اكتشافاً جديداً بالنسبة لي، وقد كنت أعرف ذلك، غير أن شغفي به كان أقوى من كل شيء آخر.

وعندما نوهت لأمي عرضاً عن اوين لأول مرة، أجابتني إنه أكبر منك سناً.

ويبدو أنه لا يوجد بين الرجال في نظر أمي من يصلح لي، فهي من هذه الناحية لم تكن من العصر الفيكتوري فقط بل كانت من عصر ما قبل الطوفان، لقد خبرت ذوقها الاجتماعي بعد سنتين عندما التقينا برودولف فالنتينو، إذ كنا نتناول طعام الغذاء في أحد مطاعم نيويورك، فاسترعى انتباهي رجل غريب مهيب الطلعة، يجلس في الجهة المقابلة لنا وقد أثار فضولي حينما نهض واتجه نحو مائدتنا، ثم انحنى بأدب ولباقة أمام والدتي، دون أن ينظر إلي، وقدم نفسه لها قائلاً :

– إنني أدعى رودولف فالنتينو يا مسز بيكفورد، وأرجو أن تصفحي عن جرأتي وتطفلي في التحدث إليك دون سابق معرفة. ويهمني جداً أن أحصل على نصيحتك وإرشاداتك التي تسهل أمامي طريق العمل في التمثيل السينمائي. فكان جواب والدتي، فريداً من نوعه، وأعتقد أنه أصبح بعد ذلك مثالاً نموذجياً.

«إن أول شيء يجب عمله يا مسز فالنتينو، هو أن تلتقط لشخصك أحسن الصور. وأن تنفق ما تستطيع حتى تحصل عليها، ولتكن صوراً جانبية وأمامية، وللنصف الأعلى من الجسم، ولكامل الجسم واكتب خلف كل صورة، عمرك، وطولك، وهيئتك، وتجاربك. وأرسل نسخاً عنها إلى كل فرد في الأستوديو، وكن صبوراً قبل كل شيء.

انحنى فالنتينو شاكراً بحرارة، وعاد إلى مائدته. ويحسن القول أنني أصبت بخيبة أمل شديدة لأنه لم يعرني أية التفاتة، كما أن أمي لم تفه بكلمة معي أثناء وجوده، ولما أصبح بعيداً سألتها لماذا لم تقدميه إليّ.

– لماذا يا ماري، أنا لم يقدمني أحد إليه، وعلى كل، فلم أرَ ذلك مناسباً في مكان عام كهذا.

لم تكن أمي تعير اوين شيئاً من الأهمية لولا أن الناس في الشركة أخذوا بالتحدث عن تعلقي به. أما هو فكان يزورنا بانتظام. وانتحى أحدهم ذات مرة بأمي جانباً وأخبرها أن حالتي أصبحت خطيرة وأن علاقتي به تلحق أشد الضرر بسمعتي، وأنه ليس جديراً بي. وأظن أن أمي اقترفت خطأ كبيراً عندما أنذرتني قائلة :

– إنني آمرك يا ماري ألا تقابلي اوين مور بعد اليوم خارج الأستوديو. كما أن عليك أن تبلغيه بأنني لن أرحب به في بيتنا بعد الآن، وإذا رفضت تبليغه فإنني سأبلغه ذلك وأكثر منه بنفسي.

كنت حتى ذلك الحين ابنة مطيعة، غير أنني للمرة الأولى عصيت أوامر والدتي. فبدأت أجتمع باوين سراً، وفي إحدى الليالي قلت له والدموع تكاد تنفر من عيني، يجب أن لا نلتقي كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أخفي الأمر طويلاً عن أمي، ويحز في قلبي عدم إطاعتي أوامرها كما يحز بقلبي بعدي عنك، فتقدم عندها، وعرض علي الزواج منه .

ولا أدري ماذا قلت له، سوى أن أمي لن تسمح بذلك .

فرد بعنف: «إذا لم تتزوجي مني يا ماري، فسأترك البيوغراف، ولن ترين وجهي بعد اليوم».

طار صوابي لدى تصوري ضياع اوين مني، واحترت بين القبول والرفض. وأخيراً قبلت في يأس، وبعد عدة أيام أخبرت السيدة المولجة بخزانة الثياب في البيوغراف، أنني ذاهبة إلى إحدى الحفلات وطلبت منها أن تعيرني ثوباً له ذيل طويل، وكنت قد اعتدت في تلك الأيام أن ألبس الأحذية ذات الكعوب العالية، ليس فقط أثناء العمل، بل وفي الشارع أيضاً.

وبعد انتهائي من العمل، ارتديت معطف أمي الفرو الكبير، والثوب

المستعار، والحذاء ذا الكعب العالي. وذهبت إلى المحكمة في نيوجيرسي حيث عقد لي على اوين مور، في ليلة باردة شديدة المطر من كانون الثاني «يناير» وفي جو كئيب رهيب. وقد مشيت مع اوين في البهو إلى غرفة قذرة يشع فيها نور خافت أضاف إلى حزن قلبي أسى ولوعة. وخلال انتظارنا للقاضي، نظرت إلى اوين وتتابعت الأفكار في رأسي، وأخذت تتضارب.

«لماذا؟»، إنني لا أكاد أعرفه... أنا لا أحبه أبداً ... ماذا أعمل هنا ... لقد عصيت أمي ... وفوق كل هذا فأنا لا أريد أن أترك عائلتي... فماذا عليّ لو نهضت وركضت بسرعة فقد أتمكن من بلوغ المترو قبل أن يستطيع اللحاق بي.

وتذكرت عند ذلك الذيل الثقيل الذي يمر خلفي والمسافة الطويلة، ودرجات المحكمة وكعبي حذائي العالي. وفوق كل هذا، فلست أحمل دراهم لأدفع ثمن تذكرة الركوب في المترو. ولو كنت أكثر تجربة في الحياة لخطر ببالي أن أستقل سيارة صغيرة وأدفع الأجرة بعد وصولي. وفجأة تبخرت كل هذه السلسلة من الأفكار، فقد سمعتهم ينادون باسمي وفي لحظات قليلة عقد زواجي على اوين مور.

عدنا أنا واوين إلى البيت، وودعني على عتبة الباب. وكنت غارقة في النوم على السرير المزدوج مع أختي لوتي، عندما عادت أمي إلى البيت وهي لا تعلم شيئاً عما جرى، كما لم تشتبه بشيء، ولكن هل أستطيع أن أنسى الصباح التالي ؟ أيقظني المنبه في الساعة السابعة، وعندما نهضت كي أستعد للعمل، نظرت إلى وجه أختي الهادئ على الوسادة فشعرت في تلك اللحظة أنني أكرهها – أكرهها لأنها لم تكن تئن تحت حمل ذلك الوزر الذي كان يجثم فوق نفسي. وذهبت إلى عملي وخاتم الزواج معلق بسلسلة في عنقي مخبأ تحت ثوبي، ولم أتحدث مع اوين مور ذلك اليوم إلا قليلاً.

وتبع ذلك عدة شهور مملوءة بتقريع الضمير والخوف والكتمان، وقد

شعرت أنني ارتكبت خيانة فظيعة. فلم أكن أدري ما سأقوله لأمي عندما تكشف الحقيقة لها. وعشت في قناعة تامة وعواصف الألم والخوف تعصف بي بأنني سوف أخسر أمي وجاك ولوتي بسبب زواجي من اوين مور .

وفي خلال ذلك، تركت شركة بيوغراف والتحقت بشركة لامل السينمائية المستقلة .L.M.P. وقد أصبحت تعرف بعد ذلك بأفلام يونيفرسال، وكان العقد مع هذه الشركة ينص على دفع مئة وخمسة وسبعين دولاراً في الأسبوع، وفي تلك الأيام كانت المعارك محتدمة بين جهتين تتخاصمان بضراوة حول استعمال آلة التصوير .

وقد بلغ الخصام بينهما إلى درجة استئجار أفراد من عصابات الشوارع لكي ترجم آلات التصوير والممثلين في شركة كارول بالحجارة، وإلى أن يصدر القضاء حكمه قررت الشركة ترحيلنا من مناطق الخطر والإبحار بنا إلى كوبا لمدة ثلاثة أشهر .

ورافقتني أمي وجاك في تلك الرحلة، وقبل إبحارنا طلب مني أوين، وقد عيل صبره، أن أخبر عائلتي عن زواجنا، وعندما زففت إليهم خير زواجي ظلوا ثلاثة أيام بلياليها يبكون والحزن يعصف بهم شديداً قاسياً . وامتنع جاك ولوتي عن التكلم معي أثناء طريقنا إلى كوبا، ولا أزال أتخيل جوني واقفاً في السكة وذراعه حول كلبه الصغير، والدموع تتلألأ في مآقيه .

لقد شعرت بأنني أشد الناس خطأ في هذا الكون، وأصبح شهر العسل المتأخر أشبه شيء بمأتم مخيف، ولم تكن حياتي في كوبا أفضل من حياته فقد عرفت بعد ذلك أن أوين كان غيوراً، ليس من ممثلي الفرقة فحسب، بل ومن عائلتي أيضاً، وطبيعي أن العائلة كانت تبادله نفس الشعور. وزاد الأمر تعقيداً وحرجاً أن أوين والمدير (توم انيس) كانا يتبادلان الكراهية الشديدة .ولم يترك (نورث) مساعد المدير فرصة تمر دون أن يهيننا نحن الاثنين.

و في ليلة قسا نورث عليّ بالكلام فضربه أوين ضربة برجله واستدعى الشرطي وكان يأمل أن يضع أوين في سجن قصر مورو . وكان أن بدأت أمي الواسعة الحيلة عملها، فأصدرت أوامر سريعة قبل وصول الشرطة: اذهبي إلى أحد أصدقائك الذين تعتمدين عليهم من الممثلين، واطلبي منه أن يجيء اوين عنده إلى أن يعود أفراد الشرطة من حيث أتوا حيث سيحمل هذه الليلة على ظهر مركب سيبحر غداً صباحاً إلى الوطن، أما أنت يا ماري فيجب أن تذهبي معه.

ونجحت خطة أمي، فعند قدومهم أخذت تجادلهم جدالاً عنيفاً، بينما اخرج اثنان من أصدقائي اوين وأوصلاه سالماً إلى الميناء .

وفي صباح اليوم التالي، التحقت به على ظهر المركب في مرفأ هافانا، وأبحرنا عائدين إلى الولايات المتحدة. وكان يتضح لي، كلما مر الوقت، فداحة الخطأ الذي ارتكبته ووقعت فيه بزواجي من اوين .

فقد كان بالإضافة إلى غيرته من عائلتي يسخط على نفسه وعليّ، لأنني أكسب أكثر منه .ولحسن الحظ لم أدعه يعلم أنني كنت أشترط في جميع العقود التي أرتبط بها، أن يعمل معي ولا ألوم اوين ولا أعده مسؤولاً عن جميع حوادث التوتر والاصطدام في حياتنا المشتركة .فلم يكن باستطاعة أي إنسان أن يقبل هذا الوضع. وكنت وأنا أصغره كثيراً، الزعيمة . ولم تساعد ضفائري الذهبية المتدلية على ظهري في تسوية الأمور، فقد كانت دائماً تذكر اوين، أنه رجل ترأسه طفلة .

وبعد انتهاء مدة العقد بيني وبين IMP ذهبت لمدة قصيرة مع شركة تشكلت لأجلي تدعى (ماجستيك بيكتشرز) وقد وافقت بناءً على طلبي على منح اوين فرصة القيام بأعمال الإدارة ولم يخبره أحد أن لي أية صلة في ارتباطه مع هذه الشركة. وذهبنا إلى غلين كوف – لونغ ايلاند – لالتقاط المناظر الخارجية . وفي أحد المشاهد التي كان يديرها اوين، توقفت عن

طلب أية معلومات إضافية. فقال لي اوين أمام أمي وجميع أفراد الشركة : إياك أن تتلبسي شخصية مسز اوين مور هنا. وتذكري أنك ماري بيكفورد فقط .

ومن الذكريات السوداء، ذلك اليوم الذي اضطررت أن أكابد فيه ألم عملية مفاجئة لاستئصال الزائدة في نيويورك. فرأيت من الأفضل أن أخفي أمرها عن اوين. طالما أنه كان في حالة يصعب معها الاقتراب منه في ذلك الحين. وفي الواقع لا أعتقد أنه كان قد وجه إليّ كلمة منذ أكثر من شهر. فذهبت دون أن أودعه ورافقتني أمي فقط إلى المستشفى .

وفجأة اندفع اوين داخلاً غرفتي وانتهر الأطباء والممرضات وسألهم : بأي حق تجرون عملية لزوجتي دون موافقتي ؟

وحاولوا عبثاً إقناعه بأن حياتي كانت بخطر شديد، ولما كان في حالة سكر شديد فقد أعطوه مخدراً.

وقبل أن يعطوني المخدر، طلبت منهم أن يدعوني أصلي دقيقة.

ودعوت ربي بخشوع، رباه، إنك تريدني أن أكون مطيعة، ولكن إذا كانت مشيئتك أن أعود إلى اوين، فإنني أفضّل الموت .

وفقدت وعيي سريعاً، غير أن فكرة الموت كانت متأصلة في نفسي، حتى إنني عندما صحوت من تأثير المخدر قلت: أتوسل إليك يا رب، دعني أموت! وكنت أسمع صوتي وكأنه صادر عن شخص آخر .

ولما شاءت إرادة الله أن أعيش، اعتقدت أن مشيئته أيضاً تقضي أن لا أعاني التعاسة بعد الآن مع اوين .

ورفضت أن يزورني بعد حادث المستشفى، وذهبت وأمي حالاً إلى الشاطئ، واستأجرنا بيتاً خلوياً في لوس أنجلوس، وهو أول بيت تقاسمنا السكن فيه منذ أيام تورنتو. وقبل مضي مدة طويلة صرت أتلقى سيلاً من الرسائل والهدايا المتنوعة من اوين. ثم أتى إلى الأستوديو بنفسه وتوسّل إليّ

كي أغفر له. وبالطبع فقد تكرر ما كان يحدث في السابق. لقد أخذتني الشفقة عليه وضعفت إرادتي. فوعدت نفسي بأن أمنحه فرصة أخرى .

وعندما أتى اوين ليعيش معي، أرادت أمي أن ترحل. ولكني لم أسمح لها بذلك، فكنت أحتاجها، أثناء العمل الشاق الذي كنت أقوم به، غير عالمة، وأنا في خشية دائمة مما قد يأتي به الغد .لذلك صممت على بقائها بجانبي وكان اهتمام أمي بأن ينجح زواجي، لا يقل عن اهتمامي، وأتذكر كيف كانت تستيقظ في الخامسة صباحاً، في جميع الفصول لكي تحضر طعام الفطور لاوين غير أن كل ذلك الجهد ذهب مع الريح .

فبينما كنت أتعلم طرق مكافحة أكثر خطيئات اوين، من نوبات صمته الطويلة، وعداوته لأمي، إلى استيائه من نجاحي المتزايد، فقد فشلت في مكافحة إدمانه على المسكرات، فواجهته يوماً من الأيام بعزم. وكنت قد بلغت الواحدة والعشرين من العمر، وأنا أشد ما أكون اقتناعاً بأنه لا أثر للزواج السعيد على وجه الأرض .

قلت له : يجب أن تختار واحداً يا اوين، ويذهب الآخر، إما أنا أو الخمر.

قال : إنني آسف يا ماري، أظن أنك أنتِ التي يجب أن تذهبي . وكانت تلك هي نهاية خمس سنوات قضيتها في اليأس والعذاب .

وأشكر الله على أن العالم بدأ ينظر إلى التسمم الكحولي كمرض خبيث ولا أعلم ما إذا كان اوين قد استطاع أن يتغلب على عادته فيترك الخمر، غير أنني أؤكد أنه كان يحبني بقدر ما يستطيع أن يحب أي شخص آخر .

ولو تزوج امرأة أكبر سناً، فربما كانت أكثر تسامحاً. أما أنا كفتاة صغيرة، فلا أدري كيف تمكنت من اجتياز هذه التجربة المحزنة الرهيبة .

الفصل الحادي عشر

كنت في السنين الأولى في اشتغالي بالسينما، ألقب في المحافل التمثيلية، «بذات الضفائر الشقراء» أو «ذات الضفائر الذهبية» أو «الفتاة ذات الضفائر» على أنهم كثيراً ما كانوا يطلقون عليّ اسم «فتاة البيوغراف». أما حينما كنت أعمل في شركة IMP فقد اشتهرت باسم ماري الصغيرة، وعندما عدت إلى البيوغراف، أخذوا ينشرون اسمي في الإعلانات الكبيرة والصغيرة وأسماء غيري من ممثلات الشركة. وقد دخل في روعنا أن ذلك تقدم حقيقي بالنسبة لنا. والواقع أننا ما زلنا في أول الطريق، فضلاً عن ظهور أسمائنا على الشاشة .

وبوسعي أن أقول، أنه على الرغم من قلة عدد الممثلات في الشركة، فقد كانت المنافسة على أشدها بين الفتيات اللواتي يتبارين دون كلل على نيل الأدوار البارزة. وقد لاحظت عند عودتي إلى البيوغراف أن على الفتيات اللواتي أصبن بعض النجاح أثناء غيابي، أن يظهرن امتعاضهن مني وكبرياءهن .

كنا جميعنا في إحدى المرات نتنافس في تمثيل دور فيلم يدعى «رمال دي» الذي يتطلب ممثلة ذات شعر غزير، وقد كتمنا أنفاسنا بينما كنا نترقب صاحبة الحظ السعيد التي ستنال هذه الخطوة .

غير أن مستر غريفيت كان ثاقب الفكر طموحاً ذا آمال واسعة، وقد

أخذ يفكر في إخراج فيلم يدعى «خلق الإنسان» قبل انتهائه من فيلم «رمال دي». وكان على بطلة هذه القصة القديمة أن ترتدي ثوباً بدائياً من العشب، شبيه بثوب أمنا حواء، وعرض عليّ مستر غريفيت أن أقوم بهذا الدور، ولكنني أبيت ذلك وقلت له :

إنني آسفة يا مستر غريفيت، إذ يتطلب الدور الكشف عن الأقدام والسيقان والصدور والنحور، (كنا في تلك الأيام نلبس الأحذية والجوارب الطويلة أثناء الاستحمام وهو شيء غير مألوف)، لذلك رفضت العرض وفعلت هذا ثلاث ممثلات، وأخيراً أعلن غريفيت. وقد غلى مرجل غضبه أننا ما دمنا قد ترفعنا عن تمثيل هذا الدور، فقد قرر إسناده إلى مس مي مارش، التي التحقت بالشركة منذ عهد قريب. ثم أردف يقول بازدراء : أرى من واجبي أن يفهم الجميع أنني قررت إسناد دور بطلة فيلم «رمال دي» إلى مس مارش، مكافأة لها على شجاعتها الأدبية ولطفها .

صعق الجميع من هول ذلك الخبر، لأن مس مارش تخلت منذ وقت قصير عن عملها في أحد المخازن التجارية، والتحقت بالبيوغراف دون سابق مران على التمثيل .

ولا أزال أذكر كيف قررت جدة الممثلة بلانش سويت، التي لم تكن تحبني وتظهر امتعاضها مني، أن تنضم إلى أمي في جبهة واحدة، ضد ذلك العدوّ المشترك.

لقد قالت لها : إنني أعتبر إسناد دور البطولة في «رمال دي» إلى مس مارش إهانة لبناتها، ولا أعلم كيف يمكنها أن تقوم بمثل هذا الدور، إنه ليس لها شعر غزير. وسواء أكان لماري مارش شعر أو لم يكن، فقد مثلت دورها، وكنا ننتظر، بالطبع، حدوث كارثة للشركة، غير أن الكارثة حلت بنا نحن مرة أخرى، حين قامت مس مارش بدورها خير قيام، واضطررنا على الرغم منا أن نكبت غيظنا، ونخفي كبرياءنا، ونقدم لها تهانينا الحارة .

وقد قذفت في هذه الحادثة في بحر خضم من التفكير، إذ سألت نفسي فقلت: إذا كان باستطاعة فتاة صغيرة من مخزن تجاري أن تقوم بتمثيل ذلك الدور كأحسن ممثلة بيننا، نحن اللواتي أمضين السنوات الطويلة في صقل مواهبنا الفنية، فلن يكون مكاني بعد الآن هنا، وعليّ أن أعود إلى المسرح حيث سنوات الدراسة الطويلة والجهد المضني الشاق ضماناً لنا ضدّ مزاحمة الهواة .

ورسخت هذه الفكرة في نفسي على أثر مقابلة لي مع ويليام دي ميل الذي هاله نشاطي في الحقل السينمائي، إذ إني عملت بعد مدة طويلة، أنه كتب إلى دافيد بلاسكو الرسالة التالية التي يقول له فيها :

أتذكر ماري بكفورد، تلك الفتاة الصغيرة التي مثلت دور«بيتي» في مسرحية «آل وارن من فرجينيا»، لقد التقيت بهذه المسكينة منذ بضعة أسابيع، وعلمت أنها تفكر جدياً في التخلي عن عملها في السينما، ورغم أنها تستطيع أن تؤمن حياة رغيدة من ذلك العمل، إلا أنها تعتبره عملاً مخجلاً محطاً بكرامتها، وإني لأذكر كم كنت تؤمن بمستقبلها، فشخصيتها الفذة المتلهفة كانت ولا تزال تبشر بحياة طويلة على المسرح، بينما هي تلقي الآن بهذا المستقبل في وعاء القاذورات وتدفن نفسها في نوع رخيص من اللهو، لا أرى فيه ناحية واحدة يمكن الركون إليها، أو الثقة بها. ولا أعتقد أن هذه الصور المتحركة، سوف تدر ربحاً حقيقياً كما لا ينتظر منها أن تتطور إلى شيء يمكننا أن ندعوه فناً، وقد حاولت إقناعها بألا تضيع حياتها الفنية وتضيع الفرصة التي يتيحها لها ظهورها على المسرح والتعرف على آلاف الناس من رواد المسارح، غير أنها ظلت على عنادها.

سنبدأ بالتمرين بعد أسابيع قليلة، ويسرنا أن نعود إلى العمل معكم في المسرح .

وإلى أن يحين ذلك الوقت أرجو أن تقبل تحياتي الخالصة .

صديقك وتلميذك

التوقيع – ويليام. س. دي ميل

لم يوافق مستر غريفيت عندما أبلغته عزمي في الرجوع إلى المسرح، فقد قال لي وهو يضحك بازدراء :

– هل تظنين أنه يمكن لأي منتج مسرحي يحترم نفسه، أن يتعاقد معك بعد أن أمضيت ثلاث سنوات في السينما ؟ إنني لأنصحك يا سيدتي أن تبقي حيث أنتِ .

فأجبته وقد آلمني هذا التقريع : سأعود في العام القادم يا مستر غريفيت للعمل في برودواي مع مستر بلاسكو.

وكان هذا تبجحاً مني، فلم يكن من السهل على أي كان – حتى على ممثلة البيوغراف – أن تحصل على دور هام من كبار المنتجين، كما أنه كان لا يزال أمامي عدة شهور قبل بدء الموسم المسرحي في الخريف لكي أحقق تبجحي .

وفي يوم من أيام الصيف القائظة وقفت سيدة جميلة أنيقة مع ابنتيها الساحرتين أمام مكتب شركة البيوغراف وسألت عن «غلادس سميث» .

فقيل لها أنه لا يوجد هناك أحد بهذا الاسم، وعندما عرضت على موظف البيوغراف بعض الصور التي ظهرت فيها : صاح، أوه، إنك تعنين ماري بيكفورد ثم أرسل يطلبني .

فخرجت لأرحب بليليان ودورثي جيش وأمهما .

ثم قالت ليليان: لن أنسى ما قالته أمي عندما شاهدت صورك في الفيلم: لقد انحطت منزلة غلادس سميث وتخلت عن أناقتها. يجب أن تكون المسكينة في حالة فقر شديدة حتى سقطت إلى هذا الدرك .

وأخذنا نضحك ونحن نتذكر الماضي بسرور عندما دخل مستر غريفيت البهو من خلال الأبواب المتحركة فبادرته قائلة :

أريد منك أن تقابل ثلاثة من أعز صديقاتي يا مستر غريفيت، إنهنّ مسز جيش وابنتيها ليليان ودورثي، وإني أعتقد أنهما ستكونان من أجمل الممثلات اللواتي يظهرن على الشاشة .

فقال مستر غريفيت : من الشجاعة أن تعرفيني على مثل هاتين الفتاتين الجميلتين ... ألا تخشين أن تخسري مركزك يا ماري ؟

قلت : كلا، لأنهما إذا استطاعتا انتزاعه مني فذلك دليل واضح على أنني لا أستحقه.

فقال ليكيدني وهو يصعد الدرج : سوف تندمين .

كان مستر غريفيت يسعى دائماً لإثارة عواطفنا الفنية إلى أبعد حد، وذلك بإيقاد نار الغيرة والمنافسة بيننا. وقد حاول ذلك بيني وبين ليليان بعد التحاقها مع أختها بوقت قصير .

فقد قال لي يوماً : وكان على وشك أن يلتقط أحد المشاهد، بحضور ليليان: لماذا لا ترتدين ثوباً جميلاً كثوب مس جيش ؟

ضبطت أعصابي ولم أجبه .

فالتفت ثانية وقال : اصعدا أنتما الاثنتين، وبدلا ثوبيكما ولا تتأخرا كثيراً وعندما اختلينا أنا وليليان تعانقنا لبضع دقائق. وقلت لها : إنني أعرف ما يحاوله يا ليليان، فهو يريد أن يثيرني من أجل المشهد القادم، عديني يا ليليان بأنك لن تدعيه أبداً، هو أو أي شخص آخر يتدخل في صداقتنا.

وأجابتني ليليان بأنها لن تسمح بذلك أبداً، ورجتني أن لا يكون جمال ثوبها سبباً لإثارتي وغضبي ثم أضافت: إنني يا ماري والحق يقال أفضل ثوبك.

وقد شعرت في تلك الليلة بعد تناول العشاء أنني لم أعد أستطيع مقاومة رغبتي الجامحة بالانتقام من صاحب الجلالة لتلميحه بتفاهة ثوبي .

قلت له : من المؤسف يا مستر غريفيت أنك لا تستطيع الحصول على تمثيل جيّد دون محاولة الإيقاع بين فتاتين صديقتين.

فأجابني وكأن حية قد عقصته:

لا أريد أن أسمع كلمة من فمك. فأنا أدير شركتي حسب ما أراه صواباً دون أن أحتاج إلى انتقاد طفلة وقحة مثلك .

– إنني لا أريد أن تعاملني كطفلة .

– أنت تعلمين أنك لست سوى طفلة، بل طفلة وقحة .

وكنت في تلك اللحظة أشبه بقطة شرسة .

فأجبته : لا تهمني يا مستر غريفيت طريقة إرادتك، ولم تكن تهمني من قبل. ولو كنت مديراً حقيقياً لما حاولت أن تثيرني ضد ليليان لكي تحصل على مشهد ناجح، لماذا لا تفكر في معاملتي بطريقة أشرف ؟

– لا أحب أن اسمع منك أكثر من ذلك، أيتها الطفلة الوقحة. قال ذلك ودفعني بذراعه ففقدت توازني وسقطت على الأرض. ثم استندت إلى مرفقي، وقلت بطريقة مثيرة وزنت فيها كل كلمة وكل إشارة : هل تدعي أنك من نبلاء الجنوب ؟ إنك لست سوى لطخة عار على الجنوب وعلى الشمال أيضاً، لا تكلمني بعد الآن يا سيدي. لأنني سأعود إلى نيويورك .

وخمد بركان غضبه بنفس السرعة التي انفجر بها، وبات ضحية لتقريع الضمير .

وحاول أن يرفعني عن الأرض، ولكني دفعته عني باشمئزاز، وقلت، لا تمسني يا سيدي ولا تكلمني ما حييت .

وتحاملت على نفسي حتى وصلت إلى غرفتي. ومع أنني لم أكن أنوي العودة إلى البيت، فقد كان عليّ أن أتظاهر بعد هذه الثورة بأنني سأنفذ وعدي. فبدأت بحزم أمتعتي بصخب .

وكان رد الفعل لدى مستر غريفيت أسرع مما قدرت، إذ جمع كل فتيان وفتيات الشركة ومن بينهم الأختين جيش وجاك ولوتي، فلم أحس إلا والجميع يقفون أمام باب غرفتي يغنون بصوت واحد :

– إلى اللقاء يا ماري، كم يحز في نفوسنا أن نراك تذهبين .

بدأ غضبي يذوب كقطعة من الجليد في الشمس الحارة لدى سماعي أصواتهم، ثم دخلوا الغرفة وحملوني إلى مستر غريفيت، فاستقبلني نادماً مستغفراً ودعا الجميع إلى كأس من (السارساباريلا) احتفالاً بانتهاء العداء بيننا.

ورغم أن لهذه الحوادث ناحيتها المؤثرة المسلية، فإنها حفزتني لأن أستمر في السعي للحصول على عمل في برودواي. وفي أوائل الخريف قمت بزيارة ويليام دين مدير أعمال دافيد بلاسكو.

وكم كانت دهشتي عندما عرفني وقال :

– ألست بيتي ... بيتي وارن الصغيرة !!

– بلى يا مستر دين

– حسناً أين كنت كل هذه المدة ؟ لقد قلبنا الدنيا بحثاً عنك .

فأجبته بصوت ملؤه الخجل : كنت أعمل في السينما يا مستر دين.

فقال : إذن كنت تختبئين هناك. هل لا تزالين محافظة على ضفائرك ؟

– فأكدت له أنني لا زلت كذلك

– كم يلزمك لكي تنزلي إلى المسرح ؟

– أوه بضع دقائق فقط .

ثقي أنني لا أستطيع الانتظار لأشاهد وجه الرئيس عندما يرى ثانية وجه طفلته الصغيرة بيتي .

وبعد بضع دقائق، كنت خلف خشبه المسرح في مسرح بلاسكو .

فطلب مستر دين أن أسحب الدبابيس من شعري وأخلع حذائي ذا الكعب العالي، وأختبئ خلف أحد أعمدة المسرح. وسرعان ما سمعت صوت خطوات تقترب. واستطعت أن أسمع مستر دين وهو يقول :

– كلا يا سيدي، لن أخبرك ما هي. سوف تجد المفاجأة بنفسك حول ذلك العمود .

ولقد كنت أرتجف وأبكي من شدة الفرح والتأثر، وأن إمارات الدهشة والسرور التي ارتسمت على وجه مستر بلاسكو الحبيب عندما رآني، لا تزال منطبعة في رأسي وقلبي بشكل قوي .

وكانت أول كلمات صدرت منه حين قال : إنني لا أكاد أصدق عيني يا بيل، ولا يمكن أن يكون ذلك حقيقياً. أين عثرت عليها ؟

– أخبرك يا سيدي. حقاً إنها فتاة شقية. وأظن أننا أنقذناها في آخر لحظة.

– وأي نوع من الأذى كانت صغيرتي بيتي توشك أن تقع فيه .

– هو أسوأ ما يمكن الوقوع فيه لقد ذهبت لتعمل في السينما. ولكن أظن أنه يحسن بنا أن نعفو عنها.

وقال لي مستر بلاسكو عندئذ :

– أريد أن تقومي بتمثيل دور جولييت العمياء. وهو الدور الأول في مسرحية «شيطان صغير طيب» .

أصابتني رعشة من الفرح لا يمكن وصفها. لقد كانت هذه المسرحية من وضع زوجة وابن موريس روستان، وترجمة اوستن سترونسغ (من الفرنسية) .

قال مستر بلاسكو : سنبدأ التمرين حالاً، إذا كنت حرة بالطبع .

وكنت في الواقع حرة، لم أوقع أي عقد مع البيوغراف. وكان تفكيري يتجه نحو هدف واحد، وهو أن أسرع بالنزول لأرى مستر غريفيت. فخرجت سريعاً وكنت بعد قليل أصعد درجات شركة البيوغراف. وكان مستر غريفيت في منتصف التمرين. وهنا أخجل أن أقول أن طعم الانتصار تغلب لدي على آداب السلوك، فقاطعته، فنهرني قائلاً : تعلمين أن النظام يقضي بأن لا يقاطعني أحد أثناء التمرين. ولم يعقني كلامه

فقلت : ولكن هذا أمر مهم جداً يا مستر غريفيت .

– يمكنك الانتظار .

– لا أستطيع أن أنتظر... لأنني سأبدأ التمرين على إحدى المسرحيات، وأريد أن أعرف إذا كان ذلك يناسبك. هل تسمح بأن أذهب ؟

وكان وجه مستر غريفيت يوحي بتأمل عميق .

قال : إنك فتاة مزعجة غير قابلة للإصلاح، أرجو أن تذهبي. لقد قلت لك إنني مشغول .

ولكنه تحول إلي وأخذ يتفحص وجهي بقلق جعل انتصاري يتلاشى كالبرق. لقد تبينت فجأة، إلى أي درجة سأفتقد بيوغرافي العزيز، واليد الموجهة لهذا الرجل الممتاز .

قال بهدوء وبساطة : هل حقيقي ذلك يا ماري ؟

فقدمت له ورقة الحوار التي أخذتها من مستر دين : نعم يا مستر غريفيت وهذا هو الدور الذي سأمثله .

وسألني : مع من ؟

– مع دافيد بلاسكو .

وكانت الدموع تترقرق في عينيه، وهو يقول :

– ليرعاك الله يا ماري. سأفتقدك كثيراً .

وكان الآخرون يقفون حولنا في سكون، تملؤهم الدهشة من أن إحدى أطفال برودواي الضالين، تمكن من العودة إلى الحظيرة المقدسة .

وبينما كنت أستعد لمغادرة المكان قال لي مستر غريفيت : لا يزال أمامك ثلاثة أيام قبل أن تذهبي .

هل لك أن تحضري غداً صباحاً ؟

– إنني أحب أن أصور معك فيلماً آخر .

لقد كان هذا الفيلم الذي عملت فيه مع مستر غريفيت خلال تلك الأيام الثلاثة من أقوى الأفلام التي أخرجتها شركة البيوغراف ويدعى «قبعة من نيويورك» ولست على يقين من أن السبب في ذلك النجاح كان، لأنه آخر أفلامي في تلك الشركة .

وفي حفلة افتتاح مسرحية «شيطانة صغيرة» في فيلادلفيا، كان مستر غريفيت وسائر أفراد شركة البيوغراف يحتلون الصف الأمامي للأوركسترا، كما أن سلوك مستر بلاسكو لم يتبدل أثناء التمرين عما كان عليه منذ (آل وانر من فرجينيا) ومع ذلك، فإن تغاضيه عني حتى ذلك الحين كان موضع استغرابي. فأخذت أشعر بأنه يهملني تماماً. وأن القضية قضية وقت فقط .

وأخيراً حل اليوم الذي لم أعد أستطيع فيه الانتظار، فذهبت رأساً إليه وقلت له :

– إنني لم أعد أطيق هذه الحالة يا مستر بلاسكو .

فسألني وقد بدأ التعجب على وجهه : أي حالة لا تطيقين ؟

– متى تبدأ فيّ ؟

فنظر إليّ في استغراب صريح وقال : لا أفهم ماذا تعنين يا بيتي .

– ألا يوجد في عملي مالا يعجبك ؟

فقهقه مستر بلاسكو بضحكة مطمئنة حبيبة وقال فجأة :

– ألا تظنين أنني لن أتوانى عن لفت نظرك لو كان هناك أي مبرر ؟ والآن اذكري يا طفلتي إني لم أردد ذلك على مسامعك قبلاً، لأنني لا أريد لك الغرور، وذكر أن طبيبه الخاص وهو اختصاصي كبير في أمراض العين والأذن والحنجرة قد شاهد تمريننا الكامل بالملابس وأبدى في تمثيلي رأيه الذي نقله إليّ بلاسكو بقوله : لقد أكد لي ذلك الطبيب أنك مثلت دور العمياء ببراعة جعلته يعتقد أنك قضيت عمرك مع العميان. ولم يصدق أنك مثلت ذلك الدور من تلقاء نفسك فقط. هل سررت الآن؟ ولقد علمتني السنوات الثلاث

التي قضيتها في التمثيل السينمائي، الشيء الكثير عن التمثيل بالإشارة. غير أن عمى الفتاة جولييت كان يختلف تماماً عن كل ما مثلته سابقاً إذ كان يحتاج إلى أن يمثل، بتفاصيله الدقيقة. لأنه كان على جولييت – بطلة الفيلم – أن تظهر في أحد الفصول في الحديقة، وأن ترى في البيت في مشهد آخر. فكنت أغمض عيني وأحصي الخطوات إلى المقعد أو إلى الباب أو حيثما أسير. وعندما كنت أفتح عيني، أحاول أن لا أرى شيئاً .

وإنني لا أستطيع أن أصف كيف ينشأ انهيار الأعصاب لعدم رؤية الناس والأشياء وكيف يحملق الإنسان في الرؤوس دون أن يرى شيئاً. وكانت هذه الحملقة الدائمة أكبر جهد وأضناه قمت به خلال حياتي على المسرح والشاشة لأني كنت أحس الألم في العضلات والتعب في الأعصاب في كل ناحية من جسمي حين أعود إلى البيت .

وقد استولى علي خوف لم يسبق له مثيل ليلة الافتتاح في نيويورك. وكان يقلقني شيء واحد، هو أسلوبي في إلقاء الكلام. فقد حذرني مدير الحوار كثيراً حول طريقتي الكندية في لفظ «الراء» لذلك كنت أقع في خوف وارتباك كلما نطقت بهذا الحرف. وبالإضافة إلى هذه المعضلة انضم إلى الفرقة عدد من الرجال المتمرسين في مسارح برودواي، كارنست لوفورد وهو ممن برعوا في معرفة الحروف الانكليزية الصوتية والساكنة وإلقائها. وكم كان سروري وفخري عظيمين عندما قال لي أحد الناقدين مهنئاً على ما كان يقض مضجعي عدة أسابيع :

«إذا صح أن مس بيكفورد تعلمت إلقاء حوار على الشاشة الصامتة فيجب أن نوصي الأغلبية من ممثلي برودواي بالذهاب إلى تلك المدرسة».

ونظراً للعناء الجسدي الذي لاقيته في دور جولييت، فقد كان من حقي أن أكافأ على عودتي إلى المسرح وكنت أمني نفسي في الليلة التي تحدثت فيها لأول مرة مع مستر بلاسكو بأن أحل محل فرنسيس ستار في غرفة

التزين ذات النجمة الفضية. وقد أصبحت الآن غرفتي، وهي مكان صغير بالطبع ألصقت على بابه نجمة فضية يسعى إليها الجميع مع أنها لا تساوي أكثر من خمسة سنتات (قبل التضخم المالي). وأصدر مستر بلاسكو أمره بإعادة زخرفها وفرشها بالبروكار الفرنسي الأزرق. وكنت في تلك الأثناء أتقاضى مبلغاً مرضياً، ذلك أنني أخبرت مستر بلاسكو أنني كنت أتقاضى قبل مغادرتي للبيوغراف مئة وخمسة وسبعين دولاراً في الأسبوع، فعرض عليّ مبلغاً مماثلاً في البداية، ولكنني أخبرته بعد ليلة الافتتاح في نيويورك بمدة قصيرة أنه من دواعي سعادتي العميقة إضافة مبلغ خمسة وعشرين دولاراً علاوة على ما أتقاضاه أسبوعياً وأضفت :

– إن هدفي يا مستر بلاسكو، هو أن أكسب خمسمئة دولار في الأسبوع عندما أبلغ العشرين من العمر .

قال : إن ذلك من الأسباب الجوهرية التي تدعوني لأن أمنحك إضافة قدرها خمسة وعشرون دولاراً، وستكون أجرتك من الآن فصاعداً مئتا دولار في الأسبوع.

الفصل الثاني عشر

قلت إنه يجب عليّ أن أرضى بعملي المسرحي، ولكن رغم محاولاتي المتكررة لتوطين النفس على ذلك، فقد كان يعتريني خلال الليل، حنين قوي يدعوني للعودة إلى الشاشة، وأخذت أفتقد لعبة الأحجار المثيرة، التي تشبه الصور المتحركة حين تعمل وتتطور، ويتخللها مغامرات في آفاق مجهولة لا تبلى جدتها.

ورغم ذلك فقد وطدت العزم على أن لا أعود أبداً إلى الصور المتحركة، فكنت أستعرض يومياً موطني القديم – المسرح، ومقامه الساميّ وتراثه الفاخر، ولكنني تبينت أخيراً أنه عديم النفع قليل الفائدة، فعزمت أن أعود إلى السينما .

وفي أحد الأيام، قرأت في إحدى الصحف، قصة رجل يدعى ادولف زوكور قام بتأسيس شركة سينمائية سماها (شركة الممثلين المشهورين) وتعمل على إنتاج أفلام طولها من خمسة آلاف إلى ستة آلاف قدم، وتستند في إخراجها إلى أحسن القصص المسرحية وأقدر الممثلين والممثلات في العالم، فعلمت أن الفرصة التي كنت أنتظرها قد حانت، وفتنتني مغامرة مستر زوكور الجريئة، وتيقنت أن من الخير لي أن أكون سمكة صغيرة في حوض واسع من أن أكون سمكة كبيرة في حوض صغير .

سنحت لي الفرصة بأسرع ما كنت أتوقع وذلك حين ابتاع مستر زوكور وشريكه دانيال فرومان، شقيق تشارلس فرومان، حقوق إنتاج فيلم بقصته المسرحية المعروفة «شيطان طيب صغير» مع حق الاستفادة من جمع أفراد فرقة بلاسكو ومن بينهم بديلتي في التمثيل. (أي الفتاة التي تقوم بدوري في حالات المرض والتغيب) وهي فتاة ذكية تدعى كليربوث، ولكن لم يمض وقت طويل على إخراج فيلم (شيطان طيب صغير) حتى قدمت كلير استقالتها من شركة بلاسكو، وأصبحت بعد ذلك كاتبة مسرحية، ومن ثم سفيرة .

وقد علمت سبب استقالتها بعد عدة سنوات، وذلك حين أخبرتني بأنها وأمها تيقنتا أنه لن تتاح لها الفرصة في أن تخلفني بالقيام بدور جولييت العمياء، فتركت المسرح، غير أننا كنا نفكر والقدر يسخر، فقد سقطت في الخريف التالي طريحة الفراش، فأمرني طبيبي بالهدوء التام والبقاء في الفراش، فانتقل دوري حين ذاك إلى الفتاة التي حلت محل كليربوث بديلة لي وهي كلير بورك .

شعرت بطبيعتي الغريزية عندما قبلت الظهور في أحد أدوار فيلم شيطان صغير طيب، بأني شققت طريقاً جديداً ممهداً، ومع أن ذلك الفيلم قد فشل فشلاً ذريعاً، فلم يظهر حتى الساعة، ولكن من يكون الملوم على هذا الفشل، أهو مستر بلاسكو أم كاتب المسرحية، واقتضى إخراج ذلك الفيلم أربعة أو خمسة أيام، نلت على أثرها مكافأتي، وذلك حين دعاني مستر بلاسكو إلى مكتبه في تياترو بلاسكو لأقابل دانيال فرومان، الذي اشترك مع مستر زوكور في تأسيس شركة (الممثلون المشهورون) وقد عرض علي الأخير عقداً مدته أربعة عشر أسبوعاً لقاء خمسمئة دولار في الأسبوع، ولم أرض بذلك الأجر إلا بعد مفاوضات ومناقشات حامية، ومع أني كنت في التاسعة عشرة من العمر فقد بلغت الهدف الذي كنت أتطلع إليه لدى بلوغي سن العشرين، واستمر عملي مع مستر زوكور وشركة (الممثلين المشهورين) خمس سنوات ونصف السنة، كانت من أسعد سنين حياتي التي قضيتها في

التمثيل السينمائي، أما مستر زوكور فكان يعتبرني كأحد طفليه، وهما ابنته ميلدريد وابنه يوجين، وظل حتى نهاية اتفاقنا يعاملني بمثابة والد محب مخلص، ويهتم بكل مظهر من مظاهر حياتي الخاصة والعامة .

لقد كانت آرائي في عملي على الشاشة وخارجها، كما كانت لمستر زوكور آراؤه الخاصة، فكنت أربح تارة ويربح أخرى. لذا فقد كان يراقب كل كبيرة وصغيرة أقوم بها وخصوصاً عندما كنت أظهر في الأماكن العامة. فيتشدد في موضوع الثياب التي يجب أن أرتديها، والحقيقة أنه كان يهتم أكثر من أمي، بمن يرافقني أمام الناس، وأذكر أنني كنت ذات مرة بصحبته في طريقنا إلى مؤتمر لأصحاب دور السينما في بوسطن، حين ذعر ذعراً شديداً لدى طلبي منه السماح لي بالجلوس في البار الموجود في إحدى عربات القطار .

فصاح بي : هل فقدت عقلك يا عزيزتي ماري ؟ ألم تشاهدي من دخل إلى البار منذ هنيهة ؟ لقد رأيتها بالطبع ؟

قلت : إنها بيرل هوايت، وأنا من أشد المعجبات بها، ولهذا أردت أن أذهب لأشاهدها عن كثب.

لقد راقبتها وهي تسير على الرصيف المفروش بالبسط الحمراء في المحطة المركزية في طريقها إلى القطار الخاص إلى مؤتمر أصحاب دور السينما في بوسطن .

كانت تسير وكأنها إمبراطورة بمعطفها المخملي الأسود الروسي، وفي إحدى طرفيه شريط عريض من جلد الثعلب الأحمر، كما كانت تضع على كتفيها فراء ثميناً من جلد الثعلب الأحمر يتناسب مع لون شعرها، وعلى رأسها قبعة مخملية كبيرة سوداء. لقد شعرت برهبة عظيمة وأنا أشاهدها تدخل عربة القطار وتشعل سيجارة أمام جميع الرجال وتنفث من بين شفتيها سحباً كثيفة من الدخان .

وتابعت قولي له : ولكنني لن أمكث طويلاً، يا مستر زوكور .

– كلا يا حبيبتي ماري، كوني عاقلة وابقي في غرفة الضيوف مع أمك والسيدة زوكور .

ولم أجبه وتناولت إحدى المجلات وأخذت أطالعها. وما إن رآني مستغرقة في القراءة حتى تسلل بهدوء، وبعد لحظة مشيت نحو الباب على رؤوس أصابعي، وألقيت نظرة فرأيت مستر زوكور يحتسي كأساً من الشراب، والبشر يغمر وجهه، وهو يحتل المقعد الذي اخترته لنفسي ووجهه يعبر عن شغف لا يداخله خجل، وهو يصغي إلى قصة كانت بيرل هوايت تسردها على حفنة من الرجال الملتفين حولها. وعاد مستر زوكور مرة أو مرتين ليعلن لنا أنه لم يبدل رأيه، وأنني يجب أن لا أغادر غرفتي .

ظهرت بجانب هذه المخلوقة المذهلة شبيهة بامرأة صغيرة تافهة، وشعرت بضعتي وسموها وبقي هذا الشعور ملازماً لي، إلى أن حلت تلك الليلة التي تأبطت فيها ذراع حاكم مساشوستس في القاعة الكبرى في بوسطن. فتعالت أثناء طوافنا بالمدرج، هتافات الجمهور «تحيا ذات الضفائر الشقراء» تحيا فتاة البيوغراف. وكان الحاكم في هذه الأثناء يرد عليهم وهو يحني رأسه مجيباً : كيف أنتم، إن هذا جميل ولطف منكم. وتوقف فجأة عن السير والتفت إلي يتساءل :

الضفائر الشقراء ؟ لا أعتقد أنني فهمت شيئاً. هل فهمت أنت ؟

نعم يا سيدي، إنهم يحيونني .

– هل يعرفونك يا آنسة .

– أظن ذلك .

ولا أعتقد أن الحاكم كان يعرف من هي التي كانت تتأبط ذراعه .

وفي صيف عام ١٩١٤، دخلت مكتب مستر زوكور لأطلب إليه لأول مرة زيادة مرتبي. ولم يكن قد بقي على انتهاء تعاقدي معه إلا ستة أشهر.

وكان ذلك العقد ينص على منحي خمسمئة دولار في الأسبوع .وكنت عزمت على البقاء إلى نهاية المدة المحددة، لذلك أوضحت لمستر زوكور أنني تلقيت عرضاً بألفي دولار أسبوعياً من إحدى الشركات المنافسة على الشاطئ. وكنت أتصور دائماً أن كل سنة تمر، قد تكون آخر عام من عملي على الشاشة، كما لم يدر بخلدي مرة أن شهرتي ظاهرة مؤقتة هوائية ثم قلت : أرجو أن تعلم يا مستر زوكور، أنه مهما كان قرارك فإنني سأستمر في عملي حتى انتهاء عقدي وسأبقى لك صديقة مخلصة .

فأجابني : إنني على ثقة من ذلك أيتها العزيزة. والآن دعينا نذهب ونحتسي معاً قدحاً من الشاي، بينما نبحث الأمر معاً، أتوافقين؟

أخذني مستر زوكور إلى مطعم في برودواي يقع في الجهة المقابلة لمسرح يعرض أحدث فيلم مثلته في ذلك الحين، وهو «قلوب مع التيار» وبعد أن مكثنا برهة ابتدأ حديثه قائلاً :

– يجب أن تعلمي يا ماري أن سعادتك هي كل شيء ليس بالنسبة لشخصي فقط بل لأفلامي وشركتي أيضاً .

وبعد أن توقف قليلاً تابع حديثه :

لقد طلبت مني علاوة على مرتبك. ما رأيك إذا جعلت مرتبك مضاعفاً؟ فأجبته : إن ذلك كرم عظيم دون شك، وقد ظهر علي السرور حينما تخيلت حصولي على ألف دولار في الأسبوع.

وفيما كنا نتحدث وقعت عيني على إعلانات الفيلم من خلال نافذة المطعم وسرعان ما أخذت أتساءل متعجبة عن السبب الذي حدا بمستر زوكور إلى البقاء بعد أن انتهينا من الحديث واحتساء الشاي، سيما وقد أخذ الظلام يسود ويتكاثف. وفجأة لفت نظري مشهد من أعظم المشاهد المثيرة في حياتي الفنية، فقد رأيت اسمي يتلألأ على واجهة مسرح الشارع الخامس وكانت هذه هي أول مرة أرى فيها اسمي يتلألأ بالأنوار الكهربائية. لقد دبر

هذا الرجل الطيب اللطيف مفاجأته الجميلة الأخاذة بإتقان، مدفوعاً بعوامل الحب والحنان، فقابلت صنيعه الطيب بأن طلبت منه تلك العلاوة. إن احترام ورعاية مستر زوكور، واهتمامه الشديد بأن أقاسمه شعور الغبطة في تلك اللحظات المليئة بالمثيرات والأعمال العظيمة، جعلت منه شخصاً عزيزاً علي إلى الأبد .

وعلى الرغم من اهتمامي بالمال وقلقي من المستقبل، رفضت عقداً لإحدى شركات الإعلانات التي عرضت علي بموجبه مبلغاً يعادل ما أتقاضاه من مستر زوكور أي ألف دولار أسبوعياً. ولكي يكون عرضها أكثر إغراء ومرونة فقد وعدتني الشركة بمجموعة من الكماليات، التي لها من قوة الإغراء ما تتغلب به على قلب أي فتاة. فمن ثياب من صنع ليدي داف غوردون، إلى أثمن الأقمشة الحريرية والجوارب والأحذية والمساحيق، وفوق كل هذا سيارة فخمة أنيقة. ولقد كان رأي دنيس اوبراين، محامي العاقل يتمثل في قوله : «أظن أنه لا يليق بنا أن نخاطر بقبول هذا العقد مهما كان مغرياً». فقد يأتي الوقت الذي تجدين فيه اسمك مرتبطاً بجميع أنواع المشاريع التجارية المختلفة من جيد ورديء. إنك فتاة صغيرة، ويبدو لي أن أمامك مستقبل باهر ينتظرك. فعليك أن تضحي بهذه الأشياء التي هي بمتناول يدك، حفظاً لذلك المستقبل، ويجب أن يبقى اسمك، رمزاً حياً للسينما، لا إعلاناً عن معاطف السهرة والمساحيق وغيرها من البضائع التافهة. وكنت وأمي نشاركه هذا الرأي. فرتبت منذ ذلك اليوم نظاماً لحياتي وعملي سرت على هديه طيلة حياتي .

ومع أن فيلم «قلوب مع التيار» كان من أنجح الأفلام التي مثلتها آنذاك فإن فيلم «تس من بلاد العواصف» الذي تبعه حجبه، وفاق في نجاحه. وقد أخبرني مستر زوكور بعد سنين، أن فيلم «تس» قد أنقذه من الإفلاس، إذ إنه، كي يستطيع دفع قائمة الرواتب، استدان مبلغاً على بوليصة تأمين حياته كما رهن عقد زوجته الماسي. وقد عرفني بطفلته الشقراء بعد عرض فيلم تس .

بلغت تكاليف إنتاج فيلم تس، عام ١٩١٤ عشرة آلاف دولار، بما فيه أجرتي ونفقات السفر إلى الشاطئ الغربي لالتقاط الفيلم. واستطعنا إخراجه بمثل هذا المبلغ التافه وهذا العدد الضئيل من العاملين، لأن كل واحد منا كان يقوم بعمل مزدوج. فهناك مثلاً، ادوين بورتر نائب رئيس شركة الممثلين المشهورين، الذي قام بعمل إضافي، فأصبح مساعداً للمصور ومديراً، ومنتجاً، ورئيساً لفرع الكهرباء .

كان الأستوديو يقع في الجهة الخلفية من دار متهدمة خارج لوس انجلوس ويتألف من مصطبة أقيم فوقها شاشة قطنية تتحرك بأسلاك معلقة من الأعلى وكانت الشمس لا تبلغ السطح حتى العاشرة صباحاً، وتغيب وراء سور الباحة الخلفية في الرابعة، فكنا لا نستطيع العمل في الداخل، إلا لفترة من الزمن لا تتجاوز ست ساعات. ومن عيوب ذلك الزمن أن الأفلام السالبة كانت ترسل فوراً إلى شرق البلاد لتحميضها. فلم نكن نرى ما نقوم بتصويره في اليوم السابق، ولم نكن نستطيع أن نحكم على ما ننتجه إن كان صالحاً أو غير صالح .

لو كان يتاح لنا أن نرى ما ننتجه في اليوم السابق، لساعدنا ذلك كثيراً في تركيز الفلم والتثبت منه. ولكن ذلك لم يكن ميسوراً لأننا كنا نعمل في الليل. ثم عرض دون أن نرى مشهداً واحداً منه. وكم كان سرورنا واغتباطنا عظيمين عندما بلغنا بعد انتظار طويل أنباء نجاحه الكاسح في نيويورك .

وقفز مرتبي في السنوات القليلة التالية، عدة قفزات مدهشة، فمن ألف دولار إلى ألفين إلى أربعة آلاف وأخيراً، إلى ما كان يطلق عليه عندئذ بالحد الأعلى لمرتبات السينما، وهو عشرة آلاف دولار أسبوعياً، ولم تكن هذه المبالغ مرتبات فقط، إنما هي ضمانات أسبوعية، لقاء ٥٠ % بالمائة من الأرباح. ولم يكن حصولنا على هذه الأرباح من مستر زوكور عن طيب خاطر، لأنه تبين لي فيما بعد، أنه كان لنا ملء الحق في بادئ الأمر بالحصول على مرتبات أكثر من تلك التي كنا نأخذها من العارضين

وعندما أخذ مستر زوكور يرضخ لطلباتي المتكررة بازدياد راتبي، فإنه رفع ثمن الأفلام التي يرسلها إلى دور العرض. ورفع قيمة التأمين من خمسة وثلاثين ألف دولار إلى خمسة وستين ألف دولار، ثم منها إلى مئة وعشرين ألف دولار، وأخيراً رفع القيمة إلى مئة وخمسة وستين ألف دولار، عندما أخذ يدفع لي عشرة آلاف دولار في الأسبوع، – ولهذا الارتفاع صلة مباشرة بنوع الأفلام التي أخرجناها فيما بعد – أوحى إلينا العارضون والجمهور أن نبتعد عن فكرة السينما الرخيصة وأنشأوا دوراً فخماً واسعة للسينما مثل سينما نيويورك ستراند، لكي يثبتوا لنا ذلك .

والظاهر أنني كنت أبدو بمظهر من تقدر نفسها حق قدرها، عندما قمت بتلك القفزة الأخيرة، وطالبت بأن أتقاضى عشرة آلاف دولار في الأسبوع، أما الحافز للقيام بتلك المطالبة فهو ما شاهدته في الصيف الماضي عندما كنت أقود سيارتي ذات ليلة في برودواي في طريقي من الاستوديو إلى البيت من أحد أفلامي المسمى «ثياب بالية» من إنتاج (شركة الممثلين المشهورين)، كان معروضاً في صالة (الستراند) وشاهدت أثناء مروري بدار السينما صفوفاً طويلة متراصة من الجمهور تنتشر على طرفي صندوق التذاكر .وقد عرض في الأسبوع التالي في نفس الصالة، ومن نفس الشركة، فلم آخر لم يكن من أفلامي. فلم أشهد إلا عدداً من رواد السينما يقف أمام صندوق التذاكر، فأخذتني الحيرة، وطلبت من السائق أن يعود إلى «الستراند» حيث اتبعت بطاقة ودخلت الصالة، ثم بدأت إحصاء دقيقاً، فاكتشفت أن أقل من نصف المقاعد قد امتلأت، أما بالنسبة للشرفة، فيمكن قذفها بالقنابل دون أن يصاب أحد بأذى، لأنه لم يكن بها أي متفرج، وعدت إلى البيت وأنا مستغرقة في التفكير، وفي الصباح التالي، ذهبت وأمي لنرى مستر زوكور، وسألناه:

– كم قبضنا أجرة من تياترو ستراند عن فيلم «ثياب بالية» ؟

فتح مستر زوكور عينيه ودفاتره بامتعاض وقال :

– ثلاثة آلاف دولار .

– وكم قبضت أجرة ذلك الفيلم الذي يعرض في هذا الأسبوع ؟

– ماذا ترميان من وراء ذلك ؟

– ألسنا شركاء في اقتسام الأرباح مناصفة، فمن حقنا إذن أن نعلم يا مستر زوكور.

فقال وهو يتنهد باستسلام: قبضت أقل بمئتي دولار يا ماري .

لم أقل أنا شيئاً، ولكنني بعد تشاور طويل مع والدتي، قررنا أن نطالب بعد انتهاء مدة العقد الحالي، بأن تباع أفلامي على حدة، فلا تحشر بعد الآن مع غيرها من الأفلام .

وكانت أمي تحضر دوماً المداولات المتعلقة بتجديد عقودي ومرتباتي، ولم أدرِ أينا كان مرهوب الجانب أكثر من الآخر، ولكن ماذا يمكنني عمله؟إن الشركات الأخرى أصبحت تتنافس على استخدامي وتلوح لي بأرقام مذهلة، ومع رغبتي الأكيدة في البقاء مع مستر زوكور، فقد استولى عليّ شعور بأنني مدينة بالولاء لعائلتي ولنفسي قبل كل شيء، وفضلاً عن ذلك فإني كنت مقتنعة بأن للشركة من القوة المالية اللازمة، ما يمكنها من الوقوف أمام تلك العروض لتحتفظ بي، وإنصافاً لحق نفسي أقول إنه لم يكن في نيتي أبداً أن أحمل مستر زوكور على تنفيذ بنود الاتفاقية في حالة خسارة أفلامي .

ويظهر أنني لا أزال في حلم لا يصدق بأن جميع الشركات السينمائية أخذت تتنافس بصورة خيالية، كي أقوم بالعمل معها، وأذكر أن شركة يونيفرسال ضمنت لي مرتباً قدره عشرة آلاف دولار في الأسبوع، عدا خمسين

بالمائة من أرباح جميع فروع الشركة. وإني لأتساءل الآن والعجب يغمرني، عما إذا كان ذلك حلماً، حلماً لم أستيقظ منه حتى الآن .وإنني لأخشى أن تكون تلك المنافسة أضحت كابوساً لروح ادولف زوكور، تلك الروح الطيبة التي وقع صاحبها فريسة بين منافسة خصومه من أصحاب الشركات الأخرى من ناحية وبين طلباتي المشروعة المتزايدة من ناحية أخرى .

وقد اعتاد أن يقول لي : يا حبيبتي ماري، لا أريد أن أعود إلى الحمية لأنني أفقد عشر ليبرات كلما تحدثت عن توقيع عقد جديد معك ومع أمك .

الفصل الثالث عشر

اقتنع مستر زوكور بأن مصلحته تقضي باندماج شركته مع شركة لاسكي التي كانت تضم صموئيل غولدوين وجس لاسكي وسيسل دي ميل. وأطلق على اندماج هاتين الشركتين اسم (شركة أفلام بارامونت) وهي عبارة عن وسط يشبه آلة ضخمة تعمل من تلقاء نفسها وقد حلت بالطبع محل تلك المجموعة العائلية الصغيرة المتألقة، التي كانت تدرس مشاكلها بروح خاصة يسودها النشاط، وتتطلع إلى الصالح العام قبل ل شيء آخر. ولقد قمت بتمثيل فيلمين لحساب الشركة الجديدة حاولت جاهدة أن أمحوهما من مخيلتي بعدئذ، ويذكرني أحدهما وهو فيلم «أدنى من التراب» بامرأة أوقفتني في الشارع مرة لكي تقول لي :

– أوه لقد أحببتك كثيراً يا مس بيكفورد في فيلم «أرخص من التراب» ومع أنه كان لهذه الدعاية شدة لذعتها، فقد وافقت ما يعتلج في نفسي، لأنني كنت أشعر برداءة هذا الفيلم وتفاهته. أما الفيلم الثاني الذي كنا نقوم بإنتاجه والمسمى «كبرياء العائلة» فقد أذن لي رؤسائي الجدد بالتحدث عنه قليلاً، غير أنه هو أيضاً قد فشل فشلاً ذريعاً. وبالإضافة إلى ذلك الفشل فقد صادفتنا صعوبات أخرى، كدت أغرق في إحداها خلال تمثيلي في ذلك الفيلم. فقد كنا نلتقط في صيف عام ١٩١٦ مشهداً في قارب صيد صغير به حجرة واحدة،

اتخذتها غرفة للتزين وكان القارب منطلقاً بنا عندما سمعنا صوت المدير وهو يصيح :

– اقفزوا جميعكم من القارب، إننا نغرق .

فتدافع أفراد الفرقة والبحارة، وأخذوا يقفزون بأنفسهم في البحر، وجعل بعضهم يسبح متجهاً نحو الشاطئ الذي يبعد عنا حوالي ثلاثمئة ياردة، أما النساء فقد هبطن في قارب النجاة الصغير المربوط إلى جانب مركب الصيد واندفعت لألحق بهن، ولكنني تذكرت فجأة أنني نسيت صندوق المساحيق في القمرة، فاتجهت نحوها دون أن يشعر بي أحد، في غمرة الهياج والفوضى. وكنا آنئذ خمسة وعشرين شخصاً غادروا كلهم القارب ما عدا مستر تورنور. وبعد أن حملت صندوق المساحيق ورجعت لآخذ طريقي إلى قارب النجاة، أوقفني صوت باطني صدر من أعماق نفسي، هو نفس الصوت الذي كنت أذعن له بين كل حين وآخر، إذ سمعته يقول لي بوضوح : «لا تذهبي هناك». عدت مسرعة في اللحظة التي كان مستر تورنور على وشك أن يقفز فيها إلى الماء والذي كان يعلو ركبتينا. فذعر أشد الذعر عندما رآني لا أزال فوق ظهر السفينة، وأخذ بيدي وساعدني على الوصول إلى قارب النجاة، والنزول به. ثم رمى بنفسه في الماء، وأخذ يسبح إلى الشاطئ، ولولا ذلك الصوت الخفي لفقدت حياتي. إن ذلك الصوت كان دائماً يرافقني ويقودني، ويرشدني إلى طريق النجاة .

وإني أذكر حادثاً آخر جرى لي – ربما كان فيه الموت أقرب إليّ منه في الحادث السابق – وذلك لدى تصوير أحد مناظر فيلم قديم مثلته مع شركة I M P يدعى (في حديقة السلطان) فقد وقع لي ذلك الحادث في نهر الهدسون الذي أخذت بعض مناظره على أنها تمثل مضيق البوسفور، وفوجئت وأنا في موقف غرامي مع أحد الأمريكيين، بوضعي في كيس قذف به في البوسفور من فوق أحد الأبراج العالية، وكانت وصيفتي قبل أن يخيطوا علي الكيس قد

أعطتني خنجراً لأشق به طريقي في اللحظة التي أقع بها في وسط الماء، ليسرع عشيقي الأمريكي الذي كان على علم بخطط السلطان لنجدتي في قارب سريع في اللحظة التالية .

ووضعت الكاميرا فوق حوض عائم، ووقفت أمي مع المدير وبقية المساعدين مع المصور، ومع أني كنت أجهل السباحة، فلم يهتم أحد بذلك كما لم يهتموا بالماء القذر الذي سيلقوني به، وكل ما قالوه لي أنه يجب أن أحرك قدمي وأمشي في الماء كما لو كنت أصعد إلى الأعلى، وأن أبدو كما لو كنت أشق طريقي خارج الكيس. وكنت أحاول السير في الماء بين الحوض الذي تقف عليه الكاميرا وقارب سريع استؤجر لهذا الغرض، غير أن قائد القارب السريع، أضاع رشده لشدة انفعاله بهذه الفرصة التي أتاحت له الظهور في مشهد فيلم سينمائي، وبدون سابق إنذار، رأيت القارب يندفع نحوي بأقصى سرعته.

وأدرك أحد المكلفين بمراقبتي، الخطر المحدق بي، فقفز إلى الماء بثيابه وأمسك بقدمي، وجرني إلى عمق عشرة أقدام، في اللحظة التي مر بها القارب فوق رأسي واصطدم بالحوض العائم، فألقى كل من على ظهره إلى الأرض، وخرجت بأعصاب متوترة وأنا أرتجف من شدة الخوف حتى كدت أفقد وعيي، ولا أزال أشعر حتى الآن بالهلع الذي استولى علي، فقد حسبت أن الرجل الذي أمسك بقدمي وجذبني تحت الماء، قد جن فجأة وأنه يحاول إغراقي.

أخذ يزداد اقتصادي لتلك الصلة الشخصية التي كانت تربطني بالشركة فتجعلني أنظر إليها نظرتي لعائلتي الثانية، كما أن هذا التحول الجديد أربك مستر زوكور على ما يظهر، أما أنا فكثيراً ما كنت أتورط في كثير من الأمور التافهة في مثل ذلك الجو الضيق.

كانت شركة الممثلين المشهورين قد وعدتني بمبلغ كبير قبل اندماجها مع الشركات الأخرى، إذا قبلت تأجيل التوقيع على العقد التالي، لذا ذهبت

لمقابلة مستر زوكور، ولأذكره باتفاقنا، بينما كنا نناقش في هذا الأمر، ضغط أحد الأزرار المثبتة على منضدته، فدخل على أثر ذلك أحد صبية المكتب، وأعلن أن مستر صموئيل غولدوين – وكان اسمه في ذلك الحين غولد فيش – يرغب في رؤية مس بيكفورد في مكتبه الخاص فذهبت إليه وأنا أشعر بالضيق من هذا التدخل المفاجئ والحدث المعارض. ولم أكد أدخل غرفته حتى فاجأني مستر غولدوين بلهجة ملؤها التهكم فقال: ما هذا الهراء يا آنسة بيكفورد ؟

فأجبته: إنه ليس هراء يا مستر غولد فيش، لقد عقدت اتفاقاً مع مستر زو كور وحده، فلا علاقة لك به، فإني ارتبطت بعقد مع شركة الممثلين المشهورين، لهذا أرجو أن تسمح لي أن أقول أن من حقنا دون غيرنا أن نقرر ما نشاء في هذا الأمر.

فقاطعني قائلاً : والآن، أصغي إليّ.

فتابعت كلامي دون أن أعيره أي اهتمام وقلت له : وفي المرة التالية أرجو أن لا ترسل بطلبي مع صبي المكتب، وإذا أردت أن تراني فيمكنك أن تأتي إلي بنفسك، إلى اللقاء .

وقد نشأت بيننا، نتيجة لهذا الحادث، كراهية متبادلة لا تزال قائمة إلى الآن، ولكن ومع كل هذا، أرى من واجبي أن أقرر الحقيقة فأقول، إن سام غولدوين كان منتجاً، ملهماً، مستقيماً، محافظاً على كرامة فنه ومهنته، لذا فإن صناعة هذا الفن تدين له بالشيء الكثير، لأنه كان أول من وجه أشهر الكتاب المسرحيين والأدباء للعمل في الحقل السينمائي، كما كان جريئاً في تنفيذ ما يقتنع به. ومع أنه لا يهمني أن أعمل معه، فإني أرى لزاماً علي أن أعترف بصراحة بتلك المزايا التي ساعدت كثيراً في بناء صناعة السينما. وكمثال على اهتمامه فقد بلغني أن مستر غولدوين، نظر مرة من نافذة مكتبه فرآني أسير في الشارع فصاح : «يا إلهي ! عشرة آلاف دولار في الأسبوع، وهي لا تزال تسير الهوينى نحو الأستوديو، ينبغي عليها أن تركض».

وحدث بينما كنت أعمل في فيلم «فتاة غنية مسكينة» أن أدركت مزايا استعمال الضوء الاصطناعي من الجهة السفلى، فقد كنت أضع قليلاً من البودرة على أنفي، أمام مرآة الصيهور (دريسوار – dresser) الكبيرة عندما سطع نور الصباح الباكر، الذي عكسته على وجهي مرآة صغيرة يدوية موضوعة في إحدى الزوايا، فأسرعت إلى الأستوديو لأعلن عن اكتشافي، وعند وصولي طلبت من المدير مستر تورنور أن يأمر المصور بوضع أحد الأضواء في مكان منخفض. فسخر مني وأخذ يعدد الأسباب التي تدعو إلى عدم الأخذ برأيي .

قلت: حسناً، دعنا نلتقط المشهد على طريقتنا العادية، ثم نعود فنلتقطه بالطريقة التي اقترحها، وأترك لك أن تقرر بنفسك ما تراه مناسباً. واستسلم مستر تورنور لرأيي وهو يقول : سنقوم بالتجربة، إرضاء لك .

وتمت التجربة، وكان الفرق عظيماً لدرجة جعلت الشركات تقرر استعمال الأضواء المنخفضة لكي تنعكس على وجوه الممثلين .

وأصررت على مستر زوكور أن يعين فرانسيس ماريون لمساعدتي في حوار «فتاة غنية مسكينة» أما فرنسيس هذه فهي فتاة صحفية لامعة من سان فرانسيسكو، وقد كتبت فيما بعد، بعضاً من أفلامي الناجحة. أما تورنور، فيا له من مسكين، لقد تحمل الكثير من الكيد والتملق، والتعنيف مني ومن فرنسيس أثناء إخراجنا لهذا الفيلم، فقد ظننا أن بين يدينا تحفة كوميدية، وعندما كنا نشعر أحياناً أن الفكاهة ناقصة في بعض فصول الفيلم نأخذ بابتكار مشاهد صغيرة مثيرة، ولا أزال أتصور كيف كان مستر تورنور يحتج ويشير بيديه قائلاً :

– ولكن يا فتاتي العزيزتين، إن هذا لا يمت إلى الفيلم بصلة، فليس هو من مضمون القصة وغير موجود في الحوار. كلا ! إن هذا شيء فظيع ! وانتهت القصة أخيراً. وأتى اليوم الذي ينبغي أن تعرض فيه على مستر

زوكور ورؤساء البارامونت – لقد كان ذلك اليوم من أحلك أيام حياتي. فإن جميع الأشياء التي خلتها أنا وفرنسيس مضحكة على المسرح. لم يكن لها تأثير مطلقاً في غرفة العرض. وذهبت إلى البيت لأستلقي على فراشي دون أن أتناول طعام العشاء وأخذت أبكي بهدوء إلى أن غلبني النعاس. وكانت الصدمة أشد على فرنسيس. فقد عادت إلى البيت، وزحفت تحت السرير، ولم تشأ أن تخرج، وكانت تقول لأمها وهي تبكي :

– لا أريد الحياة يا أماه، لقد تسببت في هدم مستقبل ماري !

ولم يكن الأمر يستدعي اختباء فرنسيس تحت سريرها ورغبتها في الموت وليس ثمة سبب لأن تستسلم لهذا النوع من الشعور. كان عليّ أن أعيش وأواجه تلك الثورة النفسية. فحين أرسل إلي مستر زوكور بالحضور إلى مكتبه، كانت ماري التي وقفت أمامه هذه المرة فتاة وديعة طيبة معذبة. إذ قال لي بكل لطف أن عليّ أن أكون فتاة عاقلة ولا أصدر أوامر في المستقبل. طأطأت رأسي وقلت حسناً يا مستر زوكور .

ثم قال : والآن، أرجو أن تكوني لطيفة يا ماري وتعودي إلى الفندق، وترسلي برقية رقيقة إلى مستر دي ميل تقولين فيها أنك كنت فتاة شقية أساءت التصرف، وتعديه بالإقلاع عن أعمالك السابقة .

– حسناً يا مستر زوكور، فأنا حتماً آسفة على ما بدر مني .

– والآن. دعيني أرى كيف يمكنك أن تنجزي هذا العمل بسرعة ولا تنسي أن تقرئي لي البرقية هاتفياً قبل إرسالها .

عدت إلى الفندق وأنا أشعر أني من أتعس الناس، وجلست لأكتب ما تخيلت أنه أتفه برقية لأقدم بها خضوعي إلى سيسيل دي ميل .

وكانت البرقية تنص على العبارة التالية : لم تعد لي رغبة بالتدخل في اختيار القصص أو البحث عن مختلف الممثلين بما فيهم شخصي، كما لم تعد لي رغبة في النشر النهائي. فإنني أضع نفسي دون تحفظ تحت تصرفك،

وبين يديك، وطوعاً لقدرتك، ووقعت في نهايتها، المطيعة لك: ماري بيكفورد، وقرأتها هاتفياً على مستر زوكور، ثم أرسلتها إلى هوليوود. وشعرت أكثر من أي وقت آخر بأنني أزحف تحت السرير مع فرنسيس ماريون .

كانت الأسابيع التالية عبارة عن محنة قاسية بشعة لحياة عائلية شقية وقلق واضطراب شديدين على مستقبلي الفني. فقد كنت لا أزال أعيش مع اوين على الرغم من حالتنا الصعبة، ووضعنا الذي لا يطاق. ولم يكن لي أصدقاء خارج الأستوديو، وكان التسابق إلى العمل غير المحدود، يعد نعمة لي من عدة وجوه، غير أنه كان في نفس الوقت عبئاً ثقيلاً يجثم فوق صدري خوفاً من حدوث أي خطأ مهما كان تافهاً بسيطاً، وأخذ اليأس يلفني بشعور غامض قاس لا يرحم، ووحدة قاتلة، وإقامة مزعجة في فندقي ربما كان ذلك الحادث في شدة وطأته، آخر سلسلة من آلامي، لقد كنت في نزاع دائم مع اوين، ولم يرد خبر من دي ميل، كما أن مستقبلي الفني كان معلقاً بالميزان وكنت ذلك اليوم مضطربة لا يهدأ لي بال وأنا أنظر من نافذتي في الطابق التاسع بين فترة وأخرى، وشعرت كأن أرض الشارع المغطاة بالثلج تجذبني إليها، فنفذ صبري وضاق، فصرخت أنادي أمي، التي كانت تقف دائماً إلى جانبي في ألم صامت دون أن تتدخل.

صرخت بأنني في حاجة إليها، ورجوتها أن تأتي إلي في الحال، ولابد أنها شعرت بما يختلج في نفسي، فأجابتني بجفاء قاس أليم قائلة :

– ألا تجرئين على القيام بعمل مهما كان تافهاً دون وجودي، هل تسمعينني؟

– نعم يا أماه.

سأحضر قبعتي ومعطفي وأخرج حالاً .

وحين حضورها إلى غرفتي رأت شدة الرعب الذي يسيطر علي فطلبت الطبيب حالاً .

وبعد أن فحصني قال :

– إذا لم تبتعدي بالفتاة عن هذا المكان وعن زوجها، فإن أقل ما يصيبها هو انهيار عصبي تام .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت أمي إلى مستر زوكور وأخبرته بكل شيء. قالت :

– هذا ما قرره الطبيب بالحرف الواحد، وهذه هي الحالة على حقيقتها.

أجابها : سنأخذها إلى الشاطئ يا مسز بيكفورد، وسنعمل منها ماري بيكفورد جديدة.

ثم أخبرني مستر زوكور أن مستر دي ميل يريد أن يخرج من تمثيلي بعض الأفلام على الشاطئ .

تركت قافلتنا المؤلفة من والدتي وشقيقتي لوتي وطفلها وأخي جاك، نيويورك في يناير عام ١٩١٧، لتقيم مؤقتاً في كاليفورنيا التي أصبحت بعدئذ مسكننا الدائم .

كنت مرتبطة مع سيسيل ب. دي ميل بتمثيل فيلمين، الأول اسمه (قصة الغابات الحمراء) والثاني (الأميركي الصغير). وتدور قصته حول غرق الباخرة لوزيتانيا .

لقد كنت ولا أزال أعتبر العمل مع مدير لامع وشخصية فذة كسيسيل ب. دي ميل شرفاً عظيماً ولا أستطيع هنا أن أصف الأثر الذي تركته مساهمته بفن السينما في تطور ورفع مستوى التمثيل السينمائي. كما أنني أقدس ذكرى الصداقة التي دامت بيننا كل هذه السنين .

في الوقت الذي أكتب مذكراتي هذه كنت أخاف من المخرج سيسيل دي ميل لدرجة لا أستطيع معها الضحك أو البكاء. ولا أذكر أنني قضيت لحظة سعيدة خلال المدة التي كنا نعمل فيها لإخراج فيلم (قصة الغابات الحمراء) ولا شك أن تلك البرقية المهينة التي أرسلتها له كانت هي سبب تعاستي

ومصدر ألمي فلقد عشت تلك الأسابيع (مدة العمل في الفيلم) وكأنني ضمن إطار من الحديد. ثم كانت أعظم مفاجأة في حياتي، حين استيقظت في صباح يوم من أيام آذار (مارس) عام ١٩١٧، لأجد سيلاً من البرقيات، عددها خمس وعشرون برقية، يعرب مرسلوها بصور مختلفة عن غبطتهم وسرورهم، بذلك الفيلم الكوميدي الفاضح، (فتاة غنية صغيرة) الذي لاقى نجاحاً ساحقاً، وتلقيت ثلاثاً وعشرين برقية أخرى، كان أشدها حماساً، برقية مستر زوكور .

وكان من جراء هذا التحول الواضح للأمور أن اعتليت ظهر حصاني مرة أخرى، وأخذت أطارد في الاتجاهات الأربعة، كما قال ستيفان ليكوك مرة، ووجدت الفرصة سانحة فطلبت مرة أخرى أن تعين فرنسيس ماريون مساعدة لي ومارشال نيلان مديراً. واشتركنا معاً في أول فيلم وهو (ربيكا فتاة الجدول المشمس)، وسهل لي هذا الفيلم وفيلم (فتاة غنية مسكينة) استعادة مكانتي الأولى .

الفصل الرابع عشر

في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، عشية يوم الهدنة الكاذبة، قررت أن أفترق أخيراً عن ادولف زوكور، بعد أن اختلفت آراؤنا في العمل. وكنت قد عزمت على إيجاد طريقة ما لتوزيع أفلامي منفصلة عن الأفلام الأخرى. فسعيت لتأسيس شركة مستقلة لتحقيق ذلك الغرض .

قال لي مستر زوكور، عندما طرقت الموضوع :

– إنها خطوة خطرة يا ماري العزيزة، إنك ستكونين غريبة في عقر دارك.

– هذا هو الحل الذي اخترته .

وعندما عرضت علي شركة (فيرست ناشيونال) أن أستقل تماماً في توزيع أفلامي. قابلت مستر زوكور للمرة الأخيرة، بعد أن قررت أن أتجاهل جميع المثيرات والمكدرات الأخرى فأبقى معه إذا منحني استقلالاً مماثلاً في التوزيع .

قال لي : سوف أخبرك عن رأيي يا ماري، وأرجو أن تفكري في الأمر ملياً أثناء تناولك طعام الغداء، وبعدها يمكنك أن تخبرينني إذا كنت لا تزالين مصرة على رأيك .

وقد وافقت على اقتراحه. وعلمت فيما بعد، أنه بعد أن تركته وذهبت

مع أمي، قال له أحد اخصائه : دعها تذهب إلى فيرست ناشيونال وأنا أضمن لك أن تنجز جميع الأعمال التي تنفخ رأسها. وسيكون التحاقها بشركة فيرست ناشيونال سبباً في خراب تلك الشركة وستعود مطأطئة الرأس صاغرة. وعندما رجعت مع أمي بعد تناول الغداء بدأ مستر زوكور الحديث.

قال : أنا آسف يا ماري. فأنا لا أستطيع أن أقدم لك ما قدمته شركة فيرست ناشيونال.

– وأنا لا أستطيع أن أعبر لك عن مقدار أسفي لذلك يا مستر زوكور .

– حدثيني هاتفياً بعد عودتك من زيارة، فيرست ناشيونال، يا ماري العزيزة .

فأخبرته بأنني سأفعل ذلك. وكان هذا الحديث بمثابة وداع أخير لأحد أفراد عائلتي. وبعد بضع دقائق جديداً مع فيرست ناشيونال وصافحت مستر ويليامز أحد أصحاب الشركة. ثم عدت إلى الفندق وطلبت مستر زوكور بالهاتف .

– مستر زوكور ؟

فأجابني صوت ضعيف، وكأنه آت من مكان سحيق : «نعم» .

– لقد اتفقت مع شركة فيرست ناشيونال و..

وأعقب ذلك سكوت طويل، ولا أعلم ما إذا كان يبكي، فطلبت منه أن يعفو عني لأنني لم أستطع متابعة الحديث.

– ليرعاك الله يا حبيبتي، أتمنى لك السعادة التامة والرفاه .

وتوقف لحظة ثم تابع حديثه :

– الآن وقد تركتني يا ماري العزيزة، أحب أن أفضي إليك بشيء – شيء أردت أن أقوم بعمله منذ زمن طويل. سأدير ظهري إلى صناعة النجوم وأشرع ببناء عدد من الصالات في طول البلاد وعرضها.

وبدأ بمشروعه فعلاً، بعد أن تركت البارامونت. فقد شعر أننا نشأنا

معاً، هو كمنتج وأنا كنجمة. ولما كان ميالاً إلى التطير، فقد كان يشعر أنني أنقذته وشركته عندما مثلت فيلم «تس في بلاد العواصف». وكان في ذلك الشعور ما يفوق الحب الأبوي، لأنه اعتقد أن رحيلي سيؤثر على مستقبل شركة بارامونت، فاتجه ذلك الاتجاه .

وبينما كنت أدخل مع مستر زوكور صالة سينما بارامونت الفخمة في نيويورك قال لي:

– كيف ترين بنايتك يا ماري ؟

– لا أفهم ما تعني يا مستر زوكور

– لقد تسببت أفلامك في إشادة هذا البناء .

شعرت بالتعاسة عندما تذكرت ذلك، وما جرى في الحديث الهاتفي مع مستر زوكور، وقد خيل إلي أن ما أصبته من الكسب وما اعتقدت أنه ميزة في الاتفاق الجديد يعد تافهاً عقيماً بجانب ما خسرته من انفصالي عن رجل كان لي بمثابة أب طيب، وصديق وفي. لقد كان انتصاراً مزيفاً لا يختلف كثيراً عن أي انتصار شكلي، يعقد لحفظ كرامة محارب، أو كالهدنة المزيفة التي حدت بالجماهير لتندفع في اليوم التالي، وهي تجوب شوارع المدينة .

أخذت أراقب من نافذتي نيكربو كر ذلك الخضم المتلاطم، والكتل المتراصة من الناس وقد عمهم الفرح، فساروا يتدافعون بالمناكب وهم يجتازون الشارع الثاني والأربعين، وجموعهم تموج كسنابل القمح في مهب الرياح. ورأيت نساء المجتمع المترفات يجلسن فوق سياراتهن الليموزين، وقد عانقهم الجنود والبحارة، بينما كان الناس يهتفون ويلوحون بأيديهم، ويقفزون في الهواء فرحاً وابتهاجاً. وظهر من نافذة أحد الطوابق العليا فجأة وجه مستدير مشرق أخذ يشدو بأغنية رائعة، بينما ظهر في نفس الوقت وجه آخر من إحدى النوافذ المنخفضة لينضم إليه فتصدح الأصوات في أروع ترتيل مؤثر سمعته في حياتي من الأناشيد الوطنية الايطالية والأميركية، وكان

المغنيان هما انريكو كاروزو، ومواطنه وزميله في الميترو بوليتان انطونيو سكوتي. وقد ارتفع صوتاهما العذبان الشجيان من علو عشرة طوابق في مواكب الكرنفال الصاخبة التي كانت تجتاز الشارع وكنت أنا وأمي واثنان أيضاً من نزلاء الفندق نستمع لهذه الحفلة الموسيقية المرتجلة .

عدت في يوم الهدنة الحقيقية في القطار إلى الشاطئ مع الكاتبة اغنيس كريستين جونسون وفي خلال تلك الرحلة التي استغرقت أربعة أيام قمنا بإعداد حوار فيلم «أبي ذو الساقين الطويلتين» وهو من الأفلام التي نالت نجاحاً باهراً وقد كانت إحدى قصتين أخذتهما أمي إلى شرق البلاد لكي تعرضهما للبيع. أما القصة الثانية فكانت «بوليانا» .

وإذا صحت نظرية تقمص الأرواح، وعدت مرة ثانية لأتقمص أحد أدواري. فإن القدر المنتقم سوف يرجعني إلى الأرض متقمصة شخصية «بوليانا – الفتاة المسرورة» .

وأذكر أثناء تمثيل هذا الفيلم عام ١٩١٩، أنني سئمت بوليانا في الأسبوع السابع أو الثامن من العمل حتى انتهى بي الأمر إلى التمرد. فقلت في نفسي : إن هذه الشخصية الصغيرة القديسة، أطهر من أن تكون حقيقة واقعة. ولم أجد في الحوار ما يدل على أقل زلة من القديسة في الأسابيع القادمة وأفزعني تخيل منظر هذه الطيبة،، ثقيلة الظل. ثم سنحت لي أخيراً فرصة التمرد، فبينما كانت الكاميرا تلتقط صور الفيلم، التقطت ذبابة ووضعتها على كفي، وأنا أقول: «أيتها الذبابة الصغيرة، هل تريدين أن تصعدي إلى السماء ؟» ثم صفقت بيدي عليها وقلت: «لقد صعدت الآن» .

وبقي حادث الذبابة في الفيلم على الرغم من عدم وجوده في الحوار ومع أنني كنت أعتبر «بوليانا» فيلماً مملاً، فإن الجمهور لم يكن من رأيي فبرهن تهافته على حضوره، إنه من أنجح أفلامي، كما أنني لم أتمكن من إدراك السبب الذي جعله محبوباً لدى الجالية الروسية بشكل خاص .

وبينما كنا نلتقط مشهداً من «بوليانا» في محطة السكة الحديدية في

بازادنيا، سمعت طفلة تدلي بملاحظة لم أنسها بعد ذلك أبداً، كانت تلك الطفلة في السابعة من العمر، وواحدة من كثيرين كانوا يقفون أثناء التقاطنا ذلك المشهد : قالت بوضوح وسرعة خاطر : هذه ليست طفلة حقيقية يا أماه إن أظافر يديها طويلة، ولا حاجة لي أن أقول أنني أعملت المقراض في أظافري حالاً ولقد صدقت الطفلة في قولها، إذ كان تمثيل دور فتاة صغيرة إحدى المشاكل العويصة التي تواجهني وخصوصاً عندما يأتي الأطفال إلى الأستوديو ولو أني كنت على علم سابق بقدومهم، لارتديت ثياباً قصيرة تصلح لتمثيل دور فتاة صغيرة حتى لا يخيب أملهم. ولكنهم كانوا يفاجئوني في أغلب الأحيان، وأنا أرتدي ثياب النساء وضفائري ملتفة على رأسي .

ولم يمض وقت طويل على الانتهاء من فيلم «بوليانا» حتى شهدت تحقيق أعز أمنية لي كنت أرنو إليها، ألا وهي تأسيس شركة (الفنانين المتحدة) يونايتد ارتيستس. فقد كنت على الرغم من الاستقلال والحرية اللتين قدمتهما لي شركة الفيرست ناشيونال، لا زلت أشعر أن باستطاعتي أن أؤسس إدارة تعمل على الإنتاج والتوزيع بشكل مستقل. وأسرع في إبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود ما نشرته الصحف التجارية من أن الرجال المسيطرين على صناعة السينما يفكرون في تخفيض أجور الممثلين .وعندها قررت أنا ودوغلاس فيربانكس وشارلي شابلن وغريفيت أن نترك أشهر الشركات لنصبح أسياد أنفسنا. وعندما انتشر الخبر قال أحدهم : لقد أصبحت هذه المصلحة بين أيدي المجانين .

الفصل الخامس عشر

كنت أشعر دائماً أن لقائي بدوغلاس فيربانكس كان مقدراً منذ الأزل على الرغم من أني لم أكن أمارس أي نوع من الحياة الاجتماعية بعد ساعات العمل. لأنه لم يكن لي أصدقاء سوى أولئك الذين كانوا يشاركونني العمل الفني. وغني عن القول، أنني وأوين لم نكن نخرج معاً إلا نادراً لأننا ما كنا على وفاق .

ولقائي مع دوغلاس فيربانكس له قصة، فقد حدث أن دعتنا السي جانيس في أحد الأيام الباردة الكئيبة من نوفمبر عام ١٩١٥، لزيارة قصرها التاريخي Philips Manor .

فأخذنا طريقنا إلى تاريتاون وجلست مع أوين في المقعد الخلفي لسيارة الليموزين السوداء، وفي طريقنا وعلى بضعة، أميال من تاريتاون، مرت بنا سيارة مكشوفة غريبة، فلمحت في المقعد الخلفي زوجين يضعان فوق ركبهما رداء من جلد النمر الأرقط، ولكن لا السيارة الزاهية ولا الرداء المختلف الألوان قد حاز إعجابي. أما سائقنا فلم يكن واثقاً من الطريق، فأمره أوين أن يوقف السيارة في مفرق الطرق التالي. وشاء القدر أن يجعل منه مفترق طرق حياتي أيضاً، وعندما وقفت سيارتنا ونزل منها أوين كانت السيارة الغريبة قد وقفت إلى جانب الطريق، ونزل منها شاب خفيف الحركة سرعان ما تعرف إلى أوين، ورأيتهما يتصافحان وقد أشرقت أسارير وجهيهما. ثم

اتجها نحو سيارتنا. وقال أوين : يسرني أن أقدم إليك دوغلاس فيربانكس .. هذه زوجتي ماري يا عزيزي. أما زوجة دوغلاس فلم أتعرف عليها، إلا بعد أن بلغنا قصر فيليبس .

لقد رأيت دوغلاس مرتين من قبل، الأولى عندما ظهر في برودواي في مسرحية اسمها «سيد في عطلة» والثانية في أول فيلم له «برتي الوديع». الذي بلغ بواسطته درجة النجوم، وأصبح يتناول أضخم مرتب (من شركة ثريانكل) في المحيط السينمائي .

في ذلك اليوم الموحش الممل من نوفمبر، يوم وصولنا قصر فيلبس تجمع من أصدقاء مضيفتنا السي جانيس وأمها كثير من الممثلين، فتبادلت التحية مع عدد كبير منهم وعلى كثرة الحضور، كنت أشعر بكآبة وضيق شديدين، فانسحبت إلى إحدى زوايا المنزل، وجلست أقرأ في مجلة للأزياء. ومن حين لآخر كنت ألقي نظرة على تلك الجماعة الصاخبة فأشعر باستهجان شديد لتصرفات فيربانكس القوية. كما لم أشعر ولو بالسعادة من تصرف السي إذ كانت تغازل كل رجل تقع عينيها عليه، وسمعتها تصيح فجأة وهي تهبط درجات السلم :

تعال يا دوغ ! تعال يا أوين ! تعالوا بنا نتنزه مشياً على الأقدام، ثم نظرت إلى مسز فيربانكس وإلي وقالت، أظنكما يا فتاتي لا تمانعان في أن أسرق زوجيكما لبضع دقائق ؟

وخرج أوين ودوغلاس معها كصبيين خبيثين. فقلت لمسز فيربانكس : تعالي، لنخرج نحن أيضاً فنتبعهم، فعلينا أن لا ندعها تبتعد بهما كثيراً. وكانت السي وأوين ودوغلاس، قد ابتعدوا مسافة عندما تبعتهم مع مسز فيربانكس. وبعد بضع دقائق رأيتهم يختفون فوق رابية وهم يهبطون أحد المنحدرات، فقلت : لنسرع ورائهم .

غير أن مسز فيربانكس احتجت بشدة البرد، وقررت أن تعود إلى

البيت، ولكني لم أغير رأيي فتابعت سيري لوحدي، فلحقت بهم وقد قطعوا أحد الجداول، وكانت تصل بين ضفتيه كتلة من الخشب وما كدت أضع قدمي عليها بحذر حتى صرخت السي من الضفة المقابلة :

– ستتلفين حذاءك الجديد

فقاطعتها صائحة : ما قيمة ضياع زوج من الأحذية أمام ضياع زوجي ؟ كنت أرتدي آنئذ ثوباً مخملياً أسود من الطراز الروسي له تنورة ضيقة وبلوزة من الساتان الأبيض، وحذاء روسياً جميلاً جديداً. وحينما كنت أحاول اجتياز كتلة الخشب بتمهل لما أرتديه من هذه الثياب الجميلة، كان الهاربون الثلاثة قد اختفوا خلف المنعطف .

وما أن خطوت بضع خطوات فوق كتلة الخشب حتى تسمرت في مكاني لشدة الرعب، لقد أيقنت أنني لن أنتهي من رحلتي هذه دون أن أقع في أحد جداول الماء البارد، غير أن الأحداث تتالت بسرعة عجيبة وكان ما حدث يعد من صفات دوغلاس النموذجية، فقد شاهد مقدار الذعر الذي استولى علي، فأسرع إلى إنقاذي. وقد أحسست بالراحة والاطمئنان عندما رأيت ابتسامة ارتسمت على وجه ذلك الصديق، وحين اقترب مني سألني عما إذا كنت أمانع في قبول مساعدته .

فأجبته بصراحة بعد أن رأيت أنه عازم على إنقاذي : لست أمانع أبداً بل أرجو أن تسارع. وسارع إلى حملي بين ذراعيه كطفلة صغيرة وعاد بي إلى الجانب الآخر، حيث انضم إلينا أوين والسي .

لم أفكر بهذا الحادث على ضوء الخيال والعاطفة في ذلك الحين على الأقل، كما أن دوغلاس لم يفعل ذلك على ما أعتقد، فقد كان ما قام به شيئاً عادياً يمكن لكل رجل أن يقوم به تجاه أي امرأة تقع في مثل هذا المأزق الحرج. ولا أذكر أن ذكرى ذلك الحادث عاودتني بعد هذا اللقاء. لقد دفنت نفسي في عملي ألهو بنفسي، ومع ذلك فلم يخالج ضميري ولا طرأ في

مخيلتي شك في إمكانية وقوعي في الحب مرة ثانية، ناهيك عن اعتقادي أن الزواج السعيد هو من خيال فتيات المدارس، فقررت أن أتحمل عقاب الزوجية بابتسامة فاترة. لقد بنيت مستقبلي على عملي فهو عزائي، وحصني العالي، فهناك أحيا برغد لا يستطيع أحد أن يزعجني أو يؤذيني. والتقيت بدوغلاس للمرة الثانية، وكنت حينذاك أقيم في فندق نيكربو كر، في نيويورك، أما هو فكان يقيم في فندق الغونكين. وكان صاحب الفندق فرانك كيز صديقه الحميم وقد أصبح هو وامرأته بعد حين من أعز أصدقائي أيضاً، وحدث أن أقام حفلة راقصة دعيت إليها، فقبلت الدعوة خلافاً لعادتي وركبت السيارة مع دوغلاس إلى الفندق حيث جلسنا في ردهته نتجاذب أطراف الحديث عن الفن والسينما، فسألني :

– هل تعلمين من الممثلان البارزان في التمثيل الصامت ؟

ودهشت عندما سمعته يذكر اسمي واسم شارلي شابلن، ولكنه استطرد في حديثه قائلاً: حقاً إنك قد سيطرت على هذا الفن وعملت الكثير في تركيز وتوضيح واختصار الإشارات .

واتبع قائلاً بمرارة وبأسلوب صريح:

إنني على ثقة بأن اختصارك للإشارات جعل تعبيرك أقوى وأوضح من غيرك من الممثلين.

ظننت في بادئ الأمر إنه يهزأ بي أو يمزح معي، وصارحته بظني قائلة :

إنني لم اعتد سماع مثل هذه الآراء. أما أوين فكان على العكس يحاول دائماً أن ينقص من قيمة عملي ويقلل من أهميته، بدلاً من الإشادة بقدرتي ونبوغي، والحق أن ثناء دوغلاس منحني حياة جديدة، إذ أني بقيت أياماً عديدة أنعم بترديد كلماته كلما خلوت لنفسي فيرن صداها في أعماقي فتتبدد الظلمة التي كانت تغمرني وينبلج أمامي فجر يحيي في ميت الآمال.

كيف أستطيع أن أفسر تأثير شخصية هذا الرجل وحيويته الهائلة وحماسته التي هي أشبه ما تكون بحماسة الأطفال ؟ يجب على المرء أن يتعرف على دوغلاس ليتحقق من حيويته الجارفة ونشاطه الخارق، كان يفتتن بالناجحين من الناس ويفتنهم به. فيبحث عنهم وينقب عن إخبارهم لا لأنه كان حديث عهد بالنعمة، بل لأنه كان يهتم بالطريقة التي يشيدون بها شهرتهم ومجدهم وبتأثيرهم عليهم. وما كان لأحد أن يدرك انجرافنا في الحب بعد لقائنا مرتين، ولكن عندما تكشفت الحقيقة لنا، كان الوقت قد فات فلم نجد سبيلاً لإنقاذ وحدتنا وحزننا والتخلص من أضواء الدعاية رغم كفاحنا طويلاً وهروبنا من بريق تلك الأضواء مراراً، وعلمت أمي ووالدة دوغلاس بحبنا وكانت معاملتها ملؤها الحب والحنان .

طالما حاولت تجنب الذهاب إلى الأمكنة التي يمكن أن ألتقي فيها بدوغلاس فأنتحل الأعذار لنفسي واتصل بوالدته بواسطة الهاتف، أو أقوم بزيارتها في اليوم التالي. لقد كان سماع صوتها أو التطلع إلى وجهها يهدئ من روعي ويبعث في نشوة ذكرى حبي له .

كانت والدة دوغلاس سيدة نحيفة جميلة مرحة، وهي من سلالة ايرل نوتينغهام من فرجينيا، وكان دوغلاس أملها في الحياة ومبعث سعادتها حتى يوم وفاتها، فقضت نحبها قبل أن يتمكن ابنها من العودة إلى نيويورك حيث كان في كاليفورنيا. وكان الدمع قد جف من عينيه عند عودته فلم يستطع أن ينفس عن نفسه فقلق عليه جميع أصدقائه، وأرسلت أعزيه برسالة قصيرة، وحين وصلته في اليوم التالي اتصل بي هاتفياً ورجاني أن أسمح له بمقابلتي لبضع دقائق، فركبنا سيارتي واتجهنا إلى السنترال بارك، ولما استكان إلى عطفي عليه وتقدري لمصابه أخذ يتكلم عن والدته. وا رحمتاه له كم كانت عزيزة عليه. إن العواصف العاتية والبراكين الثائرة التي تجمعت في صدره، انفجرت أخيراً، فأخذ يجهش بالبكاء بحرقة ومرارة حتى جف الدمع في عينيه. ولم نتحدث عن أنفسنا بل انحصر حديثنا في الكلام عن أمه التي يبدو

أن موتها كان سبباً في ازدياد أواصر الود بيننا، ولدى عودته أخيراً من كاليفورنيا إلى نيويورك، التحق بعائلته وأقام معها .

كنت أعمل في ذلك الوقت مع شركة بارامونت عندما انضم إلى تلك الشركة في ربيع عام ١٩١٧. ومع أننا كنا نلتقي في الأستوديو بين حين وأخر، إلا أننا ظللنا نقاوم ونجاهد الأمر المحتوم، ولكن دون جدوى، وفي خلال ذلك انفصلت عن أوين، وأقمت مع والدتي وأخوتي.

ولم يكن لدوغلاس ولا لغيره أي علاقة بهذا الانفصال، بل إن أوين هو الذي سعى إلى ذلك بنفسه. ومن الطبيعي أن ميلاً شديداً كالذي كان بيني وبين دوغلاس لا يمكن أن يبقى طي الكتمان إلى النهاية، وعليه فقد قال لي أوين يوماً : إن له الحق في أن يعلم كل شيء مادام لا يزال زوجاً لي، مع أننا كنا قد انقطعنا عن الحياة الزوجية منذ وقت طويل فأخبرته بالحقيقة فسألني عما سأفعله في هذا الشأن؟ فأجبته بصراحة بأنني لم أقرر عمل شيء.

وفي خريف عام ١٩١٨ عزم دوغلاس وزوجه (بيث) على الانفصال وقد حصلا على الطلاق بسرعة وتزوجت زوجته ثانيةً بعد وقت قصير.

كنت دائماً أتبادل مع بيث (زوجة دوغلاس) الاحترام والود، ولم يكن بيني وبينها أسى أو ضغينة، كما لم يكن بينها وبين دوغلاس شيء من هذا أيضاً.

وعلى الرغم من شدة حبي وشعوري بحاجتي لدوغلاس، فقد مر عام على انفصاله عن زوجته، كنت لا أزال خلاله ضد فكرة الطلاق من زوجي، فقد كنت ولا أزال أنظر إلى الطلاق كنوع من البتر، يجب تجنبه على حساب سعادتي وسعادة الرجل الذي أحبني. وكانت تلك الفترة فترة قاسية مملوءة بالتردد. ومع أني افترقت عن أوين. فلم يخامرني الشك بالشعور بوجوده، مما يدل على سيطرته وتحكمه في بشكل ما. ثم حان لقاؤنا الأخير الذي نقش في رأسي بأحرف من نار، حين جاء إلي فطلب مني أن نتصافى وقال :

– سأكون لطيفاً مع أمك إذا سمحت لي بالعودة إليك يا ماري !

– إن أمي ليست بحاجة إلى لطفك ولا إلى لطف أحد آخر، وأنا مازلت على قيد الحياة، ومع ذلك فقد تأخرت كثيراً، إذ مضت سنوات طويلة قبل أن تفكر في التحدث بهذا الموضوع يا أوين .

وإنني على ثقة من أن أوين قد تغاضى عن الدموع التي كانت تنحدر على خديه، وياقته البيضاء، فنسيها أو تناساها عندما أخبرته أن كل شيء بيننا قد انتهى. فقلت:

– إنني أريد الطلاق يا أوين.

– فانقلب عند سماعه كلماتي إلى وحش وصرخ :

– ساعديني يا ماري، في المرة التالية عندما يقع نظري على دوغلاس فيربانكس فسأقتله لا محالة .

فقلت له بهدوء : إنك لن تفعل شيئاً من ذلك يا أوين. ومع ذلك فقد استولى عليّ خوف شديد فقد كنت أعلم أنه إذا سكر فقد السيطرة على نفسه. فالتجأت إلى إثارة شعوره لإنصافي. وقلت :

– لماذا تحقد عليه يا أوين ؟ ألم تنبذني مرة بل عدة مرات قبل أن أتعرف عليه ؟

– لن أقبل بذلك يا ماري : خذي عليّ عهداً أنني سأقتل ذلك القرد المتسلل، أفهمت ؟

وفي الحال اتصلت هاتفياً بدوغلاس لأحذره من تهديد أوين، فضحك وقال لي ؟ إنني أستطيع حماية نفسي يا عزيزتي، فلا تهتمي بهذا الأمر. وإني أتمنى دوماً لو تسنح لي فرصة بأن ألقاه وأحاسبه عما فعله معك طيلة السنين الماضية .

وعلمت أن أوين كان يحمل مسدساً بالفعل، ويهدد بقتل ذلك «القرد المتسلل» عند رؤيته .. ومع ذلك، فلم يحاول دوغلاس تجنبه، لأن ذرة واحدة من الجبن لم تكن في نفسه. ثم انفجرت القنبلة، وكانت أكبر الإهانات وآخرها.

أعلمني أوين بواسطة محاميه، أنه مستعد لقبول الطلاق لقاء حصوله على ثمن. لقد قضى بخطواته الأخيرة على كل ما بقي له عندي من شفقة وحنان، فزال الوهم عني تماماً، وعلمت كما لم أعلم قبلاً، أن أي حل يقل عن الطلاق يصبح عذاباً قاسياً لا فائدة منه، وأنه يجب علي أن أمحو الخطأ المرير الذي نغص حياتي وعملي دفعة واحدة. وقد استشرت والدتي، فوافقت على أنه لا يوجد حل وسط، وذهبت إلى البنك في لوس انجلوس، وخرجت منه تحمل بيدها رزمة من الأوراق المالية. ثم ذهبت بها دون جميع الناس إلى والدة أوين، وأظن أن أمي أخبرتها بما في الرزمة، لأن مسز مور أبدت الملاحظة الوحيدة التي لا تدل على أقل عداء نحوي :

– أوه .. دون شك، يجب أن يحصل أوين المسكين على تعويض

يا مسز بيكفورد، وكانتا كلاهما حائرتين، أما مسز مور فكانت أكثر من أمي ارتباكاً نظراً لشدة محبتها لي .

وتلا ذلك فترة توتر وضيق شديدين، كان يزعجني أنني اضطررت إلى شراء حريتي بالمال الذي كسبته من عرق الجبين، والخطر من أن يبلغ الصحف خبر هذه الصفقة التافهة، وعندها سيظن الرأي العام أنني دفعت ثمن خلاصي من زوجي لأحصل على زوج آخر، وكان انفصالي عن أوين وطلاقي منه يبدو مخزياً معيباً، لقد ذهبت أمي منذ عام لتشتري لنا بيتاً أعجبها في ناحية نيفادا. وكنت أنوي قضاء العطلة في كل يوم في ذلك المكان، وأصبحت أعتبر نفسي أحد سكان الولاية، إلا أن القانون كان يحتم على من يريد أن يحصل على الطلاق في تلك الأيام أن يقيم ستة أشهر في تلك الولاية. لهذا ذهبت مع أمي ومحامي العزيز دنيس أوبراين، لنعيش في إحدى مزارع بلدة جنوا، بالقرب من ميندن، ولا يستطيع أحد أن يلوم المزارع أو زوجته إذ ظنا أن طالب الطلاق هو أمي أو مستر أوبراين لأنه لم يدر بخلدهما أن هذه المخلوقة الصغيرة ذات الضفائر الشقراء المدلاة على ظهرها متزوجة. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذناها، فقد تسربت

الأنباء عن وجودي في نيفادا إلى رهط من الصحفيين، فانطلق حولي عدد منهم فقررت أمي ومستر أوبراين أن ننتقل بسرعة، فتسللنا إلى ميندن بعد أن اختبأنا في المزرعة ثلاثة أسابيع، ولم أشعر طيلة حياتي مثل شعوري في تلك الأيام، لقد شعرت بأنني أشبه حيواناً يطارده الصيادون. وعندما حصلت أخيراً على الحكم بالطلاق في مارس عام ١٩٢٠، عاهدت نفسي أن أنتظر عاماً كاملاً قبل أن أقدم على الزواج من دوغلاس. وحين تمكن رجال الصحافة من الوصول إليّ، أخبرتهم بكل إخلاص، إنني لا أنوي الزواج في القريب العاجل، ولسوء الحظ، لم أكن أعرف دوغلاس حق المعرفة، فهو محامٍ قدير، وله مقدرة على الإقناع عظيمة، كما أنه لا يعرف الكلل عندما يقرر القيام بعمل ما. وقد أخذ يجادلني، ويدافع عن رأيه، ويغدق الثناء علي بدون حساب، وكانت جميع القوى الفردية المجتمعة في هوليوود منظمة ضدنا. لقد أنذرونا أن أفلامنا ستفشل، وإن دخل أفلامنا سيهبط هبوطاً فاحشاً، وإن كرامتنا، التي كسبناها بشق الأنفس، ستدفن تحت أنقاض الانهيار الناتج عن الثرثرة الخبيثة والتشهير بنا .

وعندما طلبت من والدتي إن ترشدني إلى ما يجب عمله وأن تأخذ بيدي وتوجهني من خلال هذه الأزمة قالت لي ببساطة : أن الوقت قد حان لتنهلي من منابع السعادة وتتمتعي بحياتك الخاصة. وشجعني أخي وأختي على الزواج مع أن النتائج المتوقعة قد تؤثر على مستقبلهما أيضاً .

وعندما اقتنعت أخيراً بوجهة نظرهما، ونظراً لأن حب دوغلاس قد سيطر عليّ، أردت أن أكون صادقة مع نفسي بعد زواجي الأول الزائف التعس. ولا زلت أذكر الحديث الأخير الذي دار بيني وبين دوغلاس قبل الزواج من، لقد قال لي :

– أن الناس يا ماري لا يعلمون الحقائق عن حبنا والآلام التي تحملناها ليعثر أحدنا على الآخر. ولو علموا هذه الحقائق لباركوا زواجنا دون شك.

فأجبته : وماذا سيكون موقفنا إذا لم يوافق الناس. هل يبقى حبك لي قوياً جارفاً ؟ وإذا فقدنا عملنا نحن الاثنين، فهل سيكون حبنا مصدر سعادة لنا في المستقبل ؟.

قال: إنني لا أستطيع أن أجيب عنك يا ماري، غير أنني أعلم أن شعوري نحوك ليس وليد هذه اللحظة، وليست له علاقة بعملك أو شهرتك، أو بما يشعر به الناس نحوك. إنني أحبك لشخصك فقط.

وفي ٢٨ مارس تزوجت دوغلاس في حفلة هادئة في لوس أنجلوس على يد صديقنا الطيب القس الدكتور هوايتكوم بروغر وفي بيته. ولم يحضر الحفلة إلا أفراد عائلتينا وبعض الأصدقاء. وعدنا لتناول عشاء العرس في بيت دوغلاس في تلال بيفيرلي، وهو بيت جميل أصبح مقري الدائم، وأطلقت عليه الصحف اسم «بيكفير» وعاش فيه دوغلاس وحيداً مدة عام تقريباً. قال لي عندما وصلنا : أقدم لك يا ماري، هذا البيت هدية الزواج.

فأجبته : كلا يا دوغلاس، أحب أن أشعر أنه بيتك، وأنني أقاسمك إياه. كنت أظن أن زواجنا بقي سراً مدة ثلاثة أيام، عملت خلالها علىّ إنهاء تمثيل فيلم يدعى «غسالة الصابون» أما كيف بقي الزواج سراً في تلك المدة فلأنني كنت أغطي خاتم الزواج بقطعة من الشريط المعقم ألفها حوله، إلا أنني لم أخدع أحداً من أفراد الشركة بهذه الحيلة، وما لبثت القنبلة أن انفجرت فنشرت الصحف خبر زواجنا بأحرف كبيرة في الأعمدة الأولى من صفحاتها كما نشرت القصة العاطفية الطويلة التي مهدت لهذا الزواج وأخيراً، الانعكاسات الدنيئة في قضية طلاقي ..

لا يسوء المرء طبعاً في أيامنا هذه، أن يخرج من الطلاق، ليدخل الكنيسة مباشرة. أما في ذلك الزمن فكنا ننظر إلى الطلاق نظرة مفزعة كما لو كان مخيفاً مرعباً .

بدأ مخبرو الصحف ومحرروها والمصورون يطاردونني وينثرون

الأسئلة عن شرعية ما فعلت ومدة إقامتي في نيفادا الخ ... وكأنهم تناسوا أو تجاهلوا أنني عقدت العزم على الإقامة في ولاية نيفادا، وأنني سأنتظر عاماً كاملاً قبل أن أفكر في الزواج مرة أخرى، وقالوا أنني كنت أقسم كذباً عندما ذكرت لهم أنني قررت قضاء جزء من كل عام في تاهو. وتحدوا إخلاصي وصدقي بعناوين جذابة في صحفهم، وكان أقذرها وأكبرها افتراء إدعاؤهم بأنني على وشك أن آتي بمولود جديد.

وتساءلت الصحيفة : ما الاسم الذي سيطلق على هذا المولود إذا أبطلت ولاية نيفادا مفعول القانون المتعلق بمدة السكن ؟ هل سيصبح اسمه مور أم فيربانكس أم بيكفورد ؟

ولكي يزيدوا من تأثير وفعالية ما نشروه، فقد ألصقوا إحدى صوري على عربات الصحف، وكانت صورة كبيرة الحجم تبدو فيها الدموع تغمر وجهي للتدليل على مبلغ خجلي وندمي من تلك الخطيئة التي وقعت فيها. ولكنني نسيت أنا ودوغلاس جميع الافتراءات، أمام مظاهر الحب الشعبي الشامل الذي كنا نجده في كل مكان من أنحاء أوروبا، حيث قضينا شهر العسل بعد أن انتهينا من تمثيل فيلم «غسالة الصابون»، وبديهي أنني لم أسافر خارج الولايات المتحدة أو كندا إلا في رحلة قصيرة إلى كوبا، ولكن دوغلاس، الذي كان خبيراً بالأسفار، مهد لنا الطريق. وحين رجعنا من شقتنا في فندق (ريتز كارلتون) وعندها اطمأنت قلوبنا وأدركنا أننا لم نخسر شيئاً من السمعة والشهرة. وحين قمنا بتلك الرحلة إلى أوروبا، على ظهر إحدى البواخر أحاط بنا كثير من المعجبين، وجلهم من علية القوم .وحين أقلعت بنا السفينة أخذت ودوغلاس ندرس قصة لشارلز ديكنز تسمى «قصة طفل من انكلترا» وأذكر أنها أثارتني لدرجة جعلتني لا أستطيع النوم في تلك الليلة .

ورسخ في ذهني أنني عندما أطأ بأقدامي الأرض الإنكليزية، سأنجذب بغريزتي، وأنا مغمضة العينين، نحو الأماكن التي تشرق في ذاكرتي عن ماضي أجدادي .

ولكن لم يتح لنا شيء من هذا، فحين حططنا الرحال أولاً في فندق الريتز في لندن، رأينا من نافذتنا آلافاً من الدهماء، ينتظرون ليلاً ونهاراً في الشوارع علهم يحظون بمشاهدتنا، وشعرت أنني قاصرة عاجزة عن إظهار امتناني لهم. وكم تمنيت عندها أن أكون كجيني ليند، لأغني فأعبر لهم عما يكنه قلبي لهم من الإعجاب والتقدير .

ثم ناهيك عن جموع الصحفيين المصورين، فقد ضرب الآخرون حولنا حصاراً لم نستطع الإفلات منه، فلا عجب إذا وجدني لورد نورثكليف وزوجته، وأرتجف كورق الشجر، عندما قاما بزيارتنا في الفندق .

قال لورد نورثكليف لدوغلاس :

ما بال هذه السيدة الصغيرة ؟ إنها توشك أن تصاب بانهيار عصبي .

فأجابه : إنها لم تنم ولم تأكل منذ وصولنا .

فقلت : لقد استلمت كل أنواع العلاجات المسجلة. كان على السلطات أن تذيع بأنها منعت الاتصال بنا وقررت إماتتنا جوعاً .

فقال لورد نورثكليف : أمامكما شيء واحد، أصر على قيامكما به وهو أن تذهبا إلى موطني في جزيرة وايت، وهناك يمكنكما أن تنعما بخلوة تامة وستفيدان من الراحة والهدوء .إنني أعدكما بعزلة تستريحان إليها .

وهكذا ذهبنا إلى جزيرة وايت، وحينما استيقظت في صباح اليوم التالي في السادسة والنصف، سرت نحو النافذة بقميص النوم، ففتحتها على مصراعيها ويا للدهشة لما رأيت، لقد كان السور الذي يحيط بالكوخ مطوقاً بكتل بشرية متراصة تزدحم حوله وتنتظر بصبر عجيب منذ طلوع الفجر. وهاهم الآن يصفقون ويهتفون وينادوننا باسمينا. واستيقظ دوغلاس مذعوراً على صوت الهتاف المدوي، فأسرع إلى النافذة ليرى ما الخبر ولكننا ارتددنا إلى الغرفة وأسرعنا بارتداء معطفينا، بينما كانت الجماهير تصيح :

– اخرجي إلينا يا ماري العزيزة.

– كيف أنت يا دوغي ؟

– ألا تخرجان وتمنحاننا توقيعيكما ؟

وكنت لا أزال منهمكة بتصفيف شعري عندما عاد دوغلاس إلى النافذة وأخذ يحيي الجماهير، ولكنهم ألحوا عليه أن يتكلم، فتحدث إليهم بضع كلمات حياهم بها، وشاركته بإلقاء التحية وأنا أقف معه أمام النافذة ؟

قلت لهم : لقد غمرتني مفاجأتكم بالسعادة، وأرجو أن نستطيع أن نساهم في رد جميلكم وإسعادكم .

وكانوا منصفين تمام الإنصاف فتفرقوا بهدوء، بعد أن هتفوا عالياً، هالو أيتها الحبيبة، هالو دوغي. وتنفسنا بعدها الصعداء، ثم أخذنا بارتداء ثيابنا .

قال دوغلاس : عزلة تامة !

وانفجرنا ضاحكين، وقد نعمنا بالراحة والهدوء في جزيرة وايت. وفي المساء عندما ذهبنا لتناول الشاي كانت الجماهير أكثر ازدحاماً. وحينما ازداد ضغطهم علينا، شعرت أنا ودوغلاس أن في الجو ذكريات تغمرنا من هذا الحماس المتفجر. ولدى رجوعنا إلى المنزل قمنا بإعداد قائمة لإحصاء الخسائر، فتبين أن دوغلاس خسر جميع أزرار معطفه وصداريه، وأنني تنازلت عن حقيبة يدي وبها علبة البودرة ومنديلي كما فقدت دبابيس شعري وكان ذلك يدعو إلى السرور بقدر ما يدعو إلى الدهشة، إذ أن الناس هنا في جزيرة وايت وهم على بعد آلاف الأميال من كاليفورنيا، يعرفوننا تماماً ويحبوننا كما لو كانوا جيراناً لنا في تلال بيفرلي..

وكان صوت يهيب بي أن لا أنسى أنني في وطني، ومع هذا فقد وجدت نفس الاستقبال الحار والشعور بالصداقة في كل مكان حللت فيه، في باريس وروما والإسكندرية وموسكو وطوكيو. لقد كنا وغيرنا من ممثلي الشاشة نحظى بميزة فريدة، ذلك أننا أصبحنا مواطنين في كل بلد من العالم حيث تعرض صورنا الصامتة. وقد نبذنا هذه القومية العالمية للشاشة بظهور

السينما الناطقة. ولدى رجوعنا من عزلتنا في جزيرة وايت إلى لندن، أقام جورج غروسميث ونخبة من الممثلين البارزين في بريطانيا، حفل غداء واستقبال على شرفنا في فندق كلاريدج، وجلس دوغلاس بجانبي وغروسميث بالجانب الأخر، ومال دوغلاس ناحية غروسميث وقال:

– هل طلبتم رجالاً من الشرطة لحماية ماري ؟

فأجاب غروسميث : ألا تعلم يا عزيزي، أنك الآن في انكلترا. إن الانكليز قومٌ متمدنون لا يعقل أن يصيبوا ماري بسوء. وآمل أن تثق بما أقول، ولكن لم يطل الوقت حتى تحققت عدم صحة ذلك القول. فعند المساء وفي حدائق كينسنغتون، أقيمت حفلة في الهواء الطلق، اجتمع فيها جميع أهل الفن البارزين. ودعانا غروسميث وزملاؤه من الممثلين لحضور الحفلة كضيوف للشرف. ويبدو أن الخبر قد انتشر انتشار النار في الهشيم فلم أكد أصل وبصحبتي دوغلاس وغروسميث في سيارة رولزرويس مكشوفة، حتى كانت الجماهير الهائجة المائجة تزدحم في جميع الجهات، ملوحة هاتفة بشدة .

وسمعت صراخ أحدهم وهو يقول : صافحيني يا ماري !

فمددت يدي، بينما كان رفيقاي ينظران إلى الجهة الثانية، فشعرت بأن يداً فولاذية تقبض عليها. وأمسك رجل أخر بيدي الثانية، في حين أن اثنين أو ثلاثة حاولوا أن ينزلوني من السيارة ويرفعوني على أكتافهم فما التفت دوغلاس وشاهد ما يجري إلا وقد أصيب بالذهول، ورغم ذلك فقد أمسك بذراعي، وأمر السائق بالوقوف وبدأ غروسميث يصيح وقد ملأه الذعر :

أرجو أن تتركوا السيدة، أتسمعون ؟ ألا ترون أن حياتها أصبحت في خطر ؟ وبعد محاولات عديدة وجهد جهيد أفلت من الجماهير، وقبعت في داخل السيارة. وأنا أحبس أنفاسي، وكانت هذه اللحظة كفترة استراحة بين دورتين. وعندما نزلنا من السيارة أطبقت علينا الجماهير كالرمال المتحركة، فحملني دوغلاس على كتفيه، وأخذ يشق طريقه وسط هذه الكتل البشرية التي

لا تتزعزع، واعترض طريقنا أحد الأغصان فجأة، فلم يشعر به دوغلاس إلا حين رأى الغصن يلمس صدري، فانحنى كي أتخلص منه ونستطيع المرور، ولكنه فقد توازنه، فسقطنا في خيمة صفت في داخلها المربيات والمعلبات، كانت تقوم على حراستها سيدتان انكليزيتان مسنتان، نظرتا إلينا بدهشة شديدة وحاولتا أن تظهرا أدبهما وحسن ضيافتهما ولكن ما أسرع ما تغير موقفهما عندما اشتد ضغط الجماهير، فاقتحموا الخيمة الصغيرة، وحطموا كل ما كان في طريقهم من أواني المربيات والمآكل، ففقدت السيدتان صوابهما وطردتانا من المكان .

حملني دوغلاس وغروسميث إلى سيارة انكليزية صغيرة أتى بها أحدهم. وكانت تقف إلى جانب طريق ضيق قريب، حيث اصطفت مقاعد خشبية لا تحصى، وقد ازدحمت بالرجال والنساء والأطفال. ولما ركبت السيارة مع دوغلاس، ألقيت نظرة أخيرة على هندام غروسميث الأنيق بينما كان واقفاً في منتصف الطريق، وقد أضاع قبعته الحريرية، وتشعث شعره وهو واقف يتنفس الصعداء لخلاصنا .

أنهينا زيارتنا لانكلترا وانتقلنا إلى هولندا، فاستقبلتنا السلطات العليا في مدينة أمستردام وقدمت لنا عدداً من الهدايا والتحف التذكارية. وكانت الجماهير في هولندة تشبه مثيلتها في انكلترا .

لم نمكث في هولندا إلا أياماً معدودة، قرر دوغلاس بعدها، أنني أحتاج إلى راحة حقيقية في مكان لا يهتم فيه الناس بنا، وكان ذلك المكان ألمانيا بالطبع، فقد مضت عدة أعوام، منذ أن عرضت آخر أفلامنا في ذلك القطر، ولو عرفت أسماؤنا، فلا بد أن نكون هدفاً لحملة عداء واسعة قوية شديدة وسيذكرهم وجودنا بخطاباتنا العدائية لألمانيا وأفلام الدعاية التي مثلناها أنا ودوغلاس في حملة بيع سندات الحرية .

قال دوغلاس وهو يخاطبني بالاسم الذي يحبه : لن نقابل بالترحاب في ألمانيا يا هيبر، وسنترك هناك وشأننا .

واستأجر دوغلاس سيارة ثم بدأنا رحلتنا إلى تلك البلاد التي كانت تسمى إلى وقت قريب بلاد العدو. وأوقفتنا السلطات الهولندية على الحدود، فاضطررنا أن نستقل السيارة العمومية إلى كولونيا. وكان أطفال المدارس الألمان الذين أضناهم سوء التغذية، ينظرون إلينا بعداء مكشوف واضح، حين عرفوا أننا من الغرباء المترفين.

وعندما ذهبنا لزيارة كاتدرائية كولونيا الشهيرة، التي اتخذتها جيوش الاحتلال البريطانية مركزاً لها، لمست كم كان مؤثراً منظر أولئك الأعداء السابقين من انكليز وألمان، وأشرطة الحداد على أذرعهم، يركعون سوية ويؤدون الصلاة للعلي القدير. فلم يسعني إلا أن أتساءل في تلك اللحظة عن رأي الرب القدير في هؤلاء الناس الذين يخيم الظلام عليهم. تابعنا طريقنا إلى ويسبادن، في منطقة الاحتلال الفرنسي. وقد قيل لنا أن عدداً كبيراً من الشبان الانكليز تزوجوا فتيات ألمانيات وأصبحوا آباء فخورين لأطفال شقر. ولم تكن الحال مثل ذلك مع الفرنسيين فنحن لم نلمس أثراً للأخوة في (ويسبادن) ولا أثراً لصلاة مشتركة ولا لتزاوج متبادل .. وبقي الجنود الفرنسيون متعالين مشمخرين ببرود، وبوجوه قاسية وشفاه مغلقة. وأخذنا بعد مضي أيام قليلة نشعر بالوحشة، وبدأ تفكيرنا يتجه اتجاهاً مضاداً، فمهما كان الجمهور ملحاً في طلباته وممعناً في إزعاجه، عنيداً في الحصول عليها، فإن كل ذلك أفضل بكثير من أن يظل المرء مجهولاً. وبعد قضاء يوم كامل في ابتياع بعض الحاجات ورؤية معالم المدينة، أدركنا أنه لا يوجد أي أثر، يدل على تعرف الجمهور علينا. وسألني دوغلاس :

صارحيني القول يا ماري : هل تحبين أن يدعك الناس وشأنك :

فقلت : كلا يا دوغلاس، دعنا نذهب إلى مكان يعرفوننا فيه. فقد سئمت الظلمة في هذه البلاد .

وانتقلنا إلى لوبكنز في القطاع الذي تحتله الجيوش الأميركية. وأمر القائد الأميركي أن ننزل في بيت ألماني جميل. وقضينا الرابع من تموز في

مشاهدة نهر الراين من قصر ايرينبر اينشتاين القائم على الضفة الأخرى. وشاهدنا من ذلك القصر المنيف، المرتفع، عرضاً ممتازاً للألعاب النارية، كان منها سطوع علم أميركي كبير من مئات الأنوار ثم ظهور صورة للرئيس ويلسون في السماء المظلمة وارتفاعها ببطء إلى أن تختفي .

وكان مقدراً أن أشوه جمال هذا اليوم الخالد، بالرقص مع الجنرال القائد .. ولكي أوضح طبيعة إساءتي، يجب علي أن أعود مع القارئ إلى الوراء قليلاً. لقد قال لي دوغلاس باهتمام في ليلة عرسنا :

– لقد أصبحت الآن زوجك يا ماري ولا أنتظر مصاحبتك أي إنسان سواي على موائد الطعام أو في المسارح أو في حلبات الرقص فهل تعديني بذلك ؟

فأجبته باهتمام مماثل : أعدك بذلك يا دوغلاس .

وكنت أعلم أن دوغلاس رجل غيور. ولكني لم أدرك مقدار تعصبه إلا في الرابع من يوليو في كوبلينز، فقد شرفني القائد العام بأن طلب مني أن أفتتح الرقص معه. وترددت برهة وأنا أتخبط في دياجير من الخوف والارتباك ولم يكن بمقدوري أن أوضح له بأنني وعدت زوجي أن لا أرقص إلا معه، ولكنني غلبت على أمري واضطررت إلى أن أقبل دعوة الجنرال .

وقد بقي دوغلاس محافظاً على هدوئه بقية الوقت، ولكنه كان يغلي كالمرجل من شدة غضبه، ومع هذا فلم يوجه إلي كلمة واحدة، أثناء عودتنا إلى مقرنا، ولكني كنت أشعر بالغضب وهو يسري في عروقه كالنار في الهشيم، وهو يوشك أن يثور في أية لحظة. وعندما بلغنا باب البيت، دار فجأة على عقبيه، واختفى في الشارع المظلم. فوجدت نفسي وحيدة في بيت ألماني وأنا أتساءل متى يهدأ غيظه فيعود .

أخذ يستولي علي خوف صبياني، لقد تذكرت جميع الخطب العنيفة التي ألقيتها ضد ألمانيا والقيصر، خلال حملات بيع سندات الحرية. وكنت متأكدة

من أن سلوكي العدائي قد بلغ مسامع سكان كوبلينز وأنهم ينتظرون خفية أن تحين لهم الفرصة المناسبة لينتقموا مني. وكنت أخشى أن أقفل الباب، وأنا أتوقع أن يعود دوغلاس في أية لحظة، وقد أستغرق في النوم فلا يتمكن من الدخول، فيظن أنني عمدت إلى معاقبته على تصرفه الصبياني، ويقرع الباب بشدة فيوقظ النائمين وقد يدعو ذلك إلى حضور بعض الجنود الأميركيين، وتكون النتيجة فضيحة كبرى، ومرت علي ساعة واحدة خيل إلي أنها امتدت سنوات قبل أن يطرأ على سمعي صوت خطواته .

قال : إنني آسف يا ماري. لقد كان سلوكي فظاً .

فأجبته : لن أخلف يا عزيزي بوعدي مرة ثانية مهما كانت الظروف. وقد حافظت بعدها على ذلك العهد .

واجتمعنا بعد أعوام في إحدى النوادي الليلة، ببعض أصدقائنا الانكليز وبينهم الأمير جورج الذي أصبح فيما بعد، دوق كينت، وقد طلب مني الأمير أن أراقصه، فرفضت هذه المرة دون تردد ورأيت علائم الدهشة تظهر على وجهه .

قلت : إنني آسفة جداً، لأني أخذت على نفسي عهداً أن لا أرقص إلا مع زوجي. ويسوؤني رفض هذا الشرف العظيم غير أنني مرتبطة بوعدي مع دوغلاس. أسجل الآن أنني حين فهت بتلك الكلمات أمام الأمير جورج، تمنيت بعدها لو تنشق الأرض وتبتلعني .

وكان الأمير كريماً منصفاً حين أجابني، إنني أدرك موقفك جيداً يا عزيزتي مسز فيربانكس. ولكن يجب على المرء أن يراعي شعور الآخرين وكم كان يؤسفني لو أني كنت سبباً في أن تنقضي وعدك لمجرد سروري واستمتاعي بالرقص معك .

نجلس دائماً أنا ودوغلاس جنباً إلى جنب على موائد الطعام حينما نكون ومهما تكون شخصية المدعوين الآخرين. وكان يصعب علي كثيراً توضيح

الأسباب التي تدعوني إلى ذلك وخاصة لصاحب كل دعوة وزوجته، وعليه فقد كان أصحاب الدعوة يضطرون إلى تعديل جديد لترتيب مقاعد المائدة وكنت أعتذر لهم فأقول :

لقد قررت أنا ودوغلاس أن نجلس دائماً سوياً في البيت وخارجه. وأظن أن ذلك لن يثقل عليكم أو يفسد من ترتيبكم. فإذا أمكن تدبير الأمر على هذا الشكل أكون ممتنة لكم. وتقبلت معظم السيدات المهذبات اللواتي كن يقمن بدعوتنا إلى موائدهن ويمضي الأمر دون تعقيب، سوى تأكيدهن بأنهن يدركن موقفي .

ولا أدري إن كن يعنين ما قلنه فعلاً. أما أنا فإنني كثيراً ما أتساءل عما إذا كنت قد تفهمت هذا المزاج الغريب لدوغلاس .

انتقلنا من ألمانيا إلى ايطاليا، واحتفلت الجماهير باستقبالنا بأقوى مظاهر الحماس، وسمع دوغلاس صبياً ايطالياً يدعوه لأول مرة باسم «لامبو »أي البرق، وهو الاسم الذي يطلقه عليه الايطاليون كلما اجتمعوا ليروا أفلامه. وعندما دخلنا لوغانو في السابعة صباحاً، رآنا هذا الصبي واندفع بسرعة في الشارع وهو يصيح بصوت مضطرب «ماريا، والبرق» ممثلا السينما. وكان صياحه كفيلاً بأن يجمع في بضع دقائق سكان لوغانو الذين ساعدونا على نقل أمتعتنا إلى الفندق.

ذهبنا إلى البندقية وفلورنسا وروما، وفي روما استعان دوغلاس بأستاذ عالم في الآثار له إلمام بسيط باللغة الانكليزية. وفي يوم وبينما كنا في أحد المطاعم أخذ الأستاذ يتحدث إلى دوغلاس عن شغف الإيطاليين به ومحبتهم له. واسترسل في حديثه عن دوغلاس دون أن يذكر اسمي، فسبب ذلك ارتباك زوجي مما اضطره أخيراً إلى مقاطعته قائلاً : عفواً يا أستاذ إن زوجتي شهيرةٌ أيضاً، إن لم تكن أشهر مني، ليس في أمريكا فحسب، بل في سائر أنحاء العالم بما فيه بلادك أيضاً.

عند ذلك التفت الأستاذ إليّ بوجه مشرق وقال :

نعم، نعم، بالطبع، إن اسم ماري بينكرتون معروف في جميع أنحاء إيطاليا، ولم يدع دوغلاس هذه النكتة، وظل يناديني طوال الرحلة، باسم ماريا بينكرتون.

وفي باريس حيث استقبلنا الفرنسيون بترحاب شديد، وجدنا أنفسنا نشغل شقة ملاصقة لشقة الجنرال بيرشينغ، في فندق كريون، وفي مساء أحد الأيام فتح دوغلاس النافذة وألقى نظرة إلى الخارج ولكنه ارتد مسرعاً وقال :

– لا تخرجي إلى الشرفة يا ماري ! لأن الجماهير تنتظر أمام الفندق لتحيي الجنرال برشينغ.

ثم دعانا الجنرال إلى تناول الشاي برفقته، وفي أثناء الحديث قال:

– لقد احتشدت جماهير غفيرة لتحيتكما في هذا اليوم .

– فغمغمت أنا ودوغلاس، ولكن يا حضرة الجنرال ...

– نعم لقد آليت على نفسي أن لا أخرج إلى الشرفة. ولا بد أن الجماهير كانت تُعدّ بالألوف .

تبادلت مع دوغلاس نظرة ثم انفجرنا ضاحكين، وأوضحنا للقائد العام بأننا لم نفعل إلا ما تحرج هو من فعله .

ولما قاربت أسابيع رحلتنا على الانتهاء كنا قد قمنا بجولة تتطلب أربعة أشهر. ولم نشعر بالراحة طوال ذلك الوقت إلا حين انتقلنا إلى الباخرة، قد أنهكنا التعب.

ظللت طوال الرحلة، من نيويورك إلى انكلترا، ثم خلال البلاد الأوروبية، أتوسل إلى دوغلاس أن يقرأ قصة نشرتها إحدى المجلات. وطلب المختصون موافقته عليها. وكنت قد قرأتها أثناء الرحلة، فنالت إعجابي واستحساني الشديدين، واكتفى دوغلاس بإجابتي :

– إذا نالت إعجابك يا ماري، فإنني سأبرق لهم بأن يبدأوا بالحوار والملابس ومكان القصة.

– كلا يا دوغلاس، أريد أن تقرأها أولاً، لأنني لا أستطيع تحمل مثل هذه المسؤولية وعلى الرغم من اعتراضي على رأيه، فقد أبرق، طالباً شراء القصة وإعداد المكان، وتحضير الملابس. ومع هذا فلم أستطع إقناعه بقراءتها. أخيراً عند عودتنا بالقطار إلى هوليوود، وبعد أن قال لي :

– سأقرؤها إذا وعدتني أن تمثلي معي دورين غراميين يا ماري .

– اتفقنا. والآن لا تفه بكلمة أخرى قبل أن تتم قراءتها .

وكان دوغلاس يقرأ دون توقف حتى أثناء الطعام .

وكان هذا الفيلم سبباً قوياً دعاه إلى السير في اتجاه آخر في صناعة السينما. وأطلقنا على هذا الفيلم «علامة زورو» .

وكانت أنباء رحلتنا قد وصلت إلى الصحف الأميركية. وبقدر ما كان استقبالنا مثيراً فيما وراء البحار كان الترحيب بنا قلبياً من قبل مخبري الصحف ومصوريها، الذين كانوا ينتظروننا في المرفأ. وكانت صداقتهم قلبية سارة. ولو كان هناك ذرة من الشك حول مستقبلنا على الشاشة، فقد بددتها مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبلنا بها خلال تلك الأسابيع الأربعة. وأهمها هو أن وطننا الأم رحب بنا بذراعين مفتوحين .

كانت والدة أوين مثالية في تسليمها بطلاقي وزواجي الثاني. فبعد عودتنا بمدة قصيرة. قامت مسز مور بزيارتي في أستوديو بيكفورد – فيربانكس ودخل دوغلاس غرفة زينتي قبل أن يعلم بوجودها. فارتبك في أول الأمر غير أن مسز مور هونت عليه. وعندما قلت له أريد أن أعرفك يا دوغلاس بوالدة أوين، ذهبت إليه رأساً ومدت يدها مصافحة وهي تقول :

– لقد كرهتك يا مستر فيربانكس، إلى أن تحققت أنك كنت طيباً مع ماري العزيزة. فأرجو الله أن يطيل حياتك لكي تحميها وتعتني بها، إنني أعلم أنك تستطيع إسعادها.

شكرها دوغلاس، وترقرقت الدموع في عينيه. لقد كانت مسز مور محقة في قولها فإن ما كان ينقص أوين من الصفات – الرفق والعون والإرشاد والتوجيه – كان كاملاً في شخص دوغلاس.

لقد كنت أشعر بوحدة شديدة على الرغم من نجاحي، وأردت أن أجد الشخص الذي يرضى عني. وقد منحني دوغلاس هذا الرضا. إنني لم أصدق أبداً أن أحداً يستطيع التحدث عني أو معي كما يستطيع هو. لقد كان دوغلاس يحب الحياة. ويبث هذا الحب في كل من يحيط به من الناس ويكره المظاهر الكئيبة، ومن يتصف بالعبوس والكآبة من الناس. فالحديث عن الفشل أو المرض أو النوم هو من الأمور التي يتجنبها الناس حين يكون في رفقته. وذلك لا يعني أنه لم يكن صديقاً لمن هم أسوء حظاً منه. فقد كان إخلاصه لهم راسخاً حتى آخر يوم في حياته. وأذكر مثلاً من زملاء دوغلاس على المسرح، أصيب بمرض السل. فكان دوغلاس سنده الوحيد خلال خمس وعشرين سنة. إذ أرسله مراراً عديدة إلى المصحات في سويسرا وغيرها من البلدان. وكان الرجل أكبر سناً من دوغلاس، ولكنه، لسخرية القدر، عاش سنين عديدة بعد موت دوغلاس.

وهناك كلمة واحدة عن دوغلاس تظهر دائماً بأحرف كبيرة «النجاح» فحينما يمسك بالقلم، أو الهاتف في أي مؤتمر يحضره يسطر هاتين الكلمتين السحريتين مراراً وتكراراً بأحرف قوية مطبوعة. وعندما نشر بعض تآليفه ظهرت أسماؤها تدل على الحياة بأجل معانيها مأخوذة من كلمتي «اضحك، وعش» أو «عادة السعادة» وكانت تغلب عليه عقيدة النجاح فتجذب نحوه الناجحين من الناس حيثما ذهبوا .

الفصل السادس عشر

كان شارلي شابلن من أصدقاء دوغلاس الذين أصابهم أكبر قسط من النجاح. وكان عضواً مؤسساً في شركة الفنانين المتحدة، التي كانت تضمني ودوغلاس. لقد اتصفت علاقتي بشارلي بالغرابة على مر السنين. وتأرجحت بين الصداقة والإعجاب المتبادل من جهة، والعداء الشديد من جهة أخرى. غير أنني أريد أن أكون منصفة في مديحي له كفنان عبقري وإنسان موهوب. وكان حزنه العميق لرحيل صديقه دوغلاس عام ١٩٣٩ شديداً، وكان دوغلاس يعامله كأخ صغير، ويصغي إلى أحاديثه عن أفلامه بصبر عجيب. كنت أسمع الكثير عن شارلي شابلن عام ١٩١٢، دون أن أحظى برؤيته ولكنني التقيت ذلت مرة بشاب أسود العينين يجلس في أحد المطاعم، قيل لي عنه آنذاك إنه شارلي شابلن. ولم يقع نظري عليه إلا بعد أعوام، كنت بعدها قد تزوجت بصديقه دوغلاس، فلم نعد نفترق بعد ذلك إلا نادراً. لقد كان شارلي مرهف الإحساس لطيف المعشر. وأذكر من نوادره، أنني رأيت في منامي في إحدى الليالي المقمرة، أنني مت، وحولي جماعة من الموسيقيين يعزفون الأنغام الشجية، فأفقت من نومي، وأنا لا أزال أسمع تلك الأنغام، فإذا بها أنغام حقيقية صادرة عن فرقة موسيقية أتى شارلي بها لتعزف لنا في قصر بيكفير. وكان شارلي ودوغلاس يحبان الحركة والتنقل ولا يهدآن في

مكان، فكنت مضطرة للبقاء في البيت لأرافق زوجة شارلي، وأتحدث إليها إلى أن يعود الصديقان .

إنني أجهل الشيء الكثير عن حياة شارلي الأولى. ولكنني أعلم أن أمه أصيبت بالجنون حين بلغ السابعة من العمر. ولن أنسى أبداً ما حدثني به شارلي عن الأطفال الذين كانوا يلقون الحجارة عليه وعلى أمه عندما أخذها إلى المستشفى. ثم وضع هو وأخوه في دار لتشغيل الفقراء، بعد أن مات أبوه فقيراً، فهربا من المشغل. وأخذا يطوفان شوارع لندن وقد كادا يموتان جوعاً، يتوسدان أرصفة الطرقات ويفترشان الأرض ويلتحفان السماء.

وكان من طباع شارلي التي اكتسبها عن طفولته، استخفافه بكل رباط عائلي، وقد انتقد حبي لأمي وعائلتي مرة بقوله : «إن حبك لعائلتك بهذه الدرجة هو ضرب من الخيال يا ماري». ولكن استخفافه ذلك لم يمنعه من الذهاب بعيداً ليأتي بأمه المريضة من انكلترا إلى كاليفورنيا. وكان صغر حجم جسمه من منغصات حياته. فقد وقف مرة أمام المرآة وهو يردد لنفسه : إن رأسي أكبر من أن يوضع على جسمي. وذراعاي طويلان على جسمي. ويداي أصغر من أن يحملهما ذراعان .

ومع احترامي لعبقرية شارلي شابلن وتقديري لصداقته. فإن ذلك لن يمنعني من أن أتذكر ما قاسيته من صعوبات خلال السنوات التي كنت فيها شريكة له في العمل، فقد كان يعاكسني ويناوئني في كل ما أفعل وأقول، خاصة بعد موت دوغلاس. وأخيراً، وبعد خلاف استمر عدة سنوات، تخلينا عام ١٩٥١ عن الشركة إلى ستة من الشبان الذين كان باستطاعتهم النهوض بها، وإيقافها على قدميها مرة أخرى. وكانت تلك آخر مرة رأيت فيها ذلك الطفل العنيد العبقري الموهوب، الظنون، الأناني، المجنون، شارلي شابلن .

الفصل السابع عشر

إن السنين الأولى من حياة شارلي شابلن ذكرتني بطفولتي، لأنني قاسيت مثله فقراً مدقعاً. كما أني لم أعرف معنى الطفولة الحقيقية، إلا حين كنت أقوم بتمثيل أدوار الطفولة، سواء في طفولتي أو شبابي حيث قمت بأدوار عديدة منها دور الطفلة «ربيكا» ودور طفلة تعيش في مزرعة سانيبرك، تبلغ السابعة من العمر. وقد انسجمت في الأدوار كما لو كنت طفلة حقاً، وكنت وقتها في الثانية والعشرين من عمري .

قالت أم ربيكا لابنتها : إن في جوربك ثقباً يا ربيكا .

وفعلت ربيكا ما فعلته بنفسي قبل أن أذهب إلى مدرسة الأحد، فأسرعت عائدة إلى البيت ووضعت طلاء أسود على ثقب الجورب الأسود .

وقالت لعمتها في موقف آخر :

– هل هذه الفطيرة الكبيرة للعمة اميراند ؟

– كلا يا ربيكا إنها لك .

– حقاً ! إنها صغيرة جداً .

ومع هذا فلم تسمح لها أن تأكلها، بل طلبت منها أن تنظف المائدة ثم تعود إلى غرفة المؤونة، وهي تحمل فطيرة توت العليق اللذيذة .فأخذت الفطيرة، ولكنها ما كادت تقربها من فمها حتى وقعت عيناها على إطار معلق

على الحائط، كتب في داخله بحروف كبيرة الوصية التالية : «لا تسرق». فتركت الفطيرة وكأنها كانت تلمس قطعة من نار، ومسحت يديها بتنورتها. ولكن سرعان ما رأت وصية أخرى على الحائط المقابل: «ساعد نفسك يساعدك الله» فوقعت هذه الوصية من نفسها موقعاً حسناً وشجعتها على أخذ الفطيرة والتهامها بضمير مستريح .

وسأذكر دوماً دور ربيكا لسبب آخر، ففي تمثيلنا لهذا الفيلم، اشتركت بلادنا بالحرب العالمية الأولى. واشتركت مع دوغلاس وشارلي شابلن، كغيرنا من الممثلين في حملة سندات الحرية .

وأذكر ونحن في واشنطون أننا تلقينا دعوة إلى البيت الأبيض، ورافقنا نحن الثلاثة الممثلة الكوميدية المحبوبة ماري درسلر. وقد يدرك أولئك الذين يعرفون في الرئيس ويلسون عبوسه وتجهمه، سبب حزننا وامتعاضنا عندما أخذت ماري تروي له قصة معيبة مهينة. وما أن وصلت إلى نهايتها حتى تمنيت لو أن أرض الغرفة الزرقاء انشقت وابتلعتني. وشعرت بالدم يصعد إلى رأسي، واحمر وجهي خجلاً. أما الرئيس فلم يبتسم، ولم يبد أي تعليق، ولقد هالتنا الزيارة الأولى للبيت الأبيض، ماخلا ماري العزيزة فإنها لم تدرك فداحة خطئها. وقدمنا سكرتير الرئيس إلى وكيل وزارة البحرية في ذلك الحين، وكان شاباً طويلاً نحيفاً يضع نظارة على عينيه، اسمه فرنكلين ديلانو روزفلت. ثم التقينا في مساء ذلك اليوم أمام الخزينة لافتتاح حملة سندات الحرية. كانت الشوارع تغص بالناس الذين تجمعوا لمشاهدة الاستعراض الملون الذي توقف برهة أمام الخزينة لسماع خطبنا في افتتاح هذه المعركة الوطنية.

وهناك جرى حادث مؤسف آخر لماري درسلر مع ذلك الذي أصبح فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة. ففي خلال الإحتفال زلت قدم مستر روزفلت، وهو على درجات الخزينة، فوقع على المنصة ووقعت ماري المرحة فوقه. وسألني الرئيس روزفلت في البيت الأبيض عام ١٩٣٣ إذا كنت لا أزال أذكر هذا الحادث. فأجبته أنني أعيه تماماً. فقال :

– إنني أحتفظ بصورة لنا في ذلك اليوم. فهل تودين أن تأخذي نسخة عنها ؟ فأخذتها طبعاً، وكنت سعيدة بأخذها.

وفي خلال معركة سندات الحرية، جمعت في بيتسبورغ، ومن الظهر حتى المساء مبلغ خمسة ملايين دولار. وكان أشق يوم لنا في بلتيمور، فقد بعت لوحدي سندات بأربعمئة وخمسين ألف دولار. ودامت هذه المعركة من التاسعة صباحاً حتى الثانية عشرة في منتصف الليل، وعبرت أمي عن كيفية قضائنا تلك الليلة بقولها، لقد عشنا على القهوة والمصافحة.

ولما أصبحت في سن الشباب، قمت مرة أخرى بتمثيل دور طفلة في فيلم «الأميرة الصغيرة» وكان علي أن أبدو في سن العاشرة. لذلك فقد استعملنا طريقة التناسب الإصطناعي على الشاشة لأول مرة، فقمنا بتضخيم كل ما ألمسه أو اقترب منه إلى ما يقارب ثلث حجمه الطبيعي، فإذا ما أمسكت كأساً تراءى أنه أكبر من حجمه العادي بنسبة الثلث، وكذا كل ما وقعت عليه يداي حتى مقابض الأبواب. وقد انتخب الأشخاص الذين يعملون معي ممن يزيد طولهم على ستة أقدام، فساعد ذلك كما ساعد قصر قامتي على حل هذه المعضلة .

ثم إني قمت بدور فتاتين في فيلم «ستيللا ماريس ». الأول دور ستيللا، وهي فتاة معقدة غنية، تجهل كل شيء عن الموت والفقر والمرض والحرب، وظلم الإنسان، وتعيش في برج يشرف على البحر، ليس لها صديق سوى طيور النورس البحرية

والثاني دور فتاة اسمها يونيتي بليك، لا تكف عن الضحك رغم أنها قامت في حياتها الكثير، ومرّ بها من الأيام السوداء ومصائبها الشيء الأكثر وتصورت يونيتي بليك، وقد مال كتفها وعلت مؤخرتها من كثرة ما حملت من الأطفال الصغار في سنيها السابقة. فقلدت تلك الفتاة واعتدت أن أمشي مثلها عند قيامي بتمثيل دورها. ودهنت شعري بالفازلين ليظهر أسود حالكاً

ولن أنسى تلك اللحظة التي نظرت فيها يونيتي بيأس وحسرة إلى وجهها في المرآة، وكانت تحب نفس الرجل الذي تهواه ستيللا .

فقالت : أنا أيضاً لي شعر جميل .

ثم عادت لتنظر في المرآة من جديد، وترى شعراً كثيفاً بشعاً كنسيج خيوط الممسحة يحيط بوجه ممتلئ قبيح ليس فيه شيء من الجاذبية، فتنهمر الدموع ببطء على ذلك الوجه الساذج فتغطيه بيديها. وإنني لا أزال أرثي لهذه الفتاة، وتنهمر دموعي غزيرة كلما تذكرتها. وفي صبيحة أحد الأيام دخلت أمي إلى غرفتي قبل أن أبرحها إلى الإستديو، فنظرت إليّ باهتمام، ثم قالت :

– لقد أصبحت تشبهين يونيتي يا ماري .

ويظهر أنني كنت أشبهها تماماً، ويؤكد ذلك أن ادولف زوكور زارني يوماً وكان في هوليوود في ذلك الحين، وصدف أني كنت مرتدية ثياب يونيتي، فشاهدت نظرة الرعب قد ارتسمت على وجه الرجل المسكين، عندما وجدني بهذه الصورة، فطيبت خاطره، وأكدت له أن الدور صغير جداً وأنني سأقضي نحبي في أول مراحل الفيلم.

فقال مستر زوكور : كلما أسرعت كان ذلك أفضل ومثلت دور فتاة صغيرة بشعة في فيلم «غسالة الصابون» وهو فيلم أذكره جيداً نظراً لميزته الرئيسية الأخرى، وهي إشراك حصان كئيب متعب اسمه لافاندر في التمثيل. فقد حاول الاستديو العثور على حصان كئيب يناسب هذا الدور. وظل رجاله يبحثون حتى وجدوا ضالتهم قرب لوس أنجلوس بعد عدة أسابيع. وكان ذلك الحصان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فرشحوه لتمثيل ذلك الدور في فيلم «غسالة الصابون» ثم نقلوه من كومة الرمل حيث كان يعمل لجر عربة الثياب المعدة للغسيل .

وفي أحد المواقف، كان لافاندر يجر عربته الثقيلة صاعداً التل. فناء بحمله، واضطر أن يرجع القهقري فيحطم العربة وينثر الغسيل النظيف فوق

أرض الشارع المليء بالطين. فباعته صاحبته، وهي غسالة سريعة الغضب، إلى معمل للغراء. ولما كنت من أعز أصدقاء لافاندر، فقد هرعت لنجدته، فوصلت في آخر لحظة وأنا أحمل أمراً بتأجيل تنفيذ العقاب .

وأخذته إلى المنزل الذي أسكنه، وربطته بعمود خارج المنزل، ولما أخذ يقفز حتى سقط سقف الطابق الأسفل فوق رؤوس صاحب المنزل وعائلته. فقذفوا بي وبلافاندر إلى الطريق، حيث قبض علي الشرطي. وتأتي سيدة غنية بسيارتها الرولزرويس، فتدفع الغرامة عني، ثم تعرض علي أن تأخذ لافاندر إلى مزرعتها الريفية، فأقبل. وتدعوني لقضاء عطلة الأسبوع حيث التقي بلافاندر لآخر مرة. وظننت أنه لا يزال يذكرني. فقفزت على ظهره، غير أن لافاندر الذي كان في أشد حالات السرور يقفز بي ويلقيني وسط الجدول، وتظهر على وجهي إمارات التألم، التي يعبر عنها في نهاية الفيلم بجملة «وهذا هو عرفان الجميل» .

ولما كان لافاندر لا عمل له في الأسبوعين الأولين، فقد وضعناه في اصطبلات دوغلاس التي تلي الاستديو. وتعهد بعض رعاة البقر برعايته مع إمهارنا الغريبة. وبعد أسبوعين، وفي صباح اليوم الذي يبدأ فيه لافاندر عمله أمام الكاميرا، دخل السائس مسرعاً إلى الاستديو وقد علت وجهه صفرة الموت :

– لدي أخبار مثيرة يا مس بيكفورد !

– هل مات لافاندر ؟

– إن الأمر أفظع مما تظنين ! تعالي وانظري !

رأيت لافاندر وقد بدا بصحة جيدة، وازداد وزنه ستين ليبرة، وكأن له سنتين من العمر. وهمس الصبي يسأل : «ما العمل ؟» وتأكدنا أنه سوف يخسر عمله. لأن أحداً منا لم يوعز إلى رعاة البقر بألا يطعموا لافاندر كثيراً من الشوفان. فهدأت روعه، وطلبت منه أن يساعدني على إخفاء علائم

الصحة الظاهرة على لافاندر. وبدأت بمساعدته فأخذنا نلون معدة لافاندر ونخطط بطنه بخطوط رمادية ليبدو وكأن ضلوعه تكاد تبرز من جسمه من شدة الضعف. ثم أخذت أرسم ظلالاً تحت عينيه، وعقصت ذنبه لكي يبدو أبشع منظراً. ونجحت الحيلة وبدأ لافاندر عمله أمام الكاميرا بدور الحصان الهزيل.

كنت قد بلغت السابعة والعشرين عندما قمت بتمثيل دور من أهم أدوار الأطفال، وهو دور «لورد فونتلوروي» كما قمت أيضاً بتمثيل دور والدة لورد فونتلوروي. ولقد أصبحت الحيل السينمائية في هذه الأيام معروفة شائعة، أما في الماضي فقد كان كل اكتشاف يعد حادثاً، كما أن كل زاوية جديدة للكاميرا هي اكتشاف جديد. وأصبح الناس في حيرة من أمري عندما شاهدوني في دور الأم أطول مني في دور الصبي بتسعة إنشات .

وتفصيل ذلك أنني حصلت على ثلاث إنشات من الطول حينما أخذت أسير على رصيف عال كلما احتاج الأمر. ثم حصلت على الإنشات الستة الباقية نتيجة لفكرة اقتبستها عن سيدات البندقية الأنيقات الطموحات، اللواتي كن يلبسن أحذية تمنحهن طولاً يضفي عليهن وجاهة تليق بمقامهن. لذلك صنعت حذاء خاصاً لهذه الغاية. ولا زلت أذكر كيف كنت أهبط به الدرج بقلق شديد. وكيف اضطررت لأن أعيد تمثيل المشهد الواحد عدة مرات، حينما كانت تزل قدمي في كل مرة، وتدحرجت مرة على طول السلم واستغرق إعداد أحد المشاهد وتكراره خمس عشرة ساعة بينما تحمل التقاطه ثلاث ثوان فقط .

وأرجع بذاكرتي إلى الوراء، فأرتعد قليلاً عندما أتذكر فيلم «مليس» كان علي، بصفتي صديقة مخلصة لحيوانات الغابة متصفة بالشجاعة، أن أمثل في هذا الفيلم بدور مليس، مشهدين يتطلبان مني القيام بأصدق تمثيل في حياتي الفنية. أما أحدهما، فتقدم فيه إحدى الممثلات وتدعى مليس ثلاث قطع من الشوكولاته إلى دب ضخم هائل الحجم. كان الطقس حاراً عندما قدمت

مليس إليه القطعة الأولى، وفي تلك اللحظة حدث خلل في الكاميرا. وفي أثناء إعادة لف الفيلم وتثبيته عليها، كنت أقف بهدوء وأنا أمسك بيدي قطع الشوكولاته. وانتظر الدب ومقوده بيد مدربه، حتى إذا ما عادت الكاميرا إلى العمل، دفعه مدربه نحوي ففتحت يدي وأنا أنتظر منه أن يلتقط قطع الشوكولاته الواحدة تلو الأخرى، غير أني دهشت لما رأيتها وقد ذابت وسالت بين أصابعي، وعلى ظاهر كفي فلم أستطع القيام بأي حركة لأن الدب أخذ يلحس كفي، ثم قلب يدي بمخلبيه، ولحس باطتها، وأخيراً أخذ يلحس الشوكلاته من بين أصابعي .

ولم يكن فصل الدب هو «المقلب» الوحيد الذي دبره المدير ميكي نيلان في «مليس»، فقد قال لي في اليوم التالي : لقد أحضرت لك مفاجأة في هذا اليوم يا تاد (وهذا هو الاسم الذي اعتاد نيلان أن يناديني به) وكانت مفاجأته أنني رأيت على أرض المكان صندوقاً كبيراً من الخشب، لم أره قبلاً، ولما كنت على اطلاع تام بالأعيب نيلان فقد نظرت إليه بريبة حينما بدأ يفتح غطاء الصندوق الكبير. رأيت ثعباناً يزيد طوله على خمسة أقدام يرفع رأسه وينظر إلي .

فابتعدت إلى الوراء وأنا أصيح : هل جننت يا ميكي ؟

فقال، هوني عليك يا تاد، أنه ليس ساماً وأريد أن تحمليه، ورفضت أن أطيعه هذه المرة. وكنت على وشك أن أفتح فمي لأحتج عليه بشدة عندما لمحت ابتسامة مصطنعة ترتسم على وجه نجار الاستديو، وكأنه يقول لي : لقد صدق ظني، أنها ليست سوى قطة رعديدة، فسمحت لميكي دون تردد أن يضع إصبعي على الثعبان، ثم التفت بقية أصابعي رويداً رويداً حول جسمه، وأذكر كم كانت دهشتي عندما شعرت أنه لم يكن لزجاً ولكنه كان بارداً فقط، كما دهشت أيضاً لقوته العضلية.

وأخذ الثعبان يلتف حول ذراعي ثم يدس ذيله بخجل في ردني الواسع

المهلهل. وقد علمت فيما بعد، أن هذا المشهد كان موضع رهان بين ميكي نيلان وبقية مساعديه، وخطرت تلك الفكرة لنيلان في إحدى الليالي، ولما عرضها على مساعديه استخفوا بقوله وجزموا أنه لن يستطيع إقناعي بهذا العمل. فراهنهم وكسب الرهان .

ومضت سنوات طويلة وأنا أقوم بتمثيل أدوار الأطفال، ثم أخذ القلق يراودني، إذ بدأت أشعر أنني أتقمص شخصية الطفولة. وإن من السهل أن تتغلب على شخصيتي الحقيقية، وبدلاً من أن أكون ممثلة، فقد سمحت لنفسي بالانسياق مع رغبة الناس، حتى أصبحت طفلة صغيرة في نظر الجميع وكان هذا الأمر يغيظني ويحز في نفسي ألماً .

وهذا ما أدى إلى قيامي بعمل مشئوم في عام ١٩٢٢، فقد قرأت قصة عنوانها (دورثي من هادن هول)، فعزمت أن تكون قصة آخر فلم أقوم فيه بتمثيل أدوار الطفولة على الشاشة، واعتقدت أن دوري في ذلك الفيلم سيكون من أنجح الأدوار لمن هو مثلي في سن الشباب .

ولسوء حظي فقد تعرضت لأول تجربة، عندما استدعيت أرنست لوبياش من ألمانيا ليقوم بإدارة العمل. وكانت أنباء إبداعه ومقدرته الفنية قد سبقته إلى أميركا، غير أن المشتغلين في الأوساط السينمائية والمسرحية استاؤا استياءً شديداً، واخذوا ينظرون إلي كناكرة للجميل، وخائنة لعملها، عندما تجاهلت المديرين والمخرجين الأمريكيين، وفضلت عليهم ارنست هذا.

أرسلت الحوار إلى مستر لوبيتش فقرأه بالألمانية، فأعجبه ووافق على إدارة الفيلم، ولكنه غير رأيه حين وصل إلى هوليوود لسبب لا أزال أجهله. وكان لوبيتش في ذلك الحين يتكلم الإنكليزية بضعف وصعوبة، غير أنه كان قادراً على إيضاح المعنى الذي يقصده بدون التباس أو غموض، وبما أنه كان يمثل الحقيقة الواضحة التي لا يمكن التهرب منها، فقد اتفقنا أن نضع قصة (دورثي فيرنون) على الرف، ونخرج فيلم روزيتا. فكان أراد فيلم عملت فيه

على الإطلاق. وإذن فهذا هو ارنيست لوبيتش عبقري هوليوود الكسول، الذي بنى شهرته في أوروبا على إخراج الكوميديات الملفقة، بدلاً من الاعتماد على قصص المغامرات الواسعة وحين حاولت أن أجعل من روزيتا فيلماً محترماً تتخلله بعض المناظر العنيفة، أتت النتيجة عكس ما توقعتها وفشل الفيلم فشلاً ذريعاً .

وكانت المتعة الوحيدة التي حصلت عليها من روزيتا، عدداً وافراً من النكات الفكاهية التي كنت ألقيها على حساب لوبيتش أثناء إخراج الفيلم .

وقد مرت بنا أثناء التقاط أحد المشاهد في الكنيسة الكبرى، فترات هيمن علينا فيها الارتباك، إذ كان علي أن أسير إلى المذبح ليعقد زواجي على أحد النبلاء بأمر من الملك. وحين كنت أجلس في غرفة التزيين أنتظر إشارة الخروج، كان يقف في المكان مئتان من الكومبارس، ومئة من الفنيين، وصفق مستر لوبيتش طالباً السكوت، ثم سمعته فجأة يأمر الحاضرين بصوت عال، وبلغته المحطمة التي تغلب عليها اللهجة الألمانية، حين رن صدى صوته في صحن الكنيسة الكبرى وهو يقول : أرجوكم الهدوء ! هذا هو المشهد الذي تسير به مس بيكفورد بجانبها الخلفي إلى المذبح، وطبعاً تشابه عليه المعنى الانكليزي فقال ما قال وهو يعتقد أنه يقول: ستخرج من الجانب الخلفي .

وساد المكان سكون تام، ثم ضحك مكبوت. انتهى بضحك عم جميع الموجودين في الكنيسة، وعندما أوعزت إلى خادمتي أن توضح لمستر لوبيتش أنه لم يصف اقترابي من المذبح بطريقة محترمة استولى عليه الخجل فأسرع إلي يقدم اعتذاره، وسألني :

– هل من خطأ لغوي فيما قلته حقاً ؟

فطمأنته قائلة : كلا، إنه قول صحيح تماماً .

ثم سألني وفي نظرته وميض من الاضطراب، أليس فيما قلته شيء من الخروج عن الأدب ؟

– كلا، ليس فيه شيء من ذلك أبداً.

فاقتنع بكلامي ورجع يلقي تعليماته بصوت أكثر ليناً عن ذي قبل وخرجت من غرفة زينتي لأسير نحو المذبح.

لقد كان فلم روزيتا أول عقاب نلته بسبب إصراري على تمثيل أدوار النساء على الشاشة. غير أني كنت لا أزال غير مقتنعة، فقررت أن أخرج «دورثي فيرنون» مع لوبيتش أو بدونه، فبحثت الأمر مع صديقي ومديري القديم ميكي نيلان، الذي لم يكن يهتم برأي لوبيتش، فأقنعته، وأخذ على عاتقه إدارة ذلك الفيلم، وكانت تكاليفه مليوناً من الدولارات، فقرظته الصحف تقريظاً حسناً، وأحبه كثير من الناس، لكنني تأكدت من شيء واحد وهو أن الجمهور يرفض قبولي في أي دور أكون فيه سن أكبر من سن الفتاة المراهقة الخرقاء المشاكسة.

وقد كان فيلم دورثي فيرنون أفضل بكثير من روزيتا، ويتساوى مع أي فيلم آخر ولكنه لا يستوي في قيمته ونجاحه أمام صندوق التذاكر مع ربيكا أو لورد فونتلوروي الصغير. وفوق كل هذا فقد عشت على حساب أعصابي أثناء تمثيل هذا الفيلم.

بدأ هذا الفصل في كولدن بارك في سان فرنسيسكو، حيث اجتمع عشرة آلاف شخص ليشاهدوننا أثناء التقاط مشهد لي وأنا أحاول أن أمتطي ظهر حصان أبيض اسمه «بيرل» وضحك الناس كثيراً عندما رأوا أنن يلا أستطيع أن أضع قدمي في ركاب الحصان لأمتطي ظهره، بسبب ثيابي الجميلة المزركشة التي تزن أكثر من خمسة وثلاثين ليبرة، فتطوع الكثيرون لمساعدتي بشتى الوسائل للخروج من هذا المأزق الحرج، وصرخ أحدهم :

– ما رأيك بسلم نقال ؟ دعينا نساعدك يا ماري على امتطاء ظهر الجواد .

واضطررت أخيراً أن أتخلى عن ثيابي المزركشة، وأرتدي ثياباً أخف

وزناً وكانت المعضلة التالية، هي أن الحصان قد يتزحلق أثناء سيره على الطريق المرصوف، ولكي نتفادى ذلك ألبسناه زوجين من أحذية المطاط .

وأطلقت العنان للجواد فسار بسرعة متزايدة جنباً إلى جنب مع السيارة التي تحمل المصور والمساعدة والمدير نيلان ومساعده وأحد الفنيين، وقد سمعتهم يصيحون بصوت واحد، ويظهر أن صياحهم كان بسبب أن إحدى الأحذية المطاطية قد أفلتت من قائمة بيرل، فذعر واندفع يركض كالمجنون ويحاول أن يتخطى السيارة. وزاد في سرعته الجنونية، وكنت أجلس فوق السرج على جانب واحد، وهو وضع لم أعتد عليه تماماً، وكانت طيات تنورتي التي تزن عشرين ليبرة، ترفرف في الريح فوق خاصرته .

وكنت على وشك السقوط عندما أدركت سبب الصياح الجنوني، وإشارات الرجال في السيارة. فحاولت المحافظة على هدوئي لأنني كنت أعلم أكثر من غيري بما سوف يحدث لي إذا فقدت صوابي، فصحت بهم أن يقللوا سرعتهم تدريجياً. وصادف أمامي طريقاً تتسابق فيه السيارات في كافة الاتجاهات. فسار بيرل ينهب الأرض بدون وعي باتجاه ذلك الطريق. فوقفت فوق السرج وانحنيت فوق أذنه، وأخذت أتحدث إليه، وقد أصبحنا الآن لوحدنا.

قلت له : لا بأس عليك يا بيرل .

وبما أن بيرل كان ملكاً لاثنتين من النساء قبلاً، فقد كان معتاداً على سماع الأصوات النسوية واستمررت في الكلام والتربيت على رقبته، كي أهدءه بقدر الإمكان، بينما كنت أجذب عنانه بلطف. لأنني أعلم أن جذب العنان بعنف يجعله يتراجع إلى الخلف فأسقط معه إلى الأرض. واتجهت إلى الله أدعوه وأنا أحاول تهدئته، «أتوسل إليك يا إلهي أن تساعدنا ».

وعندما بلغنا تقاطع الطريق شددت فرامها وتقف، بينما بدت إمارات الدهشة على وجوه الرجال والنساء حين رأوا دوروثي فيرنون تظهر أمامهم

فجأة على متن حصان أبيض، وضفائرها الشقراء تتطاير في الريح، مرتدية ثوباً مصنوعاً على الطراز الاليزا بيتي. وكان بيرل غارقاً في العرق، وعضلاته متوترة كحبال السوط. أما أنا فأني لم أر في حياتي إنساناً تجلى الخوف على وجهه كأولئك الرجال القابعين في سيارة الكاميرا .

قد يظن القارئ أن هذه الحادثة المثيرة، كانت الوحيدة في هذا الفيلم. ولكن حادثة أخرى كانت تنتظرني بعد مرور بضعة مشاهد واقتضى أحدها أن أقفز وأنا على متن حصان فوق أحد السلالم الحجرية الضيقة، ثم من على حائط يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام وعرضه ثلاثة. فرأى ميكي نيلان في هذا خطراً أكيداً بالنسبة لهاوية مثلي، لذلك تعاقد مع فارسة مجربة حتى تقوم بتلك القفزة عوضاً عني، وحدث ما لم يكن في الحسبان، ففي اللحظة الأخيرة صدع رسغ الحصان التي ستمتطيه البديلة، فعرضت عليها أن تستعمل بيرل غير أنها رفضت بشدة قائلة :

– هذا حصان غريب. لا أجازف بحياتي في سبيل ركوبه .

فسألني نيلان : هل تريدين أن تقومي بهذا العمل يا ماري ؟

ولم يكن أحد من المشتغلين بالسينما يفكر في تلك الأيام بالاحتجاج على موضوع يمكن أن يؤدي إلى فقده حياته أو أحد أعضائه، فقد كانت كلمة المدير بمثابة قانون لا يناقش .

كنت لسبب ما خلال التقاط ذلك المشهد، هادئة الأعصاب على غير عادتي، ويبدو أن بيرل قد شعر بهذا الهدوء، فلم يظهر عليه العناد أو الهياج حين صعد الدرج الحجري ثم قفز عن الجدار المرتفع، وخرجت من التجربة سالمة لم أصب بأذى، ولكن ما حز في نفسي وأغاظني هو ما نشرته إحدى المجلات السينمائية، وهو أن بديلتي هي التي امتطت الحصان في ذلك المشهد. وتوصلت أثناء تصوير فيلم «دوروثي فيرنون» إلى أن بإمكاني أن أحصل على فترة استرخاء وراحة في خضم ذلك الجو الصاخب، وأن أنام

بثيابي بوضع لا يتلفها. قال لي أحد المصورين في أحد الأيام : «أمامك ثلاث دقائق قبل أن يأتي دورك على المسرح يا مس بيكفورد» فعزمت على الاستفادة من هذه الدقائق الثلاث. ورغم أنني كنت أرتدي من الأزياء أثقلها وعلى يدي سائل البودرة، وشعري مصفف بدقة تامة. ورغم أنني مجبرة بالحافظة على هندامي حتى اللحظة التي يدوي فيها صوت المدير، وتبدأ الكاميرا بالدوران. فقد أشرت إلى السيدة المولجة بخزانة الثياب، فوضعت وسادة يابانية تحت رأسي والوسادة اليابانية قطعة صغيرة من الخشب، و فوطة مطوية على صدري حتى لا تلوث البودرة ثوبي. ثم رفعت تنورتي إلى أعلى حتى لا تتجعد، و أضجعت وسط هذا الجو الصاخب والصياح المزعج،ثم استغرقت في النوم .

وبعد أن صحوت من هذه الإغفاءة القصيرة العميقة. ذهبت إلى المسرح ولاحظت أن المصور يتأمل في وجهي، و أخيراً سألني :

– ماذا وضعت في عينيك يا مس بيكفورد ؟

– هل من خطأ يا عزيزي

– كلا، ولكنهما تبرقان .

– أوه، لقد كنت نائمة .

وبعد تمثيل فيلمي روزيتا، ودوروثي فيرنون، رضخت إلى رغبات الجمهور بالعودة إلى تمثيل دوار الطفولة. وقد كلفتني مغامراتي في تمثيل الأدوار النسائية غالياً، عدا أنها أربكتني كثيراً .ولكنها كانت لي بمثابة درس مفيد، وكان رد الفعل ضد المزاعم الخيالية عن هذه الأفلام، أنني أصبحت تواقة متلهفة لتمثيل أدوار إنسانية عنيفة مسلية أو محزنة. فاخترت قصة «آني روني الصغيرة» ورغماً أن شيطاناً كان يتقمص روح تلك الطفلة، فقد كان لحياتها ناحية المفجعة بالنسبة لها ولي. وكنت أرى تطرفاً كبيراً في صياح المدير ونحن نمثل أحلك الساعات في حياة «آني».

إن ماري تجهش في البكاء، اخلعوا أيها الأولاد أحذيتكم. وحقاً إنني بكيت كثيراً ! لقد كنت أمثل تلك الفتاة التي فقدت أمها، وها هي الآن تتلقى نبأ مقتل والدها الشرطي في معركة مع الأشقياء. فيبكي قلبها بحسرة وهي تتصور الحياة بدونه. والمؤلم أن عيد ميلاده كان في ذلك اليوم، وقد أحضرت له كهدية، ربطة رقبة مخططة، لم يعد الآن بحاجة إليها، وبذلت قصارى جهدها لعمل كعكة العيد، وصففت الشموع المختلفة في الطول، والتي تزينها باعتناء شديد،ولكنه مع كل ذلك لن يراها أو يأكلها .

وفيما نحن نصور هذا المشهد دخل القاعة رودولف فالنتينو، دون سابق إنذار، ومعه صديق قادم من أوربا. ولو أنه قدم في وقت آخر لقوبل بالترحيب والسرور، لكن مجيئه في ذلك اليوم أفقدني توازني العاطفي. فاحتجت إلى ساعات طويلة، كي أسترد ذلك المزاج الحزين لإتمام دوري عن الفتاة الصغيرة .

الفصل الثامن عشر

كنت في بيتي «بيكفير» أستمتع بالراحة بعد ما قاسيته من عناء العمل في تمثيل فيلم آني روني الصغيرة، عندما رن جرس الهاتف وخاطبني دوغلاس فسألني باهتمام : أين أنت الآن يا ماري العزيزة ؟

– إنني أقطع شارع هوليوود وأنا أجذف في قارب ذهبي .

فقال متضجراً : إن الأمر خطير يا ماري، في أي جزء من البيت أنت الآن ؟

أجبته : في البهو العلوي .

– حسناً : أصغي إلي الآن، استدعي الخادم والبستاني واطلبي منهما ألا يتركا البيت. اذهبي حالاً إلى غرفتك وأوصدي الباب. هل تسمعين ؟

وسألته وقد تغلبت حيرتي على خوفي :

نعم يا دوغلاس، ولكن لماذا اتخذ هذه الاحتياطات ؟

لا أستطيع أن أوضح لك الآن. سأترك الأستوديو وآتي إليك في الحال .

أرجو أن تفعلي ما طلبته منك .

وعلمت من لهجة دوغلاس أن الأمر جدي وليس بسيطاً .

وتغلب فضولي لمعرفة الأمر على خوفي منه، فبقيت متلهفة إلى

الوصول ليس ذلك الخوف، حتى وصل دوغلاس بعد خمس عشرة دقيقة، وبصحبته رئيس الشرطة. فاستولى علي الخوف الحقيقي عندئذ .

قال لي دوغلاس : لقد بلغ رجال الشرطة نبأ مؤامرة تدبر لاختطافك، وعدم إطلاقك إلا لقاء فدية.

وبدا لي كأن هذا الكلام عار عن الصحة أو كأنه حوار سينمائي من الصنف الثالث. ولكن رئيس الشرطة أوضح لي أنه كان مقرراً أن أكون الأولى من خمس ضحايا، هم : جاكي كوغان ثم حفيد أحد رجال المال في لوس أنجلوس، ويليهما حفيد أحد ملوك البترول،وأخيراً بولا نيغري.

قلت : ولكن كيف عرفتم بأمر المؤامرة ؟ ولماذا لم تقبضوا على الجناة؟

فأجابني الرئيس : بأنه أغرى أحد المتآمرين بعد أن صادقه، فانقلب جاسوساً على رفاقه،وبما أنه لا توجد دلائل مادية ضدهم، فإن رجال الشرطة ينتظرون منهم أن يقوموا بعمل يوفر الأدلة لإدانتهم، لقد كانوا يتآمرون في غرفة أحد فنادق الأحياء القذرة في لوس أنجلوس،فاستأجر رجال الشرطة الغرفة المجاورة حتى يتسنى لهم مراقبة تلك العصابة مراقبة دقيقة فعالة .

ثم أردف : ولكننا لن نستطيع القبض عليهم إلا أذا قاموا بحركة ما لهذا يتوجب عليك يا مس بيكفورد أن تستمري في عملك، ولا تبدلي طراز حياتك، بل اذهبي إلى الأستوديو وعودي منه في الأوقات المحددة المعتادة .

واعملي كل ما من شأنه أن يطرد عنك الشبهات أو يجلب انتباههم بأننا نراقبهم ونعلم بأمرهم. وسنقبض عليهم حالما يقومون بضربتهم .

وأكدت للرئيس أنني مستعدة لتقديم كل ما يطلبه مني لمساعدته في الوصول إلى نهاية الشوط .

ولكن دوغلاس قاطعني بشدة وقال :

إنني أصر يا حضرة الرئيس على تعيين حارس لماري !

– لكنه يفسد علينا جميع خططنا إذا لازمها في ذهابها وإيابها .

– ما رأيك إذا اقتصر عمله على البقاء في الأستوديو دون أن نكشف حقيقته إلا إلى المدير المسؤول.

وافق رئيس الشرطة على اقتراحي،فقدمت في اليوم التالي إلى رجال الأستوديو،شرطياً سرياً طويل القامة مرحاً لا تزايل الابتسامة وجهه، قدمته باسم مستر جونس. فاستغرب الجميع دخوله بيننا، لأننا كنا كعائلة واحدة نعمل معاً بين عشر ساعات واثنتي عشر ساعة في اليوم، دون أن يفضي أحدنا بسر عن الآخر. وهم الآن يرون هذا الغريب المجهول، يبرز من الخفاء، ليجعل من الأستوديو بيتاً له. وحينما كانوا يسألونني عنه، كنت أدلي إليهم بأجوبة مبهمة حذرة. ولكن حدث أن امتطى مستر جونس حصاناً ذات يوم، فبرز من تحت معطفه مسدس من عيار ٣٨. وبعدها لم تعد هناك حاجة للتحري عن شخصيته .

وأعقب ذلك فترة توتر تحطم أشد الأعصاب متانة، ونحن نترقب ما سيقوم به أفراد المؤامرة من خطوات تالية، والطريقة التي سيتبعونها في تحقيق أغراضهم. وخلال تلك الفترة لم يتركني زوجي لوحدي لحظة واحدة. فكان الخاطفون يأتون في سياراتهم كل يوم طوال أسبوعين، فيقفون قريباً من الأستوديو! أما أنا فثابرت على الذهاب كعادتي إلى الأستوديو في سيارة رولز ١٩٢٤، صغيرة مغطاة بالزجاج. هي مثال مصغر لأحدث طراز، تتسع لشخصين فقط. لم تصنع مصانع رولز رويس منها إلا اثنين. واحدة إلى البرنس اوف ويلز. والأخرى إلى ليدي مونتباتن.

واستأذنهما دوغلاس ليسمحا لي أن أقتني سيارة من هذا الطراز، وكانت هي الثالثة .

وأحب هنا أن أسجل اعترافي ببطولة بديلتي، الفتاة كريت سايكل، التي كانت ترتدي قبعتي ومعطفي، وتستقل سيارتي الرولز رويس أثناء انهماكي

في العمل، وتدور بها في أنحاء المدينة مع أنها كانت تدرك تماماً، أي خطر تتعرض له. فقد يتبادل رجال الشرطة والخاطفون الرصاص في أي لحظة، وقد تصيبها رصاصة فتقضي عليها. ولسبب ما لم يقتفوا أثرها أبداً، ولم ينقطع رجال الشرطة عن مراقبتهم بحذر ودقة.

وكان أول عمل لنا عند خروجنا من الأستوديو،هو ترقب رجال الشرطة. فأسير أنا ودوغلاس في سيارتنا الرولز رويس إلي بيكفير، وهم يتبعوننا عن بعد. وحتى لا يلفتوا إليهم أنظار أفراد العصابة، فقد كانوا يبدلون سيارتهم في كل يوم. وصدف أن حزب (الشرينرز – Shriners).

كانوا يعقدون اجتماعهم السنوي خلال هذين الأسبوعين في لوس أنجلوس، فأوحت هذه الاجتماعات للمتآمرين بفكرة شيطانية. فارتدوا معاطف وقبعات تلك الجماعة،ووضعوا أعلامهم على السيارات التي يتجولون بها. وحينما تتاح لهم فرصة اختطافي،وحين أصرخ في طلب النجدة، سيظن الناس أنهم بعض أفراد ذلك الحزب، الذين يسمحون لأنفسهم بحرية فيها الكثير من التطرف. وكشف التحقيق أخيراً عن أن الخاطفين ابتاعوا بندقية، واستأجروا بيتاً في الحي المكسيكي ليضعوا فيه ضحاياهم الخمسة .تجمعت لدى رجال الشرطة الأدلة الكافية التي يحتاجون إليها. وبقي عليهم أن ينتظروا منهم محاولة سافرة ليتدخلوا في المعركة .

وكان على رأس المتآمرين بائع سيارات. وهو ضابط سابق في الحرب العالمية الأولى. وكانت سيارته الخاصة تقف خلال الأسبوعين المنصرفين على بعد بضعة أمتار من الأستوديو،كان يساعدها رجلان أحدهما يعمل في محل تجاري، والآخر جزار سابق كان يفتخر قبلاً بأنه لم يواظب على عمل منذ سن الرشد. وعندما سأله البعض عما يفعل إذا أشهرت عليه مسدسي، فأجاب : أنه سيصرعني دون تردد .

وفجأة، وفي إحدى الليالي، دقت الساعة الحاسمة، وذلك عندما استقللت

السيارة مع دوغلاس، وترقبنا كعادتنا سيارة الشرطة. فلفتت نظري سيارة ذات غطاء قماشي تقف بعيدة عنا في الشوارع، وقد أسدلت ستائرها، ونظر ركابها إلينا من النافذة الخلفية. فلفت انتباه دوغلاس إليها حين أخذنا طريقنا غرباً في شارع سانسيت .

قال : سأراقبها يا ماري، ولكن هل رأيت سيارة الشرطة ؟

فأجبته بعد أنا فحصت المكان : إنه لا أثر لها، وكان شارع سانسيت في تلال بيفرلي طريقاً عريضاً تفصل طرفيه في الوسط مساحات من المروج الخضراء. فاتجه دوغلاس نحو اليسار لكي يستطيع الاستمرار في مراقبة السيارة الأخرى. وبدأ السباق بين السيارتين. ولما كانت سيارتنا الرولز رويس من صنع انكلترا. وكان مقودها يقع في الجهة اليمنى، فقد استطاع دوغلاس أن يراقب السيارة الأخرى وبقربها مسدس من عيار ٤٥. ثم بدأ دوغلاس يحدثني بصوت محموم :

ألقي بنفسك على أرض السيارة يا ماري، إذا بدأ إطلاق الرصاص. وكنت دائماً خلال الأوقات العصيبة الكثيرة التي مرت بنا، أحتفظ بهدوئي لأنه إذا أصابته رصاصة، ونحن نسير بهذه السرعة، فإن سيارتنا ستصطدم كقنبلة مدفع، ولن يبقى مني شيء، سواء أكنت مستلقية في أرض السيارة، أم كنت جالسة في مقعدي. وفوق ذلك فقد أردت أن أشترك معه في المعركة. لذلك عزمت على تنفيذ خطتي الخاصة، بينما كنت أؤكد له أنني سأنفذ جميع أوامره. وكنت أنوي أن أركع عند بدء المعركة، واصطاد بالمسدس، سائق السيارة التي تتسابق معنا .

وكان دوغلاس قد علمني استعمال المسدس، فأصبحت ذات مقدرة على الرماية لا بأس بها، وقد أثبت ذلك في الرابع من تموز عندما أصبت الهدف ثلاث مرات متتالية بينما فشل حارسنا النهاري في إصابته على بعد مئة وخمسين ياردة. وأدى ذلك إلى نقل ذلك الحارس إلى العمل في الأستوديو .

بلغت سرعتنا الآن ثمانين ميلاً في الساعة، وألحفت على دوغلاس بالرجاء أن لا يسبق السيارة الأخرى، لكنه كان متهيجاً، وقد فقد سيطرته على أعصابه فلم يسمعني، وانحرف بشدة إلى الجهة الأخرى من الشارع أمام السيارة الأخرى. وبحركته هذه اصطدم بسيارة فورد من الطراز الحديث فتأرجحت على جانبيها، ثم انقلبت بشدة .

وصلنا أخيراً إلى فندق بيفرلي هيللز. تتبعنا السيارة الأخرى. فجذب دوغلاس الفرامل بأعصاب متوترة. وقفز من السيارة قبل أن تقف، ثم وقف في طريق السيارة التي كانت تتبعنا شاهراً بندقيته وهو يصرخ : ارفعوا أيديكم .

فسمعنا صيحة مدوية من السيارة الأخرى :

– قف يا دوغلاس. نحن رجال الشرطة. إن الخاطفين كانوا في السيارة الفورد التي اصطدمت بها .

وكان دوغلاس يسبح بالعرق البارد وتعلو وجهه الباهت صفرة الأموات وقال لرجال الشرطة بإصرار : لن أعرض زوجتي إلى الخطر مرة أخرى كما أصر على إيقاف تلك العصابة في الحال. وأصر أيضاً على أن لا تحضر زوجتي أثناء ذلك العمل .

وعندما ظهر أولئك الرجال في الأستوديو. في اليوم التالي، كان رايموند أحد أفراد الشرطة السريين في انتظارهم. فبقي أحدهم في داخل السيارة، بينما وقف الآخران بجانبهما. ولم يكن الرابع وهو الجاسوس معهم في ذلك اليوم. فقال رايموند إلى دوغلاس :

– راقب ما سأفعله يا صديقي. ثم اتجه نحو الرجل القابع في السيارة، وبضربة واحدة بقبضة مسدسه، ألقاه مغشياً عليه. ثم أشهر مسدسه، وسار نحو الاثنين الآخرين. وقال لهما بحزم :

– هل تأتون بهدوء، أم تفضلون المقاومة ؟

واستسلما، فوضع القيد في أيديهما. وعاد بهما إلى السيارة حيث ألحق بهما رفيقهما الثالث الذي كان لا يزال مغشياً عيه، وقادهم إلى باب الأستوديو حيث كان دوغلاس وأخوه مع جميع أفراد الأستوديو واقفين في انتظارهم وأخرج رايموند، وكان يرتدي ثياب الرعاة، ورقة وتبغاً ولف سيجاراً بيد واحدة على طريقة رعاة البقر وهو يتأملهم. أما أنا فلم أحضر الفصل الأخير من هذه الدراما بناء على أوامر دوغلاس. ولكنه حين عاد إلى البيت أخبرني بأنني أصبحت حرة في الذهاب والعودة إلى الأستوديو في كل وقت، وأن الخطر قد زال. فشعرت عندها بانهيار عصبي أدهشني، وأدهش دوغلاس إذ ارتجفت واستولت علي نوبة شديدة من البكاء.

وعندما تقابلت مع أولئك الذين كانوا يحاولون اختطافي، في المحكمة كنت أرغب في معرفة رد الفعل الذي يشعرون به عندما يروني للمرة الأولى خارج الشاشة. وكان الجزار السابق الذي يجلس مقابل الباب الذي دخلت منه يبلغ الثلاثين من العمر، أحمر الوجه، يبدو من شكله أنه آخر من يفكر بأن يقوم بمثل هذا الدور الشرير. وأذكر كيف انحنى إلى الأمام، وحدق بي بلطف. أما المجرم الثاني فقد ابيض وجهه حتى أصبح يحاكي ياقته، وبرقت عيناه كالمجنون .

أما بائع السيارات فكان أقل اضطراباً من رفيقيه رغم أنه كان ينظر بثبات إلى عيني. وقد حاول محاميهم بسخافته، أن يستثير شفقة المحلفين، فقارن بين سيارتي الرولز رويس وسيارتهم المتواضعة. فانبريت له أسلقه بلسان حاد، وذكرته أن زوجي ابتاع تلك السيارة من تعبه وجهده، بينما سيارتهم التي يقتنوها ليست ملكاً لهم بل إنها إحدى سرقاتهم، وقد أمرني القاضي حينذاك بالسكوت، وأصدر بعدها حكمه. واستفادوا من القانون إذ كان القاضي قد منحهم جميع التسهيلات التي يبيحها القانون، وجاء الحكم مخففاً إلى أبعد الحدود .

وأصبحت بعد هذه التجربة، أشد حذراً من ذي قبل. فأقمنا حراساً في الليل والنهار، بالإضافة إلى ما قدمته دائرة الشرطة لنا من حماية ومساعدة ووجد بعدئذ مركز لفرقة من الكلاب البوليسية في بيكفير .

الفصل التاسع عشر

بعد رحلة شهر العسل المحمومة المضنية، أصبح ديدننا القيام بمثل هذه الرحلة كل سنة، فكنا نحزم أمتعتنا في الربيع أو الصيف، أو بعد انتهائنا من إعداد فيلم جديد، ونذهب في رحلة طويلة حول العالم إلى أوروبا، وإفريقيا واليابان والصين أو إلى أي بلد آخر لم نره بعد .

ولن أنسى زيارتي لروسيا عام ١٩٢٦، رغم التحذيرات السرية التي تلقيناها بعدم الذهاب والاحتياطات التي فرضت علينا عند دخولنا أراضي الثورة المجهولة، والاستعدادات السرية التي اتخذها أصدقاؤنا احتياطاً للفرار بطريق الجو إذا تأزمت الأمور. وإنذارات دوغلاس المضحكة، ورغم كل ذلك فقد غمرتنا محبة الشعب المؤثرة المشجعة هنا، كما كانت تغمرنا في أي بلد آخر. وكانت زيارتنا لروسيا تلبية لدعوة وجهتها إلينا مؤسسة «سوفكينو» التي تمثل صناعة الفيلم الروسي، فوصلنا إلى وارسو بعد خمسة أيام من قيام فتنة دامية، ذهب ضحيتها مئات القتلى. فكانت العاصمة البولونية حين ذاك غارقة في صمت الحداد الذي ران عليها، فالشوارع خالية إلا من عربة الموتى المشؤومة التي كانت تقعقع وهي تمر أمام الفندق الذي كنا ننزل فيه. وكان يرافقني في هذه الرحلة دوغلاس وأخوه روبرت وزوجته وممثلنا في أوروبا وسكرتير دوغلاس. ولم يمض ساعتان على وصولنا إلى وارسو،

حتى زارنا رجلان أنيقا اللباس يحمل كل منهما كتاب تقديم وتعريف إلى دوغلاس. ثم أخذا يتنقلان من غرفة إلى أخرى، ويتحريان كل زاوية من زواياها، ويغلقان الأبواب وراءهما، حتى انتهيا إلى البهو ثم نظرا إلينا، وسأل أحدهما دوغلاس :

– هل عزمت حقاً أن تأخذ مدام ماري بيكفورد إلى روسيا ؟

فأجاب دوغلاس : نعم .

– ألستما خائفين ؟

– كلا ، ولماذا تخاف ؟

– إننا قادمان في مهمة خاصة، هي أن نحذركما من الخطر الذي يترتب على ذهابكما إلى روسيا، ولكن إذا كنت تصر على الذهاب، فإننا ننصحك بالسفر وحدك وبقاء مدام بيكفورد هنا إلى أن تعود. والتفت دوغلاس إلي وقال : ما رأيك يا حبيبتي : هل أنت خائفة ؟

– كلا ، إنني لا أريد أن أفارقك وسأذهب معك .

ولم أعلم حتى عدنا من روسيا أن دوغلاس وضع بالاشتراك مع فلويد جيبونز المراسل الحربي، خطة تمكننا من الهرب فيما إذا تأخرنا في الخروج عن ساعة معينة، ويوم معين، فيطير جيبونز إلى مطار صغير يعرفه في ضواحي موسكو، ليحاول إنقاذنا .

وعندما بلغ القطار الذي نستقله الحدود الروسية، خرج جميع الذين يستقلون القطار منه فلم يبق سوى المهندسين، فتملكني شعور غامض يتخلله الخوف بأننا نجتاز نهر ستيكس أو أي حاجز مماثل يسير باتجاه واحد. ولا أذكر الآن الاتساع الحقيقي للمنطقة المجردة بين روسيا وبولونية في ذلك الزمن غير أني أظن أنها بين خمسة أميال وعشرة. وأخيراً وصلنا إلى مينسك في الساعة الحادية عشرة، في ليلة ظلماء لا أثر فيها لشعاع من ضوء القمر والنجوم حيث شرع رجال الجمارك بفحص أمتعتنا في الدار التي اتخذوها

مقراً لأعمالهم وهي دار بسيطة يضيئها نور ضعيف، وقد تراءت وكأنها أحد الأكواخ في الأصقاع الشمالية النائية من كندا .

وبينما كان بعضنا يرجع متاعنا إلى الحقائب. إذ برجل من القوزاق، حليق الشعر، ضخم الجثة، يرتدي قميصاً أزرق باهت اللون، يشير إلي وإلى لوري زوجة شقيق دوغلاس أن نتبعه ففعلنا، وخرجنا خلفه في تلك الظلمة وأنا أتوقع أن يتبعنا أحد أصدقائنا أو يلقي نظرة نحونا. وكان شعاع ضعيف من النور الكهربائي، يرسل نوره من ذلك البناء البسيط، ثم أشار لنا القوزاقي، الذي تبين لنا بعد ذلك أنه حمال عينوه لخدمتنا بأصبعه، فرأينا أمامنا عربة قطار خصوصية فخمة، زينت أبوابها ونوافذها بأغصان شجر الشوح دلالة على الترحيب بنا وابتهاجاً بمقدمنا. وفجأة رأيت دوغلاس يندفع خارجاً من الجمرك وهو يغلي من شدة الغضب وما إن وقعت عيناه علي حتى صاح بي:

– لا تتركيني أبداً بعد الآن مهما كان السبب، وإنني أصر على أن لا تبعدي عني حتى ولا خمسة أقدام. اذكري في أي مكان نحن .

و بعد أن عاد القطار البولوني إلى وارسو وفحصنا أمتعتنا بدقة، انتقلنا إلى القطار الروسي. وهو ذو خط عريض وعربات واسعة، وقد استولت علينا الدهشة من عظمة وفخامة العربة التي وضعوها تحت تصرفنا، فمن الأثاث المزين إلى غرفة الجلوس الفخمة والمدفأة المتقنة الصنع، وزال إعجابنا ودهشتنا عندما عرفنا أخيراً أن تلك العربة كانت عربة القيصر والقيصرة .

استيقظنا في الصباح على صوت طارق يقرع باب غرفتنا، فإذا أحد المصورين ينتظرنا. ولم يكن لدي أي اعتراض على تسهيل مهمته، فاستأذنته ووقفت أمام مرآة صغيرة لأصلح هندامي. ولكني لم أكد أنظر إلى وجهي في المرآة حتى أصابتني الدهشة فصرخت. والسبب أن تلك الليلة كانت حارة احتبس هواؤها، ففتحت النوافذ بعد أن وضعت ثيابي الداخلية وعلبة المساحيق

على المنضدة، ولاحظت حين استيقظت مع طلوع الفجر أن الوسادة سوداء، مع أني رأيتها بيضاء قبل أن أستسلم لنوم عميق في تلك الليلة .

وحدثت نفسي فقلت : إن هذا شيء عجيب، ولكني عندما مررت بيدي فوق الوسادة، رأيت خطاً أبيض ارتسم فوقها، فعلمت أنه هباب الفحم، الذي انتشر في كل مكان من تلك الغرفة، وشرعت بمسحه عن عيني وشعري قبل أن أتناول عصير البرتقال أو قهوة الصباح، وقبل أن أواجه آلة التصوير السينمائي .

قليل من الناس يدركون مدى الاستعدادات الكبيرة التي تسبق التصوير السينمائي. تجتمع الممثلات عادة في الأستوديو في الساعة السادسة صباحاً استعداداً للوقوف أمام الكاميرا في التاسعة، فينظفن شعورهن بالشامبو ويصففنها عند أحذق الحلاقين. ثم تجري الاختبارات على مختلف ألوان الكريم، والدهان، والبودرة، وأحمر الشفاه، والنماذج المختلفة لتصفيف الشعر. ويساعدهم عدد كبير من خبراء الماكياج لإتمام استعداداتهن للوقوف أمام الكاميرا .

أما أنا فقد كنت في ذلك اليوم شاحبة اللون مشعثة الشعر. فاقدة الشهية. ضعيفة لم أذق طعاماً. رغم أني على وشك الوقوف أمام عدسة التصوير في عربة القطار يضيئها نور خافت وقد حاولت أن أتفادى هذه المحنة، ولكن جهودي ذهبت دون طائل. وأخيراً رضخت للأمر الواقع ولكني طلبت من المصور أن لا يقترب بآلته مني، فلم يستمع إلى قولي. غير أنه حاول أن يرفع معنوياتي. فرفع رأسه من خلف الكاميرا وقال لي : «ماريوشكا» ثم توقف بضع ثواني وأردف يقول : «أحبك». فكنت كل مرة أغتصب ابتسامة، وأشكره. وبقينا على هذه الحال معظم فترة الصباح، ولا أدري بعد ذلك ما الذي فعله بهذه الأفلام الطويلة .

وكانت تنتظرنا حفلة استقبال مؤثرة في إحدى المحطات الصغيرة المجاورة لموسكو، فقد جلس عدد كبير من الممثلين والممثلات طوال الليل،

على مقاعد خشبية في عربة قطار من الدرجة الثالثة ينتظرون قدومنا ليقدموا لنا احترامهم ويرحبوا بنا، وكانوا يحملون باقات الزهور التي ذبلت من طول الانتظار. ولقد كانوا في غاية الجمال والظرف ذوي عاطفة جياشة رغم ثيابهم البالية. وقد حاول بعضهم أن ينقل لنا بالانكليزية، كيف أنهم شاهدوا جميع أفلامنا، وأنهم يرحبون بنا في روسيا. وبعد ذلك الاستقبال الحار استأنفنا رحلتنا إلى موسكو برفقة هؤلاء الرجال والنساء ممن يمثلون على المسرح السوفياتي. وكنا كلما بلغنا محطة، نقدم إلي النساء والأطفال الذين يرحبون بنا علب الحلوى التي تزودنا بها من وارسو. وقد أدركنا سلفاً مقدار الحفاوة والاستقبال الحار الذي ينتظرنا في موسكو. بعد أن رأينا الطريق التي استقبلنا بها الممثلون والممثلات. غير أننا لم نحسب حساب الجمهور الغفير البالغ عدده مئة ألف شخص، والذي كان يزحف إلى المحطة لاستقبالنا. فتيان وفتيات يتسلقون الأعمدة، وكتل متراصة من الناس تحتشد أمام القطار وعلى درجاته، وفي داخل المركبات حتى أصبح المرور بين هذه الجموع البشرية المتراصة معضلة أشبه بمناورة حربية. وعلى أثر احتجاج دوغلاس الشديد أمسك بيدي ضابط طويل من شرطة السير، يضع نظارة سميكة على عينيه كما أمسك المصور بيدي الأخرى. وسارا بي وهما يكادان يحملاني حتى أخرجاني من عربة القطار، واندفعا يخترقان جموع الناس وعرفني أحد الصبية فصاح : «ماريوشكا». واتجه نحوي. لكن الجمهور دفعه جانباً فوق كومة من علب اللبن. فحاولت أن أرى ما حل به غير أن الجموع حجبته عن عيني. واجتاز بي الرجلان بوابة خشبية لأحد الأبنية الحكومية. وأظنها إدارة البريد. فاعترضنا رجلان مسلحان ببندقيتين. وعندها أخرج الشرطي الذي يرافقني هويته، ثم أوضح لهما شخصيتنا، وسرنا إلى حيث كانت تنتظرنا سيارة محملة بالزهور والفريز البري. أما دوغلاس، الذي كان يركض ورائي على بعد بضعة أقدام. فلم يكد يبلغ البوابة إلا بعد أن أغلقها الحرس فداخله الشك. وخشي من حدوث لعبة دنيئة. فتسلق البوابة. ثم قفز بلا وعي ولا

إدراك خلال الثغرة الكائنة عند القمة فسقط وسط السيارة فوق باقات الزهور والفريز البري. وألقى مريبة على البقع الحمراء التي تلوث ثوبي الأورغاندي الأبيض .

وصرخ وقد أذهله الرعب : في أي جزء من جسمك أصبت بهذه الجروح ؟

– في قدمي فقط. لأنك قفزت عليها.

– ما هذا الدم الذي على ثوبك ؟

– أوه : إنه من الفريز فقط

– فريز ! من أين أتى الفريز ؟

– من أحد المعجبين الروس ؟

وبلغنا أخيراً فندق متروبول. ونحن على وشك الإغماء من شدة الإعياء ولكننا فوجئنا بدعوتنا إلى أربع حفلات كوكتيل. وثلاث حفلات عشاء .

قضيت مع دوغلاس أسبوعاً. مكتظاً بالدعوة إلى الحفلات والاجتماعات والأعياد الفخمة في موسكو. يرافقنا فيها أساطين السينما على الدوام ويغمرونا برعايتهم ولطفهم. والتقينا بالطبع بالمدير أيزنشتاين. الذي شاهدنا تحفه الرائعة بوتمكين في عرض خاص قبل زيارتنا لروسيا. فأخبرت أيزنشتاين كيف أن يدي تجمدت وهي تقبض على المظلة. فاضطررت إلى فتح أصابعي باليد الأخرى عند انتهاء الفيلم. وقد دهشت عندما اكتشفت أن أيزنشتاين وغيره كانوا يعرفون مثلنا أو أكثر منا، ما يحدث في هوليوود، وعن شؤون الإنتاج والميزانيات والقصص والممثلين. وما زاد دهشتي هو مقدرتهم على معرفة أسماء الكواكب الأميركيين الذين أفل نجمهم، ومن حل محلهم. لقد كانوا على علم واسع في كل ما يتعلق بالسينما على وجه العموم، فلم يكن في وسعي إلا أن أفكر في الرباط الوثيق الذي يصل بين فناني العالم مهما تباعدت آراء حكوماتهم .

لقد أسفت كثيراً لعدم استطاعتي رؤية قصر الكرملين من الداخل وكان من المنتظر أن أزوره مع دوغلاس قبل زيارتنا لروسيا.

غير أنني لم أستطع أن أتحمل من التعب أكثر مما تحملت، فأغمي علي في صباح ذلك اليوم، ولزمت فراشي بينما ذهب دوغلاس لوحده. وعندما عاد إلى فندق الميتروبول في ذلك اليوم أدهشته كثرة الجماهير التي كانت تنتظر أمام الفندق، والتي لزمت ذلك المكان منذ وصولنا، فيذهب البعض ويحل محلهم فريق آخر، حتى أصبح عددهم عظيماً، فلا يستطيع أحد أن يدخل أو يخرج من الفندق، فترى الفرسان من رجال الشرطة يبعدون الجمهور وهم على ظهورالخيل والناس ينادوننا باسمينا، فنلوح لهم بأيدينا من النافذة، إلى أن استولى اليأس على دوغلاس، فأمسك بمراسل أمريكي يتكلم الروسية ونزل به إلى الطابق الثاني وطلب منه أن يوضح للجمهور أنني مريضة وأن الجهد الذي صرفته في هذه الزيارة كان أقوى مما أتحمل، وأنني أحتاج للراحة، لأننا سنبارح موسكو في مساء ذلك اليوم، وأن علي أن أبقى هادئة في الساعات القليلة الباقية مهما كلف الأمر .

وعندما سمع أولئك الآلاف من الرجال والنساء والأطفال الذين تجمعوا في الشارع أمام فندق الميتروبول هذا الكلام، صفقوا بطريقة حماسية مؤثرة لن أنساها أبداً. لقد صفقوا دون أن يصدر عنهم أي صوت ودون أن تتلامس أكفهم، ثم تفرقوا بهدوء .

لم تكن جميع رحلاتي بالطبع مثيرة بمقدار ما كانت رحلتي إلى روسيا، غير أنه يخيل إلي أنني ودوغلاس لم نرجع من أية رحلة دون أن تكون لنا فيها حادثة مربكة تستحق الذكر .

وإني لأذكر زيارة قمت بها إلى الكونتيس دي فراسو في قصرها فيللا ماداما، في روما في ربيع عام ١٩٣٣. وكانت في إحدى الليالي تنتظر قدوم ولي العهد الأمير أومبرتو. فعلمت أنه يجب علي أن أرتدي ثيابي وأنزل إلى الطابق الأسفل، قبل وصوله مع حاشيته الملكية. وبينما كنت أدهن وجه

الكونتيس دي فراسو بالمساحيق، أرسل إلي سوء حظي، دوقة ايطالية عجوزاً دخلت الغرفة ورأت دلائل نجاحي في التزيين ترسم على وجه الكونتيس، فألحت علي أن أزين وجهها أيضاً. فسمحت لنفسي بعشر دقائق لإتمام هذا العمل. غير أن تحويل وجه الدوقة إلى ما يشبه وجه إحدى فتيات هوليوود الجميلات لم يكن عملاً هنيئاً، فكانت النتيجة أن اضطررت لأن أتغاضى عن الاستحمام وأهمل تزيين وجهي. وقرعت الخادمة الباب وقالت :

أمامك ثلاث دقائق لكي تنزلي إلى الطابق الأسفل.

وكنت قد اشتريت قطعة جميلة من الثياب تربط في الوسط بعروة وزر صغير من اللؤلؤ. فبينما كنت أدخل الزر في العروة. عادت الخادمة لتعلن وصول سموه الملكي. فأسرعت بالنزول من الدرج الرخامي العريض دون أن أنتظر المصعد أو آخذ علبة البودرة. واجتزت القاعتين الكبيرتين مارة فوق الأرض المرمرية الملساء. وانحدرت في الطريق ذات القناطر الفخمة حيث كان يقف الحاجب الملكي الذي أعلن قدوم السنيوريتا ماريا بيكفورد.

شعرت في تلك اللحظة، بدبيب بطيء يسير نحو الأسفل فقلت في نفسي: «يا إلهي إن ذلك لن يكون». ثم تجمدت فجأة من الرعب. فلم أستطع حراكا، لقد سقطت قطعة الثياب ذات الزر اللؤلؤي، واستقرت حول كاحلي، وتوقف الناس عن الكلام، وساد سكون تام برهة من الزمن فلو كنت سريعة الخاطر لخطوت برقة، وتخلصت من الثوب وسمحت للحاجب أن يلتقطه عني. غير أني نظرت إليه كما لو كان مسؤولاً عن عدم تثبيت الزر. ثم انحنيت والتقطت الأشياء التي لا يصح ذكرها. وحملتها تحت ذراعي الأيسر وسرت بوقار نحو المضيفة، التي كانت تقف بجانب الأمير وقلت وأنا أنحني باحترام عميق :

مساء الخير، يا صاحب السمو الملكي .

وبذلك انفرج التوتر السائد. وانفجر جميع من في القاعة بعاصفة من الضحك الشديد. وأذكر مقابلة ملكية تأخرت فيها أيضاً. ففي صيف عام

١٩٢٦ تلقيت ودوغلاس دعوة لمقابلة ملك وملكة اسبانيا في دار السفارة الأمريكية في مدريد. فمرضت خادمتي ذات يوم. واضطررت لفتح حقائبي وإخراج ثيابي وأدوات زينتي من الحقائب الكبيرة وحقائب اليد. وكان دوغلاس ينتظر خروجي بفارغ الصبر. فبينما كنت في السيارة. أدركت وأنا في الطريق. أنني اقترفت أول خطأ. وهو أنني نسيت قفازي الأبيض. وعندما بلغنا دار السفارة. علمنا أن صاحبي الجلالة وصلا قبلنا .

وكنت أرى قاعة الاستقبال الكبرى من مدخل البهو. وكانت الملكة تجلس في أحد الأطراف. وترتدي ثوباً من الساتين الأحمر الموشى بالماس واللؤلؤ. ويحلي جيدها عقد من الماس. وفي يديها أساور ماسية. وعلى رأسها تاج عظيم. ثم أجلت ناظري في ثياب النبلاء الاسبانيين البراقة التي تتألق بما عليها من الأوسمة. وانتقل نظري من الثريات المصنوعة من الكريستال إلى الأرض المصقولة. فتذكرت فجأة أنني أهملت شيئاً آخر لقد نسيت أن أكشط نعل شبشبي الجديد. وفي ذلك مخاطرة بأن تزل قدمي فوق هذه الأرض الملساء. وأدركت في تلك اللحظة أيضاً، أنني نسيت أن أزيل الأحمر عن شفتي. فلما كان من واجبي كأي شخص آخر أن أقبل القفاز الأبيض الذي تلبسه الملكة في يدها، قررت أن لا تمس شفتي قفاز الملكة مهما كلف الأمر .

قلت لنفسي : والآن يا ماري. هدئي روعك، وطيبي نفساً أن هذا ليس إلا فيلماً سينمائياً، وجميع الموجودين، بما فيهم الملك والملكة، من الكومبارس، ارفعي يدك عالياً وسيري ببطء.

وسلط الحاضرون علينا نظاراتهم عندما تقدمنا أنا ودوغلاس لتحية الملك والملكة. وأخبرني دوغلاس بعد ذلك. أنه كان يحمل في تلك الحفلة وسام المعارف الفرنسي الذي قدمته إليه الحكومة الفرنسية عندما كان في باريس .

هذا الوسام الذي كان يكبر ويتسع في مخيلة دوغلاس كلما اقتربنا من السدة الملكية حتى أصبح وكأنه يسير أمامه. وكان على يقين، وقد أصبح وجهاً لوجه أمام الملك، أنه سيقول له :

إن العالم يا فيربانكس يدين للفنان بكل شيء .

وأنه سيجيبه ببساطة واقتضاب. وأخيراً تم تقديمنا إلى الملك والملكة .وكانت الملكة في غاية الظرف، فسألت عن ابن عمها لورد وليدي مونتباتن. وسألتني عما إذا كنت قد رأيت طفلتهما الجديدة باميلا. فأكدت لها أن باميلا من أجمل الأطفال الذين رأيتهم في حياتي، وأن «ديكي وادوفيا» تتمتعان بصحة جيدة. وفي هذه الأثناء بدأ الملك حديثه مع دوغلاس فقال :

أخبرني يا فيربانكس عما حل بذلك الكوميدي المرح فاتي، وكان ارباكل قد مر بتجربة فاضحة نتج عنها اعتزاله الاضطراري .

فقال دوغلاس : إنه لسوء الحظ، قاسى كثيراً من المصاعب.

فقال الملك : نعم، لقد علمت بذلك، مع الأسف الشديد، غير أن هذه الأمور قد تحدث لأي منا .

ثم أردف يقول : إنني والملكة نفتقد مشاهدة أفلامه في القصر. لأننا من أشد المعجبين به .

فقال دوغلاس، هل تسمحون لي أن أنقل إليه ذلك يا مولاي، فإن ذلك يعني كل شيء بالنسبة إليه .

فقال الملك : نعم. أرجو أن تفعل ذلك، قل له أننا نفتقده، ونأمل أن يعود سريعاً إلى الشاشة .

وعندما وقفنا بعد ذلك في الشرفة، سألني الملك .

– هل تظنين أن فتياتنا جميلات كبنات هوليوود !

فأكدت له أنهن كذلك وأن بنات هوليوود الجميلات يفدن في الواقع من جميع أنحاء العالم بما فيها اسبانيا، ولسن أمريكيات بكل معنى الكلمة، فاستحثنا الملك بقوله :

تعالا كلاكما إلى مدريد لتمثيل فيلم سينمائي، وسأضع تحت تصرفكما جميع التسهيلات اللازمة، كما أنني سأظهر بنفسي في الفيلم .

وفخرت بتصرفي في ذلك اليوم، مع أنني تأخرت، فقد عملت كل ما أستطيع حتى لا أفسد قفاز الملكة، وحافظت على توازني أثناء سيري فوق تلك الأرض المصقولة. أما دوغلاس المسكين فقد أصيب بصدمة معنوية خفيفة بالنسبة لوسام «المعارف» بعد مدة في اكس ليبان. فقد وقفنا أمام واجهة محل لبيع الروائح العطرية، فإذا بصاحب المحل يخرج وينثر علينا رذاذاً من رائحة عطرية صنعها بنفسه. ومن خلال ذلك الرذاذ، شاهد دوغلاس وسام «المعارف» معلقاً على صدر ذلك التاجر الصغير، فكانت تلك أول مرة، أيقن فيها أن وسام المعارف لا يوازي وسام الصليب الحربي. ومهما كانت رحلاتنا مثيرة ومسلية، فإنها على كل حال لم تخل من بعض الصعوبات التي كانت تواجهني .

لم يطلع دوغلاس أبداً على الجهد الذي كنت أبذله لكي أخفي عنه اشمئزازي وضيقي خاصة في مشكلة الطعام. فقد كان أكلي قليلاً بينما كان دوغلاس يلتهم كل شيء بشهية. كان يحب المآكل الغريبة التي تأكلها جميع عروق البشر من عربية وصينية وأوروبية. لأنه رحالة، يحب الحياة ويستطيع أن يكيف نفسه حسب البيئة التي يعيش فيها. وكان ذلك مثار إعجابي الشديد به. ولكني أعترف بأنني كنت أنفجر أحياناً عندما يعضني الجوع بأنيابه. وكنت أقتصر خلال هذه المآدب العامرة على تناول الشاي، والبسكويت اليابس، ويكفي أن أقول أنني عدت من هذه الرحلات في حالة من الضعف تكفي معها ريح قوية لتحملني من لوس انجلوس إلى خليج سان فرنسيسكو .

ويحسن بي أن أضيف هنا، أن دوغلاس كان من صنف الرواة الذين لا يفسدون القصة بسبب نقص في بعض الوقائع. وكنت قد اكتشفت هذه الناحية الإبداعية عندما كنا في هونغ كونغ. فقد تجمع حولنا عدد كبير من الصحفيين، فلم أدر إلا وقد انفصلت عن دوغلاس، وحاصر كلاً منا لفيف من المخبرين والمصورين. وبدأت أسهمي تنحط بسرعة حين بدأ من حولي ينسحبون ويتناقص عددهم تدريجياً، حتى لم يبق معي إلا اثنان من المخبرين

فقد تركني من كانوا يحيطون بي وينضموا إلى دوغلاس. وكنت أشعر وأنا في مكاني بالانسجام التام العميق لتزايد جمهور فيربانكس. أما دوغلاس فلم أستطع رؤيته، ولكنني كنت أسمع صوته يقول :

وعندئذ التفت الجمل وعض ماري، وكان على وشك أن يدوسها بقدميه عندما اندفعت نحوه وأنقذتها منه .

صحيح أن الجمل عطس بوجهي، فكان هذا هو كل ما كابدته من الضرر في ذلك الفصل المخيف. وتناول المخبران الباقيان كلمات دوغلاس الأخيرة وسألاني بانفعال: في أي عضو من جسمك عضك الجمل يا مس بيكفورد ؟

ففكرت بسرعة وقلت، بذراعي

– هل يمكننا أن نرى مكان العض ؟

– لم يعد هناك أثر للعض لأنه اندمل تماماً .

وعندما أصبحنا لوحدنا في قاعة الحفلات، سألت حبيبي البارون فونشهاوزن إيضاحاً لقصة الجمل المبتكرة، فأجاب :

لقد كانت عظيمة أليس كذلك ؟

قلت له : انتظر حتى نصل إلى شنغاي واسمع ما سأحدث به الصحافة. وقبل أن أنتهي من حديثي، لم تري صحفياً واحداً يصغي إليك .

الفصل العشرون

كنت أتساءل أحياناً عما إذا كان يحق لي أن أقص شعري، ولكنني لو خيرت في هذا الأمر ثانية لرفضته .

إنه لا يمكنني أن أنسى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى صالون الحلاق في الشارع السابع والخمسين المتفرع عن الشارع الخامس في نيويورك، والذي غرست على طول جانبيه الأشجار بنظام هندسي بديع. هل أنساه وقد تركت دوغلاس في الشيري نيذيرلاند، وهو لا يكاد يصدق أذنيه، حينما أخبرته عن المكان الذي أقصده وغايتي من الذهاب إليه. أما الحلاق فقد بدا وكأنه صورة حزينة للرفض المكبوت الحزين وقد استولت عليه الحيرة والدهشة، وهو ينظر بشغف إلى هذه الكتلة من الشعر الأشقر الجميل التي تسترسل حتى أسفل خصري وأخيراً سألني :

– هل أنت متأكدة أنك لن تندمي على هذه الخطوة يا مس بيكفورد ؟

فأجبته : إنني على ثقة من ذلك، وقد فكرت ملياً في الأمر، وأعدت التفكير، المرة تلو الأخرى. فحزمت أمري على القيام بهذه الخطوة بعد أن أصبحت ضفائري هذه عقبة في طريق مستقبلي.

– حسناً، إذن، لنبدأ العمل .

وعندما أمسك بالمقص، شعرت أنه على وشك الإغماء وأنه بحاجة إلى استنشاق روح الامونياك أكثر من حاجتي إليه وأخيراً أعمل المقص في شعري بعد أن أغمضت عيني، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلامس المقص فيها شعري، هذا إذا استثنينا أيام طفولتي عندما كنت أزين شعري بغرة قصيرة وحينما رأيته لا يقسو ولا يمعن في تقصير شعري بل يعمد إلى تشذيبه، أدركت أنه يحاول إرضاء شعوري وشعوره. وكانت النتيجة أن نجت ست ضفائر من الزوال، أما البقية فسقطت في حجري، وتناثر بعضها على الأرض وإني أتصور ذلك الشعور المخيف الذي شملني حينما ألقيت نظرة على أكوام الشعر الملقاة على الأرض، ثم على الرأس الغريب الذي تراءى لي في المرآة وكم بذلت من جهد لأرفه عن ذلك الحلاق ذي الضمير الحي، ولكنني أخيراً وضعت الضفائر التي قصها في حقيبة يدي، وعدت إلى الشيري نذرلند.

وعندما خلعت قبعتي، ورأى دوغلاس رأسي أكفهر وجهه، وتراجع خطوة إلى الوراء ثم تهاوى على كرسيه، وراح يتأوه وهو يقول : كلا، هذا غير ممكن. وقد غرورقت عيناه بالدموع فقلت له :

– لكنني أخبرتك بما سأفعله

– حقاً يا حبيبتي، ولكنني لم أتخيل أنك تعنين ما تقولين، ولما بدت دلائل الندم الشديد على وجهي كرد فعل للصدمة النفسية القوية التي تجلت على سيمائه، غير لهجته وقال :

– افعلي ما يسرك يا عزيزتي، إنها ضفائرك، إنك فعلت ما اعتقدت أنه الأصلح .

ولم ينبس ببنت شفه عندما أخرجت ضفائري من حقيبتي، ووضعتها الواحدة تلو الأخرى بلطف .

وقد أرسلت بعد ذلك اثنتين منها إلى متحف سان دياغو، واثنتين إلى متحف لوس انجلوس، واحتفظت بالباقي في بيتي في بيكفير .

والحقيقة أنني كنت أتوقع تلك الصدمة لدوغلاس، وربما كنت أتوقع أن تكون بهذا الشكل. غير أنني لم أكن مستعدة لأتلقى سيلاً جارفاً من الانتقادات، وكأني أتيت أمراً اداً، أو كأني ارتكبت جريمة قتل وأنه لمن المحزن حقاً، أن يشعر المرء أن مستقبله أو جزءاً كبيراً منه على الأقل يتوقف على شعره فقط.

ولقد افتقدت ضفائري فيما بعد، وكنت أعتني دائماً بشعري فأغسله وأجعده على أصابعي. ولكنني ظننت أن التخلص منه سيحررني وهو ما تم فعلاً. فبدأت أشعر بالراحة والتحرر بصورة لم أكن أشعر بهما من قبل، كما كان هذا إيذاناً مني بالانقطاع عن تمثيل الأدوار التي كنت أمثلها. ولم يعد بالاستطاعة الرجوع إليها بعد الآن، وعلى أثر ذلك مثلت فيلم «امرأة كثيرة الدلال» وهو أول أفلامي الناطقة، وكانت النتيجة أنني حصلت على جائزة الأكاديمية، فبدت ضفائري في ذلك الوقت، ثمناً بخساً لهذا النجاح العظيم .

وفي أثناء تصوير فيلم «امرأة كثيرة الدلال» حصل صدام قوي بيني وبين مصوري المخلص، ولا أدري سبباً لذلك إلا أن يكون ناشئاً عن شعوري الجديد بالاستقلال. فقد كان يعمل معي منذ عشر أو اثنتي عشرة سنة، أي منذ كنت أمثل «أبي ذا الساقين الطويلتين» ولم يكن يجاريه أي مصور آخر باهتمامه في فنه أو شديد حرصه على إبراز صوري في أجمل وأبهى مظاهرها، وكان في الواقع فناناً مرهف الإحساس وصانعاً منصفاً يعترف بأخطائه .

وأدركت خلال مشهد صارخ ل «امرأة كثيرة الدلال»، وجوب انفصالي عن هذا المصور، رغم كل ما ذكرت عنه، فقد أخذ صوراً عديدة مجسمة لوجهي، وعندما بدأت الدموع تداعب عيني وتنساب بهدوء على وجهي استعداداً لانفجاري في البكاء، أوقف الكاميرا عن العمل. إنني أعلم أن منظري لم يكن ساراً، لأن مشهد البكاء لا يسر أحداً، غير أنني كنت أفكر فقط في حزني، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لإشراك الآخرين في الشعور به .

وفي وسط هذه الحالة من البلبلة الفكرية الشديدة، توقفت الكاميرا فجأة عن العمل كما ذكرت، وسمعت مصوري يغمغم بكلام غير مفهوم. فأحسست برجفة واستياء شديدين بسبب هذا التوقف الشاذ. وسألته بصوت جاف : ما الخبر ؟ هل انتهى الفيلم؟

– كلا يا مس بيكفورد، لقد ظهر على وجهك ظل لم يعجبني .

ولكنني ثرت غاضبة، مع أسفي لذلك فقلت :

– لن يستطيع أحد ملاحظة هذا الظل، حين أكون مخلصة في إظهار شعوري، فأجابني بدون اهتمام وكأنه لم يلاحظ استيائي الشديد : لنجرب مرة أخرى يا مس بيكفورد .

– لكنني خشيت ألا أستطيع استعادة مزاجي.

وسادت الكآبة جميع الحاضرين. فقد كانوا يعلمون أن الحق بجانبي، وأن استعادة ذلك المزاج الحزين ليس سهلاً، ومع هذا فقد حاولت عدة ساعات إتمام هذا المشهد المحزن دون جدوى، فقد تهدم ذلك المزاج الخاص وتلاشى إلى غير رجعة. كان على المصور أن لا يوقف الكاميرا بسبب الظل أو لأي سبب آخر. لأن ذلك يتيح لنا فرصة اختبار المنظر في العرض اليومي على شاشة الأستوديو. ولم ألبث أن وجدت نفسي أفكر، وأخيراً وقعت على الحل، فعقدت النية على الانفصال عنه، وعزمت أن أنجز عملي الفني بطريقتي الخاصة.

ومع ذلك فإن نهاية القصة المحزنة كانت سارة، فقد حصل مصوري على عقد آخر وبقيت صداقتنا متينة. ثم في عام ١٩٢٩ نجحت في الحصول على جائزة الأوسكار عن فيلم «امرأة كثيرة الدلال» .

إن ذكرى فيلم «امرأة كثيرة الدلال» وجائزة الأوسكار، تعيد إلى مخيلتي، ذكرى زيارة قمت بها مرة لجورج برنارد شو. وقد كنت دائماً متلهفة لمقابلة ذلك الشيخ الجليل، الذي ضاعف اهتمامي برؤيته قوله في إحدى حملاته على السينما :

– لماذا يجب علي أن أدفع ثمناً لرؤية رجل يقبل ماري بيكفورد، إذا كنت أحسن القيام بذلك العمل أكثر منه .

كم أنا آسفة حين يخيب أمل قرائي، لأن مقابلتنا كانت هادئة، جامدة. وكان الشاي أخطر المواضيع التي دار الحديث حولها ووصلت متأخرة كعادتي، بينما كنت مستغرقة في التفكير فيما ينتظرني في مثل هذه المقابلات التي يتسع بها مجال النقد.

قلت بعد أن قدمت نفسي : «يعز علي أن أتأخر يا مستر شو، ولقد تمنيت أن أموت عوضاً عن هذا التأخير» .

– ولكن لماذا ؟

– لأنني أخجل أن أقول أنني ضللت الطريق وكنت أخشى النتائج .

فضحك شو وقال : أريد أن أعترف لك بسر يا عزيزتي، فأنا لست ذلك الرجل المخيف. ولكن احذري أن تخبري الناس أنني سهل القياد لين الجانب قريب المأخذ، فأنا أريد أن أحافظ على هذه الصورة الخادعة المزيفة، وأن يظل الناس على اعتقادهم بأنني عجوز كريه. ولولا ذلك لحاصرني الناس على اختلاف أجناسهم، وضيقوا عليّ سبل الحياة الحرة الطليقة وثقي أنني اخترت هذا البيت عمداً حتى يصعب عليهم الاهتداء إليه بسهولة .

وأحضر الخادم الشاي فقلت له :

– هل تأذن أن أسكب الشاي يا سيدي ؟

أجاب : بكل تأكيد .

سألته : وكيف تريده يا سيدي ؟

أجاب : شكراً. أنا لا أشربه، وليس له تأثير علي كما أنه لا ينعشني. وعلى المدفأة قامت صورة أوسكار بطل تمثيلية بغماليون من تأليف برناردشو وبجانبها صورة من البورسلين للمؤلف الانكليزي وليم شكسبير، ففكرت بالاختلاف البين المهم بين ألوان هذا البورسلين الأثري الناعم، والوجه الجميل القسمات الآتي من هوليوود .

الفصل الحادي والعشرون

منذ اليوم الذي علمت فيه حقيقة حالة أمي، قضيت ثلاث سنوات طويلة في جحيم لا يتحمله حتى الشيطان. فقد كنا نحن الاثنين نلعب لعبة مزدوجة فبينما هي تتجاهل الأمر، كنت من جهتي أخفي عنها جزعي تحت قناع من الفرح والسرور، واهتبل الفرص لأذهب إلى الحمام، فأبكي بكاء مراً مؤلماً واضع على وجهي فوطة، وأفتح صنبور الماء على وسعه، لعل كل ذلك يساعد في كتم صوت نشيجي. ثم أضع قطعة من القماش المثلج على عيني لأزيل عنهما أثر الاحمرار والانتفاخ .وعندما أنفرد بنفسي، تنتابني نوبات ضيق قارصة سوداء من تقريع الضمير، وتتسلسل الحوادث في مخيلتي، فأتذكر أن علامات المرض ظهرت عليها وهي تقوم بعمل يتعلق بي، وأذكر كيف أن غطاء الحقيبة سقط فوق صدرها، بينما كانت تبحث عن ثوب أسود لآني الصغيرة لترتديه أثناء فترة الحداد. ولم تفه أمي بكلمة عن ذلك الحادث إلا بعد زمن طويل. وحين عادت من أوروبا على ظهر إحدى البواخر بعد أربعة أشهر، ألمحت إلى الحادث لأول مرة. لقد بدأت نوبات ألم شديدة تغزو صدرها، ومع هذا فقد رفضت إجراء عملية، حينما قرر الأطباء ضرورة إجرائها، فتوسلت إليها وألحفت في التوسل أن تعمل بما يشير به الأخصائيون وأن ترضخ لرأيهم إذا أصروا على إجراء العملية. ولكنها ظلت على عنادها

ورفضها، وذكرتني بتلك الفتاة التي كانت تعمل معها في شركة كونسي اولكوت قديماً، وما كابدت من نتائج هذه العملية .

ثم أردفت تقول : لقد تحملت في حياتي آلام ثلاث عمليات كبيرة، وليس باستطاعتي مواجهة وتحمل آلام عملية أخرى، كالتي كابدتها جوزي المسكينة.

واستشرنا أطباء آخرين، وجربنا طرق معالجة أخرى، وكانت كلها مؤلمة وعقيمة. ولم نبحث الأمر بيننا بصراحة تشير إلى خطورة الحالة واستعصاء المعالجة. ولم نكن ندرك الحقيقة في أننا فقدنا الأمل ولكن عندما تجلت لي الحقيقة المرة أخيراً، تظاهرت بالثقة التامة في إمكانية شفائها، ولا أعلم كيف تسرب الأمر لأمي، غير أني لا أعتقد أنها كانت ترتاب باقتراب نهايتها بمثل هذه السرعة .

كنت أقلب محتويات خزانتها في أحد الأيام، فقلت لها لقد حان الوقت لكي نتخلص من بعض الثياب القديمة وإبدالها بثياب جديدة، والتفت إليها وأخبرتها برأيي .

قالت : كلا يا ماري، فأنا الآن أنحف من ذي قبل، وعندما أستعيد قواي أطلب من الخياط أن يقوم بإصلاحها، صدقيني يا حبيبتي أنني سأحصل منها على كثير من الملابس اللائقة الأنيقة فأعدتها إلى الخزانة حتى لا أزعجها .

وفي خريف عام ١٩٢٧، هجرت عملي تماماً، وانتقلت مع دوغلاس إلى بيت أمي على الشاطئ، حيث قضيت هناك ثمانية عشر أسبوعاً، لازمتها خلالها كل يوم من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل، كنا نقضي معظم أوقاتنا ونحن نتلو آيات الكتاب المقدس المجيد، وأذكر أن أمي كانت تستهل يومها بالتفكير في الأعمال الخيرية التي ستؤديها في ذلك اليوم، فترسل مبالغ لا يستهان بها من المال، إلى المعوزين والمحتاجين، وتبعث برسائل رقيقة ملؤها المحبة والعطف. أو تقوم بمحادثة هاتفية إلى من يحتاج إلى تعزية أو

تشجيع وأعتقد أن أسوأ أيام حياتي كان ذلك اليوم الذي سألتني فيه أمي أن أدعها تذهب .

قالت : لا تطلبي مني أن أعيش بعد الآن يا ماري، دعيني أذهب يا حبيبتي فكلانا يعلم أن الحياة زائلة لا محالة، لأنني لا أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملت ولعل في الموت راحة لي. وإن وصيتي إليك قبل كل شيء ألا تجزعي وألا تستسلمي للأحزان وترخي لعينيك العنان .

ذهلت فلم أعد أستطيع النطق، لأنه لم يجل بخاطري أبداً أن أمي سوف تتخلى عن الكفاح، فجفت دموعي في محاجري .

وكررت : أرجو أن تعديني أيتها الحبيبة أن لا تحزني .

– أعدك يا أماه. أعدك أن لا أبكي ولا أحزن، فأنا أعلم أنك بانتظاري على الشاطئ الآخر. نعم إذا كان هذا ما ترغبين، فأني سأحني الرأس خضوعاً لإرادتك، فأدعك تذهبين .

قالت : لن أكون سعيدة في السماء، إذا علمت أنك حزينة. تذكري يا ماري أنك ستصبحين بعد الآن رئيسة العائلة، والمسؤولة عنها، فعليك أن تكوني شجاعة إكراماً لهم وحفظاً لحياتهم .

ثم أردفت بقلب يسيل حزناً ولوعة فقالت : لا تفكري يا حبيبتي أنك أسأت إلي أو أزعجتني، إنك أفضل ابنة يمكن لأم أن ترزقها. وإنني عليمة بمقدار قسوتك وظلمك لنفسك. فعديني أن لا تعكري صفو حياتك فتحكمي على نفسك حكماً قاسياً بسبب خطأ وهمي لا قيمة له. فوعدتها بينما كنت أغالب في عيني دموعي كي لا تنهمر .

لو فكرت في الأمر ملياً يا ماري، وانعكس الوضع بيننا، وكنت أنت الذاهبة بدلاً مني، لعلمت جيداً أنك ستطلبين مني أن أفعل ما طلبته منك الآن .

– هذه آخر مرة نبحث فيها هذا الموضوع. دعينا نفكر في مواضيع أكثر بهجة .

لا أذكر الآن ماذا حدثتني به حين ذاك، غير أني أذكر أنها كانت قصة مسلية وقد ضحكنا، ولم يبك أحد منا في ذلك اليوم، أمام الآخر. وبعد ذلك بيومين أصبحت تهذي ثم قالت لي قبل أن تفقد وعيها :

– ضعي يدك يا ماري بيد الرب وسيري معه، وستفعلين الخير وتؤمنين به، وتتجنبين الشر ولا تفعلينه .

وعندما دخلت أمي في غيبوبة الموت. فكرت فيها وفي التبديل الملحوظ الذي طرأ عليها في الأسابيع الأخيرة من حياتها. فقد أنار وجهها نور سماوي وظهرت إمارات الهدوء عليه، فرقت بشرتها حتى يمكن أن أقول إنها أصبحت شفافة واشتدت زرقة عينيها، وازداد لمعان شعرها الأسود الذي كان يتخلله بعض الشعر الأبيض .

وكنت أصلي والأمل يراودني في حدوث معجزة ترد الحياة لأمي، والموت منها قاب قوسين لذلك ذهلت حين بلغتني ابنة خالتي (فينلي بنسون) الخبر، وقد لحقت بها بعد وقت قصير فقالت لي :

لقد صعدت روحها إلى السماء .

فانقلبت هذه الكلمات حالاً إلى ضوضاء مزمجرة، وحروف كبيرة بيضاء تتلألأ في السماء المظلمة. واستمرت تلك الحروف بالارتفاع حتى صارت أشبه بالأبنية الشاهقة، ثم سقطت، وسقطت جميعها فوق رأسي. فتراجعت إلى الخلف نحو النافذة، فأسرع دوغلاس ليسندني، فضربته بكلتا يدي على وجهه دون أن أشعر بما أفعل .

وكان أول شيء أحسست به، هو دقات ساعة جدي وهي تعلن الثانية عشرة. ولم يكن بوسعي النظر إلى هذه الساعة التي كنت أهديتها إلى أمي لأن ذلك يؤلمني، ولم يجرؤ دوغلاس من الاقتراب مني بعد تلك اللطمة، فبقيت لوحدي، لقد كنت أشبه بحيوان متوحش في غابة بكر. وإني لأخجل الآن من نفسي حين أذكر كلمات الكفر التي تفوهت بها خلال تلك الساعات .

ثم رأيت من خلال الضباب الذي كان يغشى ناظري، وجهي أخي جاك وأختي لوتي. فأخذت أعنفهما بقسوة لتغيبهما عن الحضور حين وفاة والدتنا وكم خجلت وعضني الندم بنابه على ما تفوهت به في غمرة ذلك الضيق. أخي المسكين لحق بها بعد خمس سنوات، ولوتي التي قضت نحبها بعده بثلاث سنوات. لقد كدت أفقد عقلي نهائياً، وفي فترات من الوقت، كنت أثوب إلى رشدي، فأرى مثلاً شفتي دوغلاس، وقد ابيضتا من الحزن واللوعة أما منظر ابنة خالتي الصغيرة، وهي تستند إلى الحائط، ويداها تغطيان وجهها تبكي وتنتحب بشدة، فكانت سبباً رئيسياً في عودة عقلي إلي وأخيراً ذهبت إليها وأحطتها بذراعي أواسيها وأقول :

– أرجوك يا فرنا، أن تكفي عن البكاء وتذهبي إلى البيت، إنك تعلمين أن أمي لا تريدك أن تخاطري بحياة جنينك .

أجابت بصوت خافت ملؤه الحزن واللوعة :

لا يهمني ذلك، لا أريد طفلاً، لأني لن أستطيع أن أضعه بين ذراعي خالتي، لقد ذهبت وهي لن تعود .

– وما يدريك أنها لا تكون هنا، علينا أن نؤمن بأنها أقرب إلينا من ذي قبل. وبعد جهد أقنعتها بأن تذهب وتقيم في بيت والدتي الصيفي وتنتظر ولادة طفلها الذي كانت أمي في شوق عظيم لضمه بين ذراعيها .

وكان بيت والدتي في كاينون درايف على تلال بيفيرلي، في الطريق الذاهب إلى بيكفير، وكنت أتحاشى المرور في الطريق المؤدي إليه منذ أن استراحت أمي في مقبرة (فورست لون) وكنت أنحرف عن الطريق الذي أمر به إلى تلال بيفيرلي حتى لا تقع عيناي عليه فيثير لواعج الحزن والأسى في قلبي. وإني لأذكر آخر مرة زرته، وأخذت أسير هائمة خلال غرفه، أنظر إلى تلك الأشياء التي كانت في أحد الأيام عزيزة محبوبة لدى أمي، فمن الطنافس إلى الأواني الصينية والصور الزيتية والفضيات والكريستال إلى

آخر ما هنالك من التحف والمتاع. ثم ألقيت نظرة على السيارتين القابعتين في المرآب وإلى جميع تلك الأشياء التي أهديناها إليها أنا وجاك ولوتي. فأدركت عندئذ ما لم أكن أدركه سابقاً عن قيمة هذه الأشياء المادية التافهة، وكيف فقدت هذه الأشياء قيمتها التي كانت لها في ذلك الحين. وكأولئك الذين فقدوا عزيزاً لهم، وجدت نفسي أتساءل عن حقيقة قصص الاتصال بالأرواح .

وكنت في أقصى شوق وعلى أتم استعداد لبذل كافة الجهود الممكنة للاتصال بأمي. لكني على ثقة بأنها لا ترغب بهذا وسيكون استياؤها شديداً، وارتأيت أخيراً أن لا أعبث بمواضيع خطرة من هذا النوع. وأخذت أسري عن نفسي حزنها وأساها .

ولم يمض زمن طويل على موت أمي حتى بدأت أراها في أحلامي، فرأيتها في المرة الأولى وقد عادت إلى غرفة نومها .

صحت : آه يا أماه، إنني سعيدة جداً لرؤيتك. وإني أصلي كل ليلة لكي ألتحق بك .

فرأيتها ترفع يدها اليسرى أمام وجهها وتقول :

– لا تفعلي ذلك، إنه خطر .

– هل أكون بجانبك عندما أنتقل إلى العالم الآخر ؟

– لا أستطيع الآن أن أقول شيئاً يا حبيبتي. إن ذلك يتوقف على نوع العمل الذي تقومين به في ما بقي من حياتك .

لازلت حتى الآن أرى أمي في أحلامي، كما كانت في الشهور الأخيرة في بيتها عند الشاطئ حين كنا نقوم بلعبتنا الحزينة في التصنع، رأيتها باسمة الثغر، شجاعة، أنيقة كقطعة نفيسة من الصيني. وكان من دواعي هدوئي السرمدي أني سأكون معها، طالما استطعت أن أراها في المنام .

الفصل الثاني والعشرون

عندما أعود بذاكرتي إلى سني زواجي من دوغلاس، أتبين الآن، أنه كان يحبني أكثر مما كنت أحبه، وأنه بقي كذلك حتى الوقت الذي أدرك فيه أن الشباب أخذ يفلت من بين يديه، فاستولى عليه اضطراب وتبرم غريبان. وبدأ يفقد ثقته بنفسه. واعتقد أن مقدرته على إثبات البرهان لنفسه أعاد إليها الثقة وجعلته يعمل بالتالي بالطريقة التي كان يعمل بها .

كان دوغلاس يواجه مشاكله دائماً بالطريقة التي يتقنها وهو أن يعمل على التهرب منها. وقد جعلني نظراً لحالته هذه أؤدي له أعظم الخدمات. فقد كنت دائماً أفضل مواجهة الحوادث بدون مواربة، أما هو فقد رمى بأحماله على كتفي، لذلك أصبحت موئله الذي يخفف مصاعبه وأعماله، وكان كثيراً ما تطغى عليه موجة من الحماس، فيدعو بعض أصدقائنا لقضاء فترة الصيف معنا في بيكفير، أو يعطي وعداً بالتقاعد مع شخص آخر لأمد طويل ثم لا يلبث أن يندم على تهوره في الصباح التالي، فيسألني :

– هل تستطيعين تدبير ذلك الأمر يا ماري ؟

وقد استطعت في أغلب الأحيان أن أصلح الأمور باستثناء مرة كان دوغلاس قد دعا فيها زائراً ليقضي في بيتنا أسبوعاً فبقي عندنا ثلاثة عشر شهراً. ومما يدعو إلى السخرية والشفقة في آن واحد أن أولئك الأشخاص

أصبحوا يكرهونني ويحبون دوغلاس، لأنه رسخ في أذهانهم أنني أسعى لأفصل بينهم وبينه رغم محبته لهم .

كنت ذكرت شيئاً في فصل سابق عن غيرة دوغلاس المتناهية، وكنت قد وطنت نفسي وعودتها خلال سني زواجنا الأولى على تحملها ولكنها أصبحت أخيراً محنة لا تطاق. وكان دوغلاس يغار من أمي وهي تبادله نفس الشعور فأضحى ذلك مصدر قلق وألم شديدين لمن مثلي، ولما كنت أكنه لكليهما من الحب والإخلاص، ومع ذلك فقد كانت أمي تضبط عواطفها في أغلب الأحيان، بينما لم يكن دوغلاس يقوى على ذلك. ولم أر مطلقاً رجلاً مثله يمكنه أن يستشف بنظرة بسيطة كل المعاني الصحيحة في أي أمر يحتاج إلى بحث، ولعلمي بأن مرضه هذا لا يؤمل له شفاء، فأني شاركته شقاءه، وبذلت قصارى جهدي لأخفف آلامه، وانقطعنا عشر سنوات عن ارتياد المطاعم والنوادي فلم نكن نذهب إليها إلا نادراً .

وزاد في عذابي أنه لم يكن لي أصدقاء في مثل سني، كما أن جميع الذين كانوا يترددون علينا لقضاء عطلة آخر الأسبوع في بيكفير كانوا أكبر سناً من دوغلاس نفسه، وجلهم من النساء والرجال المسنين. وفي أحد الأيام ظهر رودولف فالنتينو فجأة في حديقة قصر بيكفير التي كانت بمثابة غرفة استقبال صيفية خلال الأشهر التي يشتد فيها الحر. فلم أر في حياتي رد فعل سريع كالذي رأيته من دوغلاس في ذلك اليوم فقد أوضح لفالنتينو أنه لا يرغب أن يراه، ولن يستقبله بترحاب قط، ولم كن أذهب إلى البلدة دون أن أخبر دوغلاس، ثم أتصل به هاتفياً حين أصل إلى المكان الذي أقصده. ولما كانت مثل هذه الأمور تزعجني وتعكر مزاجي، فكنت أفضل ألا أخرج من البيت، وفي نفس الوقت لم أكن أسأله حين يفارقني شيئاً، فقد كان لي به ثقة عمياء. أما ما علمته عنه بعد ذلك فهو يخصني وحدي، ولا يتعلق بغيري، لذلك فأنا لم أناقش أحداً به. وليعذرني القراء في أن لا أبحث تفاصيله معهم أيضاً .

بدأت أشعر بتغير سلوك وأخلاق دوغلاس منذ عام ١٩٢٥، كان السبب في ذلك مللاً عصبياً واضطراباً عاماً. وكانت تنتابه نوبات قاسية من الاضطراب لأتفه الأسباب عندما لا يعجبه شيء في بيته أو عمله أو من أصدقائه وقد رفضت الذهاب معه إلى أوروبا مراراً عديدة لأنني أيقنت أنه من الصعب علي جداً أن أرافق رجلاً يرتكز كيانه على الحركة، كما أنه لا يستقر ولا يهدأ مهما كان السبب تافهاً .وقد أخبرني سكرتيره الشاب الذي رافقه في تلك الرحلات الجنونية، أن الأمر بلغ بدوغلاس مبلغاً لم يعد يستطيع معه البقاء أكثر من ليلة في مكان واحد، فكان لزاماً على السكرتير عند وصولهما إلى أي بلد، أن يشتري بطاقات السفر في القطارات، والطائرات الذاهبة إلى مختلف الاتجاهات، لأنه يجهل ما سيقرره دوغلاس بعد تناول طعام الغذاء. وكان لا يخرج من الحقائب إلا ما كان ضرورياً لقضاء تلك الليلة، كفرشاة الأسنان، والمنامة (البيجاما) والخف وما شاكله .

كنت ودوغلاس نمثل معاً عام ١٩٢٩ في فيلم «ترويض المرأة الشرسة» فلاحظت أنه قد تغير تماماً عما كان وكأنه أصبح رجلاً آخر يختلف تمام الاختلاف عما عرفته فهو لا يبدي اهتماماً بي ولا يكترث بمراعاة شعوري.

وكان دوري القيام بتمثيل دور (كاترين) في فيلم «ترويض المرأة الشرسة» ولا أرى بداً من الاعتراف بأنه كان من أسوأ الأدوار التي مثلتها فقد كنت أقفز بعصبية من الصباح إلى المساء أثناء التمثيل حتى اضطر المدير أن يقول لكونستاس كوليه (معلمة الدراما) ذات يوم، إننا لا نريد هذا التمثيل المسرحي، بل نريد حيل ماري بيكفورد القديمة في التمثيل .

ولو علمت بهذا الرأي قبل المضي في إخراج الفيلم، لكافحت إخراجه بشدة. أما الآن وقد مرت السنون على تلك الحوادث، فإن بمقدوري أن أرى بوضوح أي تأثير كان لحيل بيكفورد على حوار القصة وحركاتها .

أما دوغلاس الجديد والغريب الذي يمثل أمامي فقد كان بيتروشيو آخر في الحياة الحقيقية تنقصه فكاهة ومداعبة الرجل الذي (روض طباع كاترين الشرسة) وقد اشتركنا أنا ودوغلاس بإنتاج هذا الفيلم وتمويله بالإضافة إلى تمثيله. وكنا نبدأ العمل في الأستوديو في الساعة التاسعة، غير أن دوغلاس كان يطيل أمد استحمامه الشمسي وألعابه الرياضية اليومية لدرجة اضطر معها لانتظاره على المسرح في أغلب الأحيان حتى الظهر. وكان تأخره هذا يكلفنا نحو ثلاثين دولاراً في الدقيقة الواحدة. ومع هذا فحين يصل أخيراً، لا يكون حافظاً للحوار، فيضطرون لكتابته له على ألواح كبيرة سوداء، كما اضطر أحياناً إلى الوقوف في وضع غير طبيعي أو أحرك رأسي أو أميل به إلى جانب ليتمكن من قراءة الحوار. وطالما اضطرنا ذلك إلى إعادة التمثيل المرة تلو الأخرى، ومع كل ذلك فلم أر من المناسب أن أظهر حقيقة شعوري أمام عشرات العيون المركزة علينا والتي تراقب كل حركاتنا وسكناتنا في كل دقيقة من اليوم .

وقد كان الجهد والتوتر اللذان سادا تلك الشهور يختلف اختلافاً محزناً عن جو الصداقة والعمل المشترك الذي كان يسود أستوديو بيكفورد- فيربانكس في السنين الماضية. فقد كانت لنا شهرتنا الطيبة في كل مكان في هوليود. وكانت المكافأة الكبرى التي أحظى بها دائماً، هي حب وإخلاص عمالنا في الأستوديو لي ولدوغلاس. لقد كنا دائماً في نظرهم ماري ودوغ. أما خلال تمثيل «ترويض المرأة الشرسة» فقد كان المكان مشحوناً بالتوتر والصمت. وفي إحدى المناسبات التي مثلت فيها أحد المشاهد، سألت دوغلاس هل تتضايق إذا أعدنا تمثيل هذه اللقطة يا دوغلاس ؟

فكان رده أن قال : نعم، أتضايق بدون شك .

وكانت نهايتي في تمثيل هذا الفيلم. فقد تلاشت ثقتي بنفسي، لم أعد أتمكن من الوقوف براحة أمام الكاميرا أو الميكروفون. فقد تبخرت تلك الثقة التي كنت أتميز بها عند تمثيلي «المرأة المدللة» .

وبعد انتهائي من فيلم «ترويض المرأة الشرسة» أخرجت فيلم «أسرار» ولا تسأل عن سوء الحظ الذي لازمني حتى خرجت منه بخسارة ثلاثمئة ألف دولار، بعد أن اضطررت إلى إحراق الفيلم السالب. وتلت ذلك كارثة أخرى في فيلم اسمه «كيكي» وقد انتهيت من إخراجه قبل أن أعود إلى فيلم «أسرار» لأصلح الفيلم والقصة. وقد جعلت منه فيلماً جيداً معتبراً. ولكن سوء الحظ الذي لازمني أول مرة حين إخراجه لازمني الآن ثانية حين عرضه .

كان يوم افتتاح عرض «أسرار» في خمس وعشرين مدينة كبيرة هو اليوم الذي أعلن فيه الرئيس روزفلت عيد المصارف. وتوقف أغلب رواد السينما من ارتيادها في الأسابيع التالية. ومع أن الجمهور قد استقبل الفيلم استقبالاً حسناً، ولكنه كن بالنتيجة كارثة مالية ضخمة .

إنني أرتجف الآن عندما أتذكر الحوادث الحزنة الكئيبة التي تزاحمت وهي تحمل مفاجآت شالة في هذه الأعوام القليلة. الفراق بيني وبين دوغلاس ... سلسلة الفشل والإخفاق في الأعمال السينمائية التي كلفتني غالياً وثبطت عزيمتي، والتي تلت فيلم «المرأة المدللة» ... وتبعها إجرائي عملية خطرة، ثم جاء أشد الكوارث وطأة وهو ... موت أمي الحبيبة وأخي جاك، وأختي لوتي وخالتي ليزا، وجميعهم قضوا خلال سنوات قليلة .

وقبل أن أبدأ الحديث عن الفترة الأخيرة المحزنة من حياتي مع دوغلاس فيربانكس، دون أن أدلي برأيي في بعض الأمور التي لها صلة بأمور الزواج في هوليوود، فإني كنت على ثقة، دائماً من أنه لو حاول الناس في هوليوود حل مشاكلهم بأنفسهم، لنقصت نسبة حوادث الطلاق في المحاكم.

إني أتساءل أحياناً عما إذا كانت ضمائر أولئك الثرثارين المحترفين لا تؤنبهم في ساعات الليل، ولا تؤرقهم. أما أنا فإني أعتقد أننا سنحاسب عندما نكون مسؤولين عن سيئاتنا. فهل هم كذلك ؟ وإذا كانوا كذلك، فسيسبب لهم ذلك قلقاً شديداً وخوفاً على الأرباح الوافرة التي حصلوا عليها بشهرة غامضة

مؤقتة ربما كانت سباً في تدمير هدوء بعض الناس إلى الأبد. كنت أستغرب استمرار الحياة الزوجية عند الكثيرين ممن يعملون في الصناعات على الرغم من ظروفهم الشاقة، فأتساءل عما سيحل بالأطباء وأطباء الأسنان وعمال المصانع وأصحاب المصارف لو أنهم وجدوا أنفسهم معرضين لأحوال خيالية وإغراء كما يتعرض لها أهل الشاشة وممثلو المسرح؟ ولو حضرت أجمل الأفلام لانتابتك الدهشة حين تسمع مدير الفرقة يصيح بالممثلة : «عندما تقبلينه يجب أن تعني ذلك» وللممثل : «ضع ذراعيك حولها وعانقها بشدة، إنها فاتنة، انسَ التمثيل وانغمر في حبك لها كما لو كان الأمر حقيقة» وتتكرر هذه المشاعر مراراً عديدة، وتكون غالباً بين أفراد تغلب عليهم الحيوية والوسامة، وممن يندر أن يفكروا بالزواج. والعجيب أن كثيراً من العائلات السعيدة التي استمرت حياتها الزوجية كانت من بينهم وهناك كثيرون في هوليوود ممن يذهبون بانتظام وهدوء إلى الكنيسة، و يرعون الحياة البيتية، فيبذلون قصارى جهدهم لإسعاد زوجاتهم وأولادهم ويفضلون بقاء حياتهم الخاصة بعيداً عن الأضواء والصحافة .

وعندما لحقت بدوغلاس إلى أوروبا في شهر فبراير بعد إتمام فيلم «أسرار» علمت أنه تعلق بحب امرأة أخرى. كنت لا أرغب في إثارة هذه المسألة، فقد كتمت عنه اكتشافي الجديد. وكنت مضطرة للعودة إلى كاليفورنيا في مايو (أيار) فلحق بي دوغلاس بعد أسبوعين. وفي خلال ذلك كانت الإشاعات المتضاربة تملأ لندن وتنتقل حتى تصل بالطبع إلى هوليوود. وعندما طلب مني دوغلاس في أوائل حزيران أن أسمح له بالعودة إلى لندن للاشتراك، ظاهرياً في دورة للجولف، صارحته بالأمر، فأنكر تورطه بشدة. ثم رافقته إلى نيويورك وودعته وهو على ظهر الباخرة «كوين ماري» الذاهبة إلى انكلترا. وكان لا يزال ينر تورطه ولكن بشدة أقل مما كانت حين فاتحته. وقبل أن تبحر به الباخرة سألني عما أنوي أن أفعله، وهل سأنتظر عودته ؟ فأجبته أنني لن أفعل شيئاً، وأني سأستمر بدون تغير في سلوكي .

إنه يجب أن أعترف أن جزءاً من الخطأ يقع على عاتقي. فقد وثقت به وائتمنته في الوقت الذي كان علي أن أكون فيه حذرة مطبقة الشفتين، لقد فتحت في قلبي غرفة كنت مصممة على إبقائها موصدة في وجه الجميع، وكان علي أن أدفع الثمن. فقد تلقيت من دوغلاس برقية آلمتني كثيراً، جاء فيها بلغة فظة قاسية لا ترحم أنه قرر البقاء في انكلترا !! ودفعتني برقيته إلى القيام بعمل أحمق، ولكنه إنساني خليق بأن يصدر عن امرأة مثلي على ما أعتقد. فقد أطلعت صديقة عزيزة على البرقية. وفي اليوم التالي كنت أتناول طعام الغداء معها، غير عالمة بأن محررة صحيفة مدعوة كذلك. وبدون أدنى مقدمة سألتني الصحفية التي كنت أعرفها منذ عدة سنين .

– ماذا قررت بشأن تلك المرأة يا ماري ؟

و وجمت برهة وتجاهلت الأمر ثم أجبتها : لا علم لي بشيء، مما تتحدثين عنه، وكنت أعلم جيداً كما يعلم الناس جميعاً أن دوغلاس كان يزور تلك «المرأة الأخرى» في المستشفى. وأن المصورين التقطوا صورة له وهو يهبط سلم الحريق لينجو من الصحافة البريطانية.

وهاجمتني صديقتي قائلة :

– لا تكوني حمقاء يا ماري : يجب عليك أن تحمي نفسك .

– أرجوك، إنني لا أريد أن أتحدث بهذا الشأن .

وأصرت صديقتي أن أطلعها على تلك البرقية، فأجبتها بإصرار :

– ولكني لا أريد أن يتدخل أحد بهذا الأمر الذي يتعلق بي وبدوغلاس فقط .

– لا أظنه يشاركك هذا الرأي .

لم يكن هناك أحد ألجأ إليه خلال تلك الأشهر الطويلة المليئة بالعذاب والشكوك. فقد جعلني سكوت دوغلاس، ثم برقيته القاسية المؤلمة في حالة يغمرني بها شوق عارم إلى تفاهم ودي .

فقلت: سأطلعك عليها، ولكني لا أريد أن أثير ضجة، فهل تعديني بذلك؟

فوافقت. وبعد أن قرأت المحررة البرقية، فتحت لها ولصديقتي قلبي، وتحدثت إليهما كما أتحدث إلى صديقتين عزيزتين تبذلان غاية جهدهما لمساعدتي وعملت كل ما بوسعي لكي أمنع دموعي من الإنهمار. وشرحت لهما ما يجول بخاطري فقلت :

– إنني لا أنوي أن أعمل شيئاً، وأنا على ثقة بأن دوغلاس سيعود أخيراً. وأعتقد أن ذلك لن يطول. وقلت : يجب علي أن أتحمل تصرفاته صابرة، وليس لدي ما أقوله الآن، سوى أنني أحبه، ولا يمكنني أن أسيء إلى دوغلاس، بأكثر مما قد أسيء إلى أخي جاك .

ووثقت بإدراك المحررة، وأنها تحمينا معاً من أي محاولة تهدم عش حبنا الجميل، وأن تناقش القضية بلطف دون تحامل، وتذكر ما لا ضرر منه، وتعتبر التفاصيل الدقيقة سراً من أسرار امرأة حزينة منكوبة وهي في أشد الحاجة لصديقة مخلصة وفية لا إلى محام عمومي .

ولكن سرعان ما اكتشفت حماقتي بتحدثي إلى محررة صحيفة. كان لي في ذلك الحين ممثل شخصي يمتهن الصحافة ويدعى مارك لاركن، مهمته السهر على اسمي وصنعتي بيقظة مستمرة وإخلاص متناه وحماسة عارمة قوية .ففي صباح الاثنين، بينما كنت خارجة من الكنيسة،رأيت مارك واقفاً ينتظرني على الدرج وهو بحالة انفعال شديد. وقبل أن أدرك ما حدث أمسك بذراعي ودفعني داخل السيارة وصاح بالسائق :

– أسرع في الطريق الجانبية ! فمن المحتمل أن يتبعونا.

وحين يسمع المرء صوته يظن أن جميع قوى الأمن في العالم تطاردنا وتتعقب آثارنا.

وقبل أن أستعيد السيطرة على نفسي من هول المفاجأة أو أنطق بكلمة جأر مارك في وجهي وقال:

– ما أغرا لتفعلي ما فعلت دون أن تخبريني أو تسأليني النصح على الأقل.

– أخبرني بحق السماء، ماذا عملت يا مارك ؟

– انظري هذه الصحيفة

فلما لمحت العناوين شعرت كأنها صفعات قاسية أليمة تنهال على وجهي، وأحسست وأنا أقرأها كأنني هارب تعوزه الشجاعة أو مريضة فقدت النطق. وكان في تلك الصحيفة كل ما أردت إخفاءه. وقد ذكر مفصلاً وبصراحة، واتخذ صفة الإتهام، في الوقت الذي كنت فيه صابرة مسالمة ضعيفة، كسيرة الخاطر يملؤني الأمل، فأصبحت الآن وقد واجهتني فضيحة كبرى.

قلت : إن هذا شيء مخيف، ماذا يحب أن أعمل ؟

كان مخبرو الصحف يحاصرون بوابتي قصر بيكفير طوال اليوم. فأعددت مع مارك بياناً مقتضياً لإرساله إلى الصحف، أوضحت فيه أنني لا أفكر في الطلاق من دوغلاس، وإننا لا نزال نحب بعضنا، ولكننا قد ننظر في انفصال رسمي .

وإذا كان يوم الأحد ذاك من أيامي السوداء،فقد كان يوم الثلاثاء التالي أشد ظلماً وأشد سواداً منه: والسبب في ذلك أنه كان قد تقرر أن أكون المضيفة في حفلة الطيران في مطار لوس انجلوس. ولما كنت أعلم علم اليقين أن إشاعات السوء عني وعن دوغلاس، بلغت مسامع جميع الحضور،فقد حدثتني نفسي أن أعلن للجنة عن عدم استطاعتي الحضور. ولكن كان الجنرال (هاب ارنولد) قد أعد لي طائرة من قاذفات القنابل لكي تقلني إلى الاجتماع، و يحرسها ست طائرات من المقاتلات، ثلاث في كل جانب. فلم يعد باستطاعتي النكوص في هذه الساعة المتأخرة .

وعندما هبطت من الطائرة في مكان الاجتماع، و سمعت اسمي من مكبرات الصوت، كان مجرد التفكير في المئة ألف زوج من العيون التي ترنو إلي وترمقني هو أشد أنواع العذاب الذي يفوق التصور المحتمل. لقد كان

موقفي أشبه بكابوس فظيع يجثم على صدري ثم لا ألبث إن أجد نفسي فجأة، وأنا عارية من ثيابي بين جمهور غارق بثيابه. وكانت تعابير وجهي أكثر مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات مهما كانت بليغة، و وقف خمسون من الطيارين الشجعان وعلى رأسهم الجنرال رنولد لاستقبالي، فأستعرضهم وأنا أصافحهم فرداً فرداً. فكانت نظراتهم الرقيقة المحببة التي تتألق في عيونهم خير مكافأة مؤثرة ردت لي الشجاعة وخففت عني بعض تحمل العذاب الذي كنت أقاسي وطأته .

ومن أعظم العقوبات التي يتحملها كل من يحيا حياتنا معرضاً لأنظار الجمهور، هو أن يفقد حقه الغالي في الاحتفاظ بحياته الخاصة بعيداً عن الأضواء. لأن الجمهور الذي يقدم لنا الكثير يتطلب منا أن نضحي بحقنا ونتنازل عن الميزات التي يتمتع بها الآخرون. ولكننا بشر لا نختلف عن الآخرين بشيء. فقد ورثنا الحزن والحيرة والذل أيضاً. لذلك لا يستطيع أحد أن يلومنا إذا لجأنا في أوقات الشدة إلى التمتع بحياتنا الخاصة. أو الإنكفاء على أنفسنا، وكان هنالك أشياء كثيرة أخرى يمكنني ذكرها عن دوغلاس وعني. ولكني فضلت أن تبقى سراً بين جوانحي، فلم أتطرق إلى بحثها مع أي إنسان، ولن أفعل ذلك أبداً، ويكفيني أن أقول أنني أحببت دوغلاس وكنت فخورة بأني أصبحت زوجته .

وعندما أدركت ما حدث، وتساءلت عما حدث ومن الذي كنت أحبه، شعرت وأنا واثقة أنني لم أكن أريد له إلا السعادة مهما كان شعوره نحوي لأنه لم يكن لي قصد سيء. وأدركت عندها مغزى ما حدث. لقد استولى عليه نوع من الهلع، ولم يساعده الإيمان أو الفلسفة في التغلب على هذه الحالة. وصممت أن أعتبرها بهذا الوقت الحاضر أفضل ما يمكن. ولكني سخطت على نفسي لأني تصورت الحياة تافهة بدون وجود دوغلاس. وطاردتني الأفكار وهي تصرخ بي : إنني ناكرة جميل أولئك الرجال والنساء المبدعين الذين شادوا هذه المدينة والتي أقاسمهم خيراتها. وأذكر كيف أنني تخيلت في

ليلة مؤرقة أن قبضة واحدة من تراب حديقة بكفير تدعو للاهتمام والدراسة مدى الحياة. ثم ذكرت كيف أني رأيت في أحد الأفلام العلمية قطرة من الماء الآسن تحت المجهر. يا له من عالم مليء بالضوضاء والحركة في نقطة من الحياة لا يتجاوز حجمها رأس الدبوس. وازددت إدراكاً إلى أنني أهملت بعضاً من نواحي شخصيتي. فأخذت أقضي ساعات طويلة في مكتبي أدرس فن الإلقاء والغناء. ثم عدت أدرس بجد اللغة الفرنسية. حتى إني ألفت كتاباً عنوانه «لماذا لا نرجع إلى الله» وكان هذا الكتاب سبباً في إعادة السلام إلى قلوب كثير من القراء، ووطنت نفسي على تناسي تلك الحوادث المملوءة بذكرى الألم والعتاب. وصرت أظهر في ست وعشرين إذاعة في الراديو أسبوعياً. ثم بدأت رحلة طويلة زرت فيها مختلف البيوت والشركات السينمائية،كما زرت شيكاغو وديترويت ونيويورك وبوسطن .

كنت في بوسطن عندما اتصل بي دوغلاس من لندن، وقد خاطبني بصوت ضعيف قال :

– لقد بدأت في معاملات الطلاق يا ماري .

فشعرت بمرارة حديثه، لأنه كان يكره الفضائح فلم يكن أمامي إلا أن أقول له إنني آسفة .

– ماذا تريدين أن تفعلي ؟

– لا شيء يا دوغلاس

– إنني ممتن منك للطريقة التي وقفت بها من هذه القضية .

وبعد مرور عام أي في العاشر من يناير عام ١٩٣٥ تلقيت أوراق الطلاق الأولى في لوس انجلوس .

وتلا ذلك أغرب وجه لهذه القضية. فقد غير دوغلاس رأيه، وعاد إلى كاليفورنيا يحاول منع الطلاق. وإني لأذكر كم آلمني مجيئه. لقد كانت تبدو عليه الحيوية والنشاط القديمان، غير أن شيئاً ما كان ينقصه، إذ كان يبدو وكأن روحه قد تمردت عليه أو أفلتت منه. وكنت في الماضي أدرك تماماً

شعوره وتفكيره، كما أستطيع قراءة وجهه. أما الآن فليس هناك ما أستطيع قراءته. لقد أصبح وجهه صحيفة بيضاء. وكان قلبي يبكي لأجله ولكني كنت قد عقدت العزم على الطلاق. ولما رأى دوغلاس صلابتي عاد إلى انكلترا، و لكنه رجع أيضاً بعد مضي أحد عشر شهراً ليحاول إقناعي بعدم قبول أوراق الطلاق النهائية .

وفي خلال الفترة التي وقعت بين رحلتيه الأولى والثانية، تلقيت هاتفاً من زوجته الأولى (بيت سولي) التي لم تزل تعيش حياة سعيدة مع زوجها جاك هوايتينغ. فطلبت مني أن أزورها في بيتها،حيث نكون في مأمن من أعين الفضوليين. وعندما التقينا لم أر أشد منها محبة لي وإخلاصاً. فطلبت مني أن أستمع إلى رسالة برقية من دوغلاس في انكلترا تقع في نحو من مئتي كلمة يتوسل إليها أن تتوسط معي لكي أبدل رأيي، وتبلغني أن كل ذلك كان خطأ وحماقة أورثته ندماً وألماً شديدين، وأنه لا يزال يحبني ويتمنى لو أوافق على رؤيته عندما يأتي إلى نيويورك.

وقالت بيث، بعد أن انتهت من تلاوة الرسالة :

– ألا تبدلين رأيك وترأفين بحالته فتعيديه إليك يا ماري ؟

– إن ما أطلعت عليه من حالة دوغلاس لوحدي كان شيئاً، أما الآن وقد انتشر الخبر في سائر أنحاء العالم فقد أصبح شيئاً آخر. فلم يعد لي الحق في الرجوع إليه .

دعيني أقول كلمة،قبل أن ترفضي. إني أعلم كما يعلم جميع أهل الأرض،أنك حبيبة العمر لدوغلاس. وقد كان فيما مضى أخاً لي أكثر منه زوجاً .

شكرت لها نصيحتها الحارة الكريمة،فقد كانت نهاية ما يعتبرونه أجمل قصة روائية في هوليوود،أما من جهة بيث والكثيرين من الناس في سائر أنحاء المعمورة،فكانت تعد مأساة غامضة محزنة .

وإنه يحز في نفسي أن أتذكر النظرة الحزينة التي كانت تتجلى على

وجه القاضي ليندس،وهو من أصدقائنا ومن زوار بيكفير الدائمين،وقد ترأس المحاكمة في أحلك فصولها .

وطرح القاضي علي ستة أسئلة أجبت عليها بكلمة «نعم» وكانت الكلمة الطنانة التي يرددونها دائماً هي عدم التكافؤ. وبناء على أمر القاضي ليندس، انتظر المصورون بصبر حتى نهاية المحاكمة، وعمل الصحفيون كل ما بوسعهم لمداراة شعوري. وقد أدركوا جميعهم دون شك أنهم يحضرون جنازاً.

وتلقيت الأوراق الأخيرة في العاشر من يناير عام ١٩٣٦، وبعد شهرين ونيف أي في السابع من مارس (آذار) تزوج دوغلاس ثانية .

لقد لزمت الصمت فلم أتحدث إلى الآن عن «المرأة الأخرى» في قضيتي والحق أنني شديدة الامتنان لها ولدوغلاس، لأنهما مهدا الطريق أمامي بغير قصد نحو السعادة التي طالما كنت أتوق إليها، سعادة الأمومة والحياة العائلية. كنت أزدرد كثيراً من الحبوب المرة في أثناء ذلك، وكان أشدها مرارة، الطريقة التي تعرفت بها على زوجة دوغلاس الجديدة. فبعد وقت قصير من طلاقنا، أعلنت إحدى الممثلات الشهيرات أنها عزمت على ترك هوليوود نهائياً. ودعتني إلى بيتها مع لفيف من الممثلين والممثلات إلى حفلة كوكتيل وداعية وذهبت إلى الحفلة، ولكن ما إن دخلت ذلك البيت حتى أمسكت إحداهن بذراعي وهمست في أذني بذعر :

– إنهما هنا يا ماري، كلاهما هنا !

فلم أحر جواباً، وظللت صامتة .

وسألني آخر : هل علمت بقدومهم ؟

– كلا .

ولم تتفضل مضيفتي الكريمة بالاستفسار عما إذا كنت أقبل دعوتها في تلك الظروف.

كان دوغلاس وزوجته الجديدة في الغرفة المجاورة، وفي فترة الدقائق العشر التالية، أتت ثلاث سيدات كل منهن على حدة ليخبرنني بوجود دوغلاس وزوجته. أما نورما تالمدج التي كانت تجلس أمامي، والتي لم تكن من صديقاتي في يوم من الأيام فقد رثت لحالي ورفعت الستار عما يجول في هذه النفس الطيبة من المحبة والإخلاص والصفاء .

قالت : لقد كنت طيلة حياتي يا ماري أتوق إلى أن أظهر في صوري المجسمة كما أراك الآن. وكانت هذه طريقتها في الترفيه عني ودعم شجاعتي.

وكان جو الغرفة مشحوناً بالاضطراب حتى يمكن أن أقول أن بالاستطاعة أن يقطع بسكين الزبدة. وأخيراً رأيت أن الأمور بدأت تتطور بما فيه الكفاية، وأن الجو أخذ يتكاثف، وأن علي أن أقوم بعمل ما في هذا الشأن. لقد كانا في غرفة الطعام. أما أنا فكنت في غرفة الضيوف وبعد أن أعملت فكري، نهضت من مقعدي ومشيت نحوهما وأعناق الحاضرين مشرئبة نحوي، وعيونهم محدقة بي تراقب كل حركة أقوم بها، وأعتقد أن دوغلاس رآني وأنا أسير نحوهما لأنه تقدم لملاقاتي في منتصف الغرفة، وعلى وجهه ابتسامة حزينة .

قلت له : أريد أن تعرفنا إلى بعض .

– كلا يا ماري، لا يمكنني ذلك ...

حقاً لم يتغير دوغلاس، فهو يحاول دائماً التهرب من العواقب ويجبن عن مجابهة الحقيقة، أو الوقوف أمامها، وبعد زمن قصير كنا في اجتماع لليونايتد آرتيستس، «شركة الفنانين المتحدة» وحين اتجهت نحو الباب الرئيسي أسرع دوغلاس نحوي فأوقفني وهو يرجوني قائلاً :

– لا تخرجي الآن يا هيبر، فإنك ستلتقين مع زوجتي فتركته وسرت نحو غرفة الطعام لوحدي وهناك وجدت صديقتي العزيزة تايلاشمان، وهي امرأة صينية جميلة متزوجة بأحد المنتجين الأميريكيين العظماء .

قالت : لا تذهبي إليها يا ماري، عليها أن تأتي هي إليك .

فأجبتها : ماذا يهم ؟ المهم أن نلتقي ببعضنا، ومع أني أكبر سناً منها فقد اخترت أن أذهب إليها، وأظن أن ذلك يقلل من ارتباكنا نحن الاثنتين. وكان اللقاء سهلاً لطيفاً، حتى أنها ذهبت لتأتي لي بقطعة من الساندويتش وقدح من الشاي .

قالت، لقد سمعت أنك عرضت قصر بكفير للبيع، يا للخجل !

قلت : لقد استنفذ بيكفير الغرض منه. وعلى كل فإن الأشياء المادية لم تعد لها قيمة عندي كما كانت سابقاً .

كنت أرى دوغلاس وقد استولى عليه اضطراب شديد، ولكن ليس للدرجة التي يمتنع فيها أن ألاحظ أنه لا يزال يتمتع بوجه مرن فتي جميل وكان من عادته دائماً أن يضع يديه في جيوب سترته ويشدها على وركيه. وقد فعل ذلك في هذا اليوم أيضاً. فعلمت أن هذه الحركة دليل على ارتباكه الشديد. ولا يمكني أن أنكر أو أتجاهل، أنه كان في سترته البحرية الزرقاء لا يزال دوغلاس فيربانكس الرياضي القوي الذي أحبه العالم كله .

وأستغرب في الواقع، أنني كنت أدرس وأراقب نفسي عن بعد وأنا خالية البال تماماً ولا أشعر بلدغ الألم، ولكنني الآن أعجز عن وصف تأثيري من أحاديث ومحاولات رفاقي المدعوين، وجزعهم أن يمس شعوري، وعظيم رغبتهم في حمايتي. لقد تكشفت لي فجأة صفاء وطيبة هذه الروح الكريمة. فكانوا كما لو أنهم هتكوا الستر الذي نخبئ فيه نحن المتمدنون أفكارنا الحقيقية وهم يتهامسون :

– لماذا لم نخبر ماري من قبل ؟

وكان هذا الاكتشاف أعظم مكافأة نلتها. لقد جعلوني أشعر، ذلك المساء، أن سعادتهم لا تكتمل إلا بسعادتي، وأننا نشترك معاً في هذا الوجه المحزن من الحياة، وأننا نتبادل المحبة والوئام فيما بيننا .

الفصل الثالث والعشرون

طالما حمدت الله لأن أمي لم تشهد المصيبتين اللتين حلتا بنا في تلك الأعوام القليلة التي تلت موتها، وأولهما موت أخي جاك الفجائي، في الثالث من يناير عام ١٩٣٣، وثانيهما موت أختي لوتي الفجائي أيضاً، بعد بضع سنوات، أي في التاسع من ديسمبر عام ١٩٣٦، وهاتان صدمتان لا يمكن أن تشفى أمي منهما لو أنها كانت على قيد الحياة، فقد تركت هذه النكبات في قلبي فراغاً لا يمكن لبشر غيرهما أن يملأه ولا يزال أثره حتى الموت. لقد كنت في أوائل الأربعين، وكنت الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من أفراد هذه العائلة النشيطة التي تغلبت بشجاعة وثبات على تقلبات الحياة ومصاعبها.

ويجدر بي أن أذكر هنا، أنه كان باستطاعة لوتي وجاك أن ينالا حظاً أوفر من النجاح لو أنهما لم يحملا اسم بيكفورد، كما أنه لا يخامرني الشك قطعاً في أن جاك كان يفوقني براعة في التمثيل.

لقد كان يملك بساطة وتوجيها قويين يختلفان عن كل ما رأيته على الشاشة الأمريكية، وكان تمثيله مزيج من الشعور بالحزن والفكاهة القوية الذكية اللاذعة، إن أولئك الذين شاهدوا أفلام "المرأة الوزة" و"براون من هارفارد" و"سن السابعة عشرة"، وغيرها من الأفلام التي مثل فيها جاك يدركون ماذا أعني بقولي هذا، وأؤكد القول أنه لو بقي يعمل باسم جاك سميث لكان بإمكانه أن يسير شوطاً أطول بكثير في سبيل الوصول للنجاح.

كانت قصة أخي جاك فاجعة مريعة محزنة وأعمق أثراً من الفاجعة الثانية لقد أثيرت قضية جاك فكتبت عنها الصحف بقسوة وحقد الشيء الكثير رغم أنه كان يقاسي صدمة مفجعة وخسارة مدمرة، فذكرى أوليف توماس، المرأة الوحيدة التي أحبها حباً عميقاً جارفاً، لم تغب عن ناظريه، بل ظلت تلاحقه بعنف حتى نهايته.

كان جاك في التاسعة عشرة من العمر وأوليف في العشرين أو الحادية والعشرين عندما تزوجا. وكم يحز في نفسي ويغمرني الأسى حين أذكر أننا لم نوافق جميعنا على هذا الزواج، خصوصاً وأن أمي كانت تعتقد أنه صغير السن لا يصلح للزواج، وأحسست أنا ولوتي أن أوليف بصفتها من المسرح الكوميدي الموسيقي من وسط غريب، وكان الشبان من أغنياء الطبقة الراقية يرتمون على قدميها زرافات ووحدانا، كما غمرها زملاؤها في الوسط الفني بوابل من طلبات الزواج ولم يكن ذلك غريباً على من كانت تتمتع بجمال يشبه ما تصفه الأساطير، فلها أجمل عينين زرقاوين بنفسجيتين لم أر لهما مثيلا قط، وتحيط بتلك العينين اللتين تشبهان عيون المها أهداب سوداء يزيد في حلكتها صفاء بشرتها البيضاء. وأدركت بعد أن رأيتها السبب الذي جعل فلورانز زيغفيلد لا يغفر لجاك اقتناصها وإبعادها عن مسرح الفولي. فقد غرقت أوليف وجاك في بحر من الحب الجنوني، غمرها في لججه فلم يعودا يستطيعان فراقاً، ورغم ذلك التيار المحدق بهما، كنت أنظر إليهما كزوج من الأطفال يلعبان مع بعضهما، كما كنت أنظر إلى أصدقائهما الذين كانوا في مثل سنهما.

ولما نشبت الحرب العالمية ودخلت أميركا ميدانها رفض جاك، وهو لم يتجاوز العشرين من العمر، عقداً سينمائياً بألفين وخمسمئة دولار أسبوعياً وتطوع في الجندية، وعندها امتلأ قلب أوليف رعباً وخشية من أن يبعدوه عنها فيرسلوه عبر البحار، غير أنهم أبقوه في بروكلين وانتهت الحرب قبل أن يتم تمرينه. وحين لم يجد أي عمل أو مهمة تناسبه، تطوع في القوات البحرية وأصبح بحاراً بسيطاً.

وكانت الأمور تسير على هذا النحو عندما ظهر على مسرح الحوادث رجل متوسط العمر، سأطلق عليه اسم دكتور دو. وهو طبيب يعمل في دوائر التجنيد في البحر، اشتهر بإغرائه للنساء وسحره لهن، ولكنه كان خالياً من الضمير، فعمل على استثمار جاك وهو يعلم أن له اتصالات واسعة بمقامات عالية، كما أنه يتصرف بسيارة وشقة والدتي.

أما أخي فقد فرح بهذا الاهتمام الودي من رجل يكبره سناً وله رتبة عالية في الجندية، وبدأت تزداد ثقة جاك بالدكتور دو الذي انتقل إلى شقته وأخذ يستعمل سيارته. واعتقد أن جاك كان يعمل لمصلحة الدكتور بدون احتراز، ويجتذب له الفتيات الجميلات، واتصل بي بعد ذلك إن جاك كان يجلس بجانب السائق في الأيام المثلجة التي تهبط فيها الحرارة تحت الصفر، بينما كان الدكتور في داخلها مع ضيوفه.

ازداد نشاط الدكتور فبدأ يتناول الرشوة من المطلوبين للجندية فيعطيهم تقارير بعدم صلاحيتهم للخدمة أو اقتصار خدمتهم على المكاتب الرسمية، ولما اكتشفت السلطات هذا النشاط المريب أحالته إلى مجلس حربي، وأحالت معه أخي جاك. ولما قرأنا أنا وأمي وأولي الخبر في الصحف انقض كالصاعقة على رؤوسنا. ولكن .. وبعد محاكمة طويلة شاقة خرج جاك منها بريئاً.

وإذا كانت هنالك من حاجة إلى دليل على براءة أخي وتزكيته، فقد أتت بعد موته. فعندما نقلنا جثمانه من باريس إلى كاليفورنيا لدفنه فيها. عرضت سلطات البحر أن تقدم حرس الشرف ليسير أمام جثمانه. فرفضته أنا ولوتي ذلك على الرغم من تأثرنا العميق، لأننا أردنا أن يكون المأتم هادئاً بسيطاً بقدر الإمكان، كما كان الوقت قد فات لمحو الأثر القاسي الأليم من قلبنا، فضلاً عن قلب ذلك الفتى المسكين الذي قاسى كثيراً من تلك المأساة المؤلمة، ثم بارح هذا العالم والحزن يغمر قلبه. إن المصيبة التي قضت على حياة أخي المسكين، لا تزال تستحق الذكر، فقد كان موت عروسه مأساة ساخرة رهيبة، هزت كيانه عدة سنين.

وإني لا ألوم أولئك الذين علموا بالقضية من تقارير الصحف المعاصرة ولا ألومهم إذا اعتقدوا بانتحار أوليف توماس زوجته. ومع ذلك فأنا مستعدة لكي أقسم أن موت أوليف كان نتيجة لحادث فجائي لا علاقة لجاك به من قريب أو بعيد، وقد أخبرني بذلك، ولم اعتد عليه الكذب وأثبتت التفاصيل العديدة للمأساة نفسها، صدق قوله. أما تفصيل الحادث فكما يلي :

أبحر جاك وأولي في رحلتهما المشؤومة إلى أوربا، في أغطس (آب) ١٩٢٠ وكان يرافقهما عدد من الأصدقاء الذين يتفقون معهما في العمر والمزاج. وحدثني جاك كثيراً عن هذه الرحلة حتى أصبحت قادرة على تصور كل خطوة من خطواتهم. وفي الليلة التي سبقت موت أولي في باريس، كانت هي وجاك يجوبان الأندية الليلية. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أصر جاك على الرجوع مع أوليف إلى الفندق لاسيما وهما عازمان أن يقلعا إلى لندن بالطائرة في السابعة صباحاً. ولكنهما ما كادا يخلعان ثيابهما حتى هاجمهما فريق من الأصدقاء، أخذوا يعنفوهما لأنهما تركا الحفلة قبل انتهائها، والحوا عليهما بأن يرتديا ثيابهما لإتمام السهرة حتى الفجر. ولكن جاك اعتذر بشدة لعظم ما يشعر به من التعب. فتركوهما أخيراً وذهب جاك إلى سريره. أما أولي فقد أخذت تحرر رسالة إلى أمها، تخبرها فيها بخططهما في المستقبل تلك الرسالة التي لم تنته، والتي لم تزل على المنصة بعد أن نقلت إلى المستشفى. واستيقظ جاك ليرى الضوء لا يزال يشع في الغرفة، فاستغرب بقاء أولي مستيقظة حتى ذلك الوقت، فناداها قائلاً :

– أرجوك يا حبيبتي أن تأتي إلى سريرك لتنامي، لقد تأخرت كثيراً ولا أستطيع أن أنام والضوء يملأ الغرفة.

فقالت أولي بنزق: إنك لا تهتم بمعرفة السبب في عدم استطاعتي النوم أليس كذلك؟ لقد أصابني صداع شديد.

وأطفأت النور، وذهبت إلى النافذة المطلة على الشارع.

فقال جاك: لماذا لا تأخذين حبة أسبرين. ثم غلبه النعاس فراح يغط في نومه، ولكنه استيقظ بعد برهة على صوت صراخ وتحطيم. فنظر فإذا بأولي واقفة في غرفة الحمام المظلمة، فاندفع جاك نحوها كالمجنون.

قالت له: أسرع يا جاك. أشعل الضوء، وانظر ما إذا كانت زجاجة بيكلوريد الزئبق لا تزال في الدولاب ؟

فنظر جاك وقال: لي كلا يا أو، هنا زجاجة الأسبرين فقط.

فصرخت أولي مرة ثانية وقالت :

– إذاً، لقد تناولت السم.

لقد وضعت أولي زجاجة حبات الزئبق في مكان آخر، ولكن يظهر أن الخادمة وضعت الزجاجات التي كانت من حجم واحد، بجانب بعضهما على رف دولاب الأدوية. فتناولت أولي السم وهي تظنه أسبرين وحاول جاك أن يغسل معدة أولي بإعطائها عدداً من أقداح الماء الفاتر بين عشرة وخمسة عشر قدحاً. ثم أسرع إلى الطابق الأسفل ليأتي بالزبدة المذابة واللبن. غيرأن المطبخ والبراد كانا مغلقين. ولم يجد أحداً هناك سوى الحارس الليلي. وبعد جنون البحث، استطاع الحصول على اللبن والزبدة، وفي تلك الأثناء حاول الاتصال هاتفياً بالمستشفى الأمريكي، فأرسل سيارة الإسعاف التي وصلت بعد وقت طويل وليف عاشت أسبوعاً واحداًبفضل تفكير جاك السريع حسب رأي الأطباء، حينما عمل على إعطائها الماء الفاتر واللبن والزبدة المذابة. ومضى ذلك الأسبوع مليئاً بالألم الذي قاسته هذه العزيزة المسكينة. وكم توسلت لرجال الدين حين كانوا يزورونها في غرفتها في المستشفى، وهي تنظر إلى زوجها بعينيها المخمليتين الزرقاوين وتقول:

– أرجوكم أن تدعوالله الرحيم أن يدعني أبقى لأعيش مع زوجي الطفل. لقد كافحت في معركة يائسة ففشلت وقضت نحبها بين ذراعي أخي المسكين الذي لم يكفه ذلك العذاب الأليم، فاضطر إلى الانتظار أسبوعاً كاملاً

حتى انتهت السلطات الفرنسية من تحقيقاتها الدقيقة عن القضية، واقتنعت أخيراً أنها حادثة عابرة، وليست انتحاراً أو جريمة .

وقطع جاك المحيط مع جثمان أولي، ولم يعترف إلا بعد مضي سنين، أنه في إحدى الليالي خلال عودته مع الجثمان، ارتدى سراويله وسترته فوق منامته (بيجامة)، وصعد إلى ظهر الباخرة، ثم تسلق الدرابزين ليلقي بنفسه في خضم ذلك المحيط، ولكن هاتفاً من نفسه صرخ به :

لا يمكنك أن تفعل ذلك، أن أمك وأخوتك بانتظارك. إن هذا عمل جبان، فعليك أن تعيش وتكافح وتواجه المستقبل.

وكنت انتظر في بيت أمي في هوليوود عندما وصلت السيارة وخرج جاك منها، وهويمشي على رأس الموكب، لابساً ثياب الحداد، وقد تهدلت كتفاه واحنى رأسه، وأحسست بشعور انكمش له قلبي حين لمست انه يسير حثيثاً في إثر أولي وأنه لم يمضي بضعة أشهر وبضع سنوات حتى يلحق بها. ومع أنه تزوج مرتين بعدها، ولكن واحدة من زوجتيه لم تتمكن من أن تحل محل حبيبته الأولى أوليف .

كانت زوجته التالية ماريلين ملير، ذات حيوية وجاذبية، وشباب متألق، ولكني أظن انه كان ينظر إليها كطفلة لا كزوجة .

ولو أنهما أنجبا أطفالاً لتغير الحال معهما لأن جاك كان يريد أن يكون له أطفال دائماً ولكن مارلين كانت تهتم، بعملها قبل كل شيء، ولم يكن يهمها إنجاب الأطفال. لقد كانت أعظم من رأيت طموحاً بين النساء في حياتي، وأتذكر نوبات (الميكرين migraine) الشديدة التي كانت تنتابها، وخاصة تلك التي أصابتها خلال أحد دروس الغناء .لقد كان ألماً شديداً ومن اقسى مايستطيع بشر أن يتحمله، ومع ذلك، فلم يبد منها إشارة واحدة تدل على ذلك. ومن الغريب أن تجد هذا النوع من قوةالعزيمة في ذلك الجسم البض الأبيض الوردي الجميل. وأخيراً طلقها جاك لشدة نشاطها وتهافتها على العمل المتواصل وعدم إنجابها أطفالاً. وتزوج جاك مرة أخرى، من إحدى فتيات زيغفيلد، التي قالت لي أنها رأت مؤخرة رأس أخي في أحد المطاعم فقالت لصديقتها التي كانت تصطحبها :

– هذه أجمل مؤخرة رأس رجل رأيتها في حياتي لهذا سأعمل ما أستطيع لأتزوج ذلك الرجل، وكان ما عملت ولكن، له كان زواجاً مصحوباً بالفوضى والشغب، فانتهى الأمر بهما إلى الطلاق أيضاً. ومما يدعو إلى الأسف والشفقة، أن جاك لم يجد الزوجة المحبة الشفوقة التي هو في أشد الحاجة إليها أكثر من حاجته إلى أي شيء آخر خصيصاً في أيامه الأخيرة المظلمة المملؤة بالمرض والعذاب .

وآخر مرة رأيت فيها أخي جاك، كان في بيكفر، وقد كدت أسقط مغشياً علي حين بدا لي ذابلاً مريضاً هزيلاً تتهلهل ثيابه فوق جسمه كما لو كانت فوق مشجب، وحين حاولت أن أصحبه عند نزوله إلى المرآب قال :

– لا تأتي معي يا ماري العزيزة، فأنا أستطيع السير بمفردي، فلم أتكلم، ولني وقفت على رأس السلم، وقلبي يحدثني، فقلت : هذه آخر مرة أرى فيها جاك.

وقضى جاك نحبه في باريس في مكان اختاره لقضاء آخر أيامه، يطل على نافذة غرفة المستشفى التي قضت فيها زوجته الحبيبة اوليف قب لذلك بثلاث عشر سنة، وبعد مرور أربع سنوات على موت أخي جاك وثماني سنوات على موت أمي، فقدت أختي لوتي ... مسكينة شاكي لقد تغيرحالها بعد موت جاك. كانا متفقين في المشارب والآراء. وقد هزتها النكبة هزاً عنيفاً، وكأنها فقدت أعز مافي حياتها بموت حياتها. فأصيبت على أثر ذلك بمرض في القلب جعلها تنتق من مستشفى إلى آخر باستمرار .

إني أذكر الصورة الأولى التي مرت برأسي عندما سمعت بموتها. لقد تخليت أيام طفولتنا عندما كنا نتزحلق في مركباتنا على الجليد، ونربطها وراء المركبات الكبيرة التي تجرها الخيول. ورأيت لوتي وهي تتدحرج فجأة من مركبتها الصغيرة على الثلج، فأسرعت إلى جانبها وقد تملكني الرعب، فرفعتها عن الثلج وأنا على يقين من أنها أصيبت بإضرار ورضوض كان وجهها الوردي الجميل، وفمها البديع حتى أهداب عينيها السوداء الطويلة مغطاة بالثلج. فطغت علي موجة من الحب الجارف، وشكرت الله القدير على

نجاتها. وحدثت نفسي فقلت : هذه أختي الحبيبة الصغيرة، وأدركت عندئذ قيمة الحب الأخوي. هذه الصورة لا تزال منقوشة في قلبي بكل ما فيها من ألوان الحنو والانفعالات. وقد رأيتها لآخر مرة عندما كانت تأخذ درساً في الموسيقى من فتاة ملونة، وكانت تتحمس لجمال صوت هذه الزنجية، فتراهنا بدولار أو أكثر على أنني لن أستطيع التغلب على دموعي عند سماعها تنشد، «يايسوع، إني حزينة ووحيدة». وقبلت الرهان وأنشدت الفتاة بصوت أصيل عال، وهي تعزف على البيانو في آن واحد، وأحسست بضيق في حلقي ازداد حتى رأيت أنه يحسن بي أن أدفع الدولار، ثم جلسنا نحن الثلاثة نتحدث عن الكتابين الصغيرين اللذين ألفتهما، وأدى الحديث إلى قراءة بعض فقرات التوراة ثم قبلت شاكي وتذكرت قولا لسيد يسوع حين قال :

«إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فإني أكون في وسطهم».

وأضفت قائلة: «أنني على يقين من أن السيد موجود اليوم بيننا».

وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها أختي .

قال لي الأطباء أنها أصيبت فجأة، وماتت وهي واقفة على قدميها.

وقد تعزيت كثيراً بقصة حدثتني بها آني الخياطة عن أيام لوتي الأخيرة، وكانت لوتي قد اختارتها صديقة لها، وأخذت تقضي معظم أوقاتها ف محل عملها، وزارت الخياطة لوتي يوم موتها، وكانت قد أفاقت من غيبوبتها فقالت لها لوتي : لقد حلمت حلماً بديعا رأيت نفسي في كنيسة مليئة بالزهور والأطفال تصدح بها الموسيقى الشجية، ثم خرجت إلى الحديقة فرأيت السيد المسيح واقفاً هناك، فأخذ بيدي وسرنا معاً في الحديقة. وجعل يحدثني ولكني لا أذكر ماذا قال لي .

وكان عزاءً كبيراً لي أن أعلن أن آخر من رأته أختي ولو في الحلم، كان ذلك «الصديق» اللطيف السيد يسوع الذي كانت تعبده ببساطة وإيمان .

الفصل الرابع والعشرون

عندما كنت أعمل في التمثيل في نبوهافن مع بلاسكو، وأنا في الرابعة عشرة من عمري، خرجت يوماً وجلست في البارك لوحدي. وأخذت أراقب طلبة جامعة بيل وهم يروحون ويغدون أمامي، فشعرت أنني لو دققت النظر في وجوههم عن كثب، لرأيت بينهم زوجي العتيد أو من يشبهه، لقد كنت دائماً أحمل في قلبي صورة شبيهة له. وكنت أعرف عنه كلشيء، هيئته عينيه وصوته. ومع أن دوغلاس فيربانكس كان يتمتع بمزايا كثيرة، ولكن لم تكن له تلك الصورة الأصلية المحفوظة والمعلقة في قلبي، وحتى ولا أوين مور أيضاً. وفي الحقيقة، فإنني لم التق بالرجل الذي كنت أتخيله في صغري حتى ذلك اليوم الذي عرفتني فيه إحدى صديقاتي بشارلس إدوارد روجرز المعروف باسم بادي روجرز. ومهما يكن الأمر غريباً، فقد أسفت في نفسي، وندمت كثيراً لعدم مقابلتي له ومعرفتي به في نيوهافن، منذ كنت لا أزال طفلة.

وأول ما أثر في نفسي من مظهره شعره الأسود المتموج فوق رأسه الجميل، والذي يشبه إلى حدٍ كبير شعر أمي. وأذكر كم كان يتناسب ذلك الشعر مع سترته البحرية الطويلة الزرقاء التي كان يرتديها فتيان جامعة كنساس المتأنقين، أما الشيء الثاني الذي لاحظته فيه، فهو عيناه السوداوان البريئتان اللتان لا تعرفان المكر أو الغش. وثقت على الفور باستقلاله في

الرأي وصراحته التي تصل إلى درجة لايخفى معها اعتقاده في أن العالم غير صالح. ولم أرى خلال الثمانية عشر عاماً من حياتنا الزوجية . أقل إشارة للريبة أو عدم الثقة فيه من أحد. أما أنا وقد نشأت وترعرعت في تورنت ونيويورك ولوس انجلوس، فالحق أني كنت أجهل معنى المحبة والدفء اللذين يتجليان في من نشأ في بلدة صغيرة مثل أولاس كنساس مسقط رأس بادي، حيث غير الناس عاداتهم لكي يعيشوا وفقاً لما يوحيه إليهم اسم بلدتهم الذي يعني باللغة الهندية «الجميل» فالناس هنا يعرفون الكثير عن بعضهم البعض. وقد حدثني بادي أن أباها لقاضي روجرز يعرف كل أسماء العائلات في مقاطعة جونسون . أن اسم روجر ويرمز إلى عائلة لاأفخر بها لوحدي، بل تفخر بها أمريكا كلها .

التقيت ببادي عام ١٩٢٧. ولم يدر بخلدي آنذاك أنه سيصبح زوجي في يوم من الأيام. وبالفعل فإن زواجي منه لم يتم إلا بعد مرور عشرسنوات على لقائنا الأول .

كان عطف هذا الشاب، الجميل الجذاب، ورعايته خير معين لي خلال تلك السنين التي تلت انفصالي عن دوغلاس والتي ملئت بالوحدة والكوارث. ومع أني نادراً ماكنت ألتقي ببادي بسبب سفره المتواصل مع فرقته الموسيقية، فأنني أعترف أنه أعاد لي الرغبة في العيش أكثر من أي شخص آخر. لقد منحني بادي تحية سارة حزينة قبل أن انفصل عن دوغلاس، وعندما سأله بعض أصدقائه عما إذا كان يعتزم الزواج، أجابهم بطريقته المباشرة:

– كلا، إن المرأة التي أحبها تزوجت .

وكان رجال الصحافة يعلمون قصده وحبه وأنه يعنيني بذلك، غير أنهم تحاشوا الإشارة إلى ذلك في صحفهم، احتراماً للزواج الذي كانوا يعتبرونه مثالياً. وأبعدت عني فكرة الزواج في أول الأمر. فرفضت بادي عندما طلب

يدي معددة له الأسباب الواحد تلو الآخر، ولكنه جابهني آخر الأمر بعد طلاقي من دوغلاس بعدة أشهر بحزم وشدة وبشكل لم أعهده فيه. وكنت وقتها في كاليفورنيا كما كان هو في نيويورك. فتلقيت منه الإنذار النهائي الآتي :

«لقد حان الوقت لأن تقرري يا ماري العزيزة، ما إذا كنت ترغبين الزواج مني أم لا. ومن الحمق أن تستمري على هذه الحال. فأنت تعلمين حقيقة شعوري .. ولم يكن يخفى عليك أو على أي شخص آخر، أنني أحببتك منذ زمن طويل حتى قبل أن تعلمي بوجودي، فإذا كنت لا ترغبين في الزواج مني، فواجبك أن تعلميني إنصافاً لنا نحن الاثنين. إن الأمر كله يتوقف عليك الآن. ولن أبحث الأمر بعد الآن أبداً».

فاتصلت به هاتفياً في نيويورك وقلت له :

– إنك على حق يا بادي، علي أن أتخذ قراراً بذلك .

– هل تقبلينني زوجاً ؟

– نعم، إنني سعيدة أن أكون زوجتك

– أشكرك يا حبيبتي.

وعندما لحق بي في هوليوود، سألني مرة أخرى، فأجبته، بأني لا أمانع في أن أكون زوجة له. واتصل في تلك الليلة بوالده في أولات، كنساس ولم نكن ننوي أن نعلن الخبرفي الصحف. ولكن القاضي المحبوب الذي عقد عدة آلاف عقد زواج في حياته، كان متحمساً لدرجة أعلن فيها القصة في صحيفة كنساس سيتي ستار، بعد عدة ساعات قليلة. ثم أتت مسز روجرز إلى كاليفورنيا، فأقمنا حفلة عشاء لأصدقائنا المقربين وأفراد العائلة وأعلنا فيها النبأ رسمياً، وكان ذلك في التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٣٦.

وفي حزيران التالي تزوجت بادي تحت شجرة الجميز في بيت هوب وبادي لايتون الذي عرفني ببادي قبل عشر سنوات. وقد اقتصرالحفل على

الأهل والأصدقاء. ولقد كانت للأغصان الممتدة فوق رؤوسنا قدسية توازي أقواس الكنيسة اللولبية. فدعوت ربي ولازلت أدعوه أن أتمكن من تحقيق سعادة بادي، لأنه يستحق السعادة وأكثر منها، ولا أعتقد أنه توقف حتى الآن عن الترديد أمام جميع الناس بأنني المرأة الوحيدة التي أحبها .

كنت قد فقدت جميع عائلتي فيما عدا غرين ابنة شاكي، ولكن عندما تزوجت بادي، حلت عائلته محل من فقدتهم من الأحباب. وكانت والدته تساعدني على احتمال تلك اللحظات القاتمة التي تمر بي كلما كنت أطيل التفكير في خسارة أمي وأخوتي .

سافرت في القطار مرة مع مسز روجرز، قبل زواجي من بادي وقد تلقينا رسالة برقية من بادي، وإذ به وضع لها عنواناً هذه الكلمات :

«إلى حبيبتي الاثنتين».

فقلت لها : كم هو جميل أن يكون لك مثل هذا الابن .

فالتفتت إلي السيدة المحافظة القليلة الكلام وقالت : إني أدين لك بالكثير يا ماري .

– لا أظنني أفهم ما تعنين .

– ألا ترين يا ماري أن من يعلم درجة حبك لوالدتك، لا يستطيع أن يقترب إليك دون أن يحب والدته أكثر منك .

وأعترف أني لم أكن أفهم بادي دائماً. فأحياناً كنت أجده مترفعاً غامضاً مسيطراً على نفسه منطوياً عليها. ومع أن هذه الصفات أحدثت لنا بعض الصعوبات في حياتنا الزوجية، لكنها كانت عنصراً مقوياً لحبنا. لقد قضينا أسابيع كاملة لوحدنا قمنا من خلالها برحلات محلية وأخرى فيما وراء البحار وكنت دقيقة في المحافظة على سعادتي، ولا أعتقد أن بوسع امرأة أخرى أن ترعى سعادتها كما رعيت سعادتي الجديدة مع بادي. وأخيراً فإنني أعتقد أن دوغلاس نفسه، على الرغم من غيرته وغيظه ومحاولاته الكثيرة ليسيطر

علي، حتى خلال سني انفصالنا، كان سعيداً حينما أدرك مقدار سعادتي، إذ ذهبت في إحدى المرات إلى لندن لحضور اجتماعات الشركة. فرافقني بادي إلى أستوديو كورا، انتحى بي دوغلاس جانباً بينما كنت أنتظر بادي لنستقل السيارة وقال:

– لقد أحسنت الاختيار يا ماري، إنه شاب جميل .

– فأجبته : إن لطفه أعظم من جماله .

وفي خلال هذه الزيارة إلى لندن، حدثت صدفة غريبة، فقد قرأت لي خادمة ايرلندية كفي، ومع أني لم أكن أعتقد بمثل هذه الخرافات غير أن ما قالته أثار اهتمامي واستغرابي، قالت :

– إني أرى شخصاً ملقى على الأرض بدون حياة، كان قريباً لك ولكنه ليس كذلك الآن نعم إني أراه يموت، ولا أراك تبكين عليه .

وفي صباح اليوم التالي نشرت الصحف اللندنية نبأ موت أوين مور. فقد وجد ملقى على أرض المطبخ في بيته الكائن في تلال بفرلي، وكان ذلك في الثاني عشر من يونيو عام ١٩٣٣. وقد يكون هذا حقاً أو مصادفة أو قد يكون خرافة أو مجرد وهم، ولكن دوغلاس قضى نحبه بعد أوين بستة أشهر في الثاني عشر من ديسمبر في يوم ميلاد أوين .

وفي الليلة التي مات فيها دوغلاس، كنت أنا وبادي في فندق دريك في شيكاغو. وقد مضى ثلاث سنوات على زواجنا. وكان بادي قد أمضى يوماً مضيئاً مع فرقته الموسيقية. وقد مضت ساعتان على نومنا عندما رن جرس الهاتف في الساعة الرابعة. فأخذ بادي السماعة وقال :

– إنها غوين يا ماري .

فأخذت السماعة

– لا تقولي ذلك يا غوين، هل مات؟

– من أخبرك بذلك .

– لا أحد. ولكني أعلم .

– نعم يا خالتي. لقد مات العم دوغلاس.

ثم أخذت تبكي. وعندها بدت لباقة بادي المعروفة. فسألني عما إذا كنت أفضل أن أرتدي معطفاً سميكاً لنجلس معاً بدلاً من أن نعود إلى النوم. وأردف: سأرسل خادم الفندق ليأتي لنا بقليل من اللبن الساخن أو الشاي. أليس كذلك يا حبيبتي؟

وجلسنا نحن الاثنين، نحتسي اللبن والشاي، ونتحدث ونحن نرتجف من البرد. لقد تكلمنا عن كل شيء. تحت الشمس فيما عدا دوغلاس . وضبطت نفسي فلم أبك مراعاة لعواطف بادي. ولم أبك في الواقع إلا عندما بلغت الشارع العشرين في نيويورك مساء اليوم التالي .

وعلى العكس من دوغلاس الذي كان يتهرب من الحقائق، كان بادي شخصاً قوي الشكيمة يمكن الاعتماد عليه في الشدائد، فهو سليم التفكير تماماً لم تفسده الأيام، مع أن مظهره الجميل يناقض الواقع. فهو حقيقة رجل بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان .

وكان أشد ما يخشاه بادي، هو أن يكون موضع شبهة في مقارنة، وأنه يروج لنفسه أو يستدعي اهتمام الآخرين به .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية، بعد أن انضم بادي إلى البحرية، جرى لي حديث طويل مع زوجة أحد زملائه الضباط. فحدثني كيف أن الأولاد، تآمروا لتكليف بادي ببعض الأعمال المرهقة لدى وصوله، وكانوا يتهامسون فيما بينهم، «ممثل سينمائي» ! «رئيس فرقة موسيقية» ! يدعي أنه فتى جميل ! وقرروا أن يجهدوا بادي أن يضيفوه ويضعوه في مكانه الذي يستحقه، ولكن زوجها مع موافقته على المبدأ، فقد رأى في الأمر ظلماً .

فقال لهم : لا حق لكم أن تحكموا على الرجل من الطريقة التي يكتسب فيها عيشه، أو من مظهره الخارجي. إنني أرجو أن أستفيد من الشاب الوسيم بقدر ما أستفيد منكم. لماذا لا نعطي الشاب فرصة يثبت لنا فيها خطأنا؟ وأضافت زوجة الضابط قائلة :

ثقي يا ماري أن زوجي مستعد لأن يثب من ظهر السفينة إلى الماء لأجل بادي !

وكان ينقصنا شيء واحد نكمل به سعادتنا، إلا وهو الأطفال ... لقد حرمني جهل أحد الجراحين من نعمة الأمومة عندما كنت في ربيع الحياة. وكان ذلك الوضع مناسباً للظروف السابقة، لا سيما وأوين يكره الأطفال ويعتبرهم دخلاء، يتطلبون جهداً شاقاً متواصلاً، كما أن دوغلاس لم يكن يريد أن يكون أباً. وكان يبرر رأيه بقوله :

أن الأطفال يا هيبر غالباً ما يهدمون السعادة الزوجية. إنك أنت الطفل الوحيد الذي أريده !

وكنت أشبع حنيني إلى الأمومة بتمثيلي أدوار الأطفال على الشاشة، حتى أصبحت طفلة من خلال الشخصيات الفنية التي كنت أتقمصها. وكان اليوم الذي ولدت فيه شاكي طفلتها غوين يوماً مباركا ً في حياتي. وسألتني لوتي بعد وفاة أمي بعدة سنين:

– ما هو الشعور الذي يحس به المرء عندما يجد أنه استطاع تقديم كل شيء أحبته أمي من صميم فؤادها بالإضافة إلى الشهرة والمجد .

فأجبتها : أني أريد أن أطرح عليك سؤالاً بدوري يا لوتي، ضعي كل شيء دنيوي في إحدى كفتي الميزان وضعي طفلاً في الكفة الأخرى. فأي الكفتين تظنين أنها ترجح في قلب أمي؟

– كفة الطفل يا ماري .

ولم يكن هناك مجال للتساؤل، لأن السرور الذي أدخلته غوين في حياتنا لا يمكن قياسه بمتعة من متع الحياة الأخرى، ولكننا نعرف ذلك ونثق بحكمنا .

إن ابنة أختي الصغيرة غوين كانت السبب في تحسين حالتي وإنزال الهدوء على نفسي. لقد كانت في الحادية عشرة من عمرهاعندما سمعتها تقول لابنة خالتي فيرنا «لا تدخلي هناك الآن ! إن خالتي الآن في ثورة نفسية خطيرة». وكان تأثير كلامها مرفهاً عني، حتى أنه صرف كلما أحسست به من ضيق في ذلك الحين .

ولو بقي لي كل الأطفال الذين أردت أن أتبناهم لكنت الآن، أماً لعشرين طفلاً على الأقل. فقد كان لدي خطة لتبني كل طفل قام بدور معي على الشاشة .

وقد بدأت البحث عن الأطفال في اليوم الذي تزوجت به بادي. وأدركت عندها أنه سيكون بحثاً طويلاً شاقاً، حين عرفت أن لدى إحدى الوكالات في لوس أنجلوس قائمة انتظار لألفين وسبعمئة من الأزواج.

وفي اليوم التالي الذي التقينا فيه بروني، كنت قد ذهبت مع بادي لرؤية طفلة صغيرة علنا ننجح فنتبناها. هناك كثير من النواحي الغريبة لسيكولوجية التبني. ففي اللحظة التي تقع عينك على أحد الأطفال، تعلم ما إذا كنت تريد أن يرافقك إلى آخر حياتك، أو لا. أما الابنة التي ذهبنا لرؤيتها فكانت تبلغ الثامنة من العمر، وعلى الرغم من حبي للأطفال، فمن المؤسف أنني لم أشعر نحوها بحب أو انعطاف .

بينما كنت أحدث نفسي في أن هذه الطفلة ليست التي أريدها، كان بادي يتنقل في الباحة التي كان يلعب فيها بعض الأطفال، وبينما كان يرقبهم، علقت عيناه بأحدهم، فلاحظ مقدار اهتمام ورعاية ذلك الطفل لرفاقه وهم يلعبون الكرة. وقد أخذ الطفل يدعوهم بإلحاح إلى إعطاء كل فرد منهم فرصة للعب.

وسأل بادي أحد الخدم، عما إذا كان يمكنه تبني هذا الطفل. وعندما أخبره أن لا مانع من ذلك، طلب منه أن يقدمه إلي. فغسلوا وجهه ومشطوا شعره، وألبسوه ثياباً نظيفة .

فتح باب الباحة ودخل بادي منه مع أجمل صبي وقعت عليه عيناي. وعندما قدمه بادي، بادرني بتحية تدل على الذكاء وصافحني بحرارة. وفي تلك الأثناء تركت الطفلة الغرفة. وبقينا نحن الثلاثة لوحدنا. وصعد الصبي على ركبتي بادي بشكل يدل على الثقة بالنفس، وبدأ بادي يتبادل معي حديثاً حماسياً سريعاً .فسألني رأيي بهذا الاقتراح، فقلت أنه عظيم، ولكنهم أخبروني بأن علينا أن نوقع عقداً لمدة طويلة .

فقلت: إنني أريد أن أوقعه الآن فما قولك؟

– حسناً تفعلين .

وتبينا ذلك الطفل البالغ السادسة من العمر، وزرناه في الأحد التالي، وقضى نهاره معنا مرحاً مسروراً تفيض نفسه بالغبطة والسعادة. وحين أزف موعد عودتنا، بكى بمرارة قطعت نياط قلبي، فلم أستطع أن أغمض عيني تلك الليلة. وبعد أسبوع سمحوا له بالمجيء والإقامة معنا .

وتبنينا روكسان بعد روني بعشرة أشهر. وأظن أن الجميع يعلمون أن معظم البيوت التي تأوي مثل هؤلاء الأطفال، لا تسمح لأحد بالاقتراب منهم، وحين ذهبت لرؤيتها رافقتني مسز روجرز، وأرتني عشرات الأطفال الصغار من خلال زجاج النافذة التي تطل على غرف نومهم .

سألتني رئيسة الممرضات : وقد كنت لفت نظري إلى طفلة لم تبلغ الخمسة أشهر : ما رأيك بهذه الطفلة الصغيرة يا مس بيكفورد؟

فنظرت إليها ولم أستطع تحويل عيني عنها .

وتطلعت أولاً إلى مسز روجرز، ثم تفحصت وجه تلك الطفلة ذات الشعر الأسود فكشرت وهي تميل برأسها يمنة ويسرة، ثم ألقت نظرة علي

بعينيها الكبيرتين الواسعتين الجميلتين، وارتسمت بعدها ابتسامة عريضة على وجهها الجميل .

ورجعت إلى البيت وأنا لا أرى سوى وجه تلك الطفلة، وقد شعرت أني أريدها وأحبها أكثر من أي شيء آخر في حياتي. فلم استطع الانتظار حتى تنتهي تلك الإجراءات، فاتصلت بذلك البيت هاتفياً مرات لا تحصى .

وكان جواب رئيسة الممرضات قولها : أعتقد أن ظهرها ضعيف، ولا تصلح لمن كانت مثلك .

قلت : هذا أحد الأسباب التي تحتم عليكم أن تسلموها لي، فبإمكاني أن أوفر لها أحسن العناية .

فحاولوا خلق أسباب ومبررات ولكني قلت لهم : دعيني أصارحك برأيي : أنني أعتقد أنكم لن تسلموها لي، خشية أن لا أنجح في المحافظة عليها. وكانت نتيجة حديثي أن طلبوا مني أن اذهب إلى المكتب. وصحبتني مسز روجرز وروني وسكرتيرتي، مسز لويس وخادمتي الفرنسية المخلصة أيفون التي أصبحت فيما بعد مربية للأولاد .

وحينما وصلنا تركت الجميع في السيارة ودخلت المكتب وحدي، فأعطوني بطاقة صغيرة .

سألتهم : لم هذه البطاقة ؟

فأجابوا : إنها البطاقة التي يمكنك بواسطتها استلام طفلتك، فاستولى علي الهول لسماعي كلمة طفلتك .

ثم اندفعت اهبط الدرج، كالطير الهائم وأنا أصرخ بمن كانوا في السيارة «انظروا لقد حصلت على الطفلة، لقد حصلت على روكسان» .

قالت أيفون : ولكن لا يمكن أن نقوم حالياً باستلامها. فليس لدينا زجاجات ولا ثياب ولا مكان تنام فيه .

– سأستعير كل شيء، وستنام معي .

وبلغ بي التأثر درجة نسيت معها أن أتصل ببادي في القاعدة الجوية لأقول له : أنه على وشك أن يصبح أباً. وأخجل أن أقول إنني لم أفكر إلا في ذلك الحمل العزيز من الحياة الدافئة السعيدة التي كانت بانتظاري .

انتظرت مدة حسبتها دهراً قبل أن تصل الممرضة أخيراً. ولم ألبث أن وجدت الطفلة بين ذراعي. وعاونني روني والنساء الثلاثة، وأنا أصعد إلى السيارة بحذر شديد وسلمت الطفلة إلى أيفون وأمسكت بمقود السيارة، وأخذت أفكر طول الطريق كيف أطعمها وكيف سأضعها في سرير مفروش بغطاء حريري أحمر، وكيف أوفر لها حياة سعيدة .

وأظن أنني قطعت خمسة وعشرين ميلاً وقدمي على الفرامل، وأنا أضغط على البوق كلما بلغت شارة حمراء وأخيراً وصلت إلى بيكفيرو ورائي ضباب كثيف من الدخان والغبار. وكان أول تعليق لوالدها عندما رآها لأول مرة أنه قال :

– أوه، إنها صغيرة جداً يا ماري؟

– ستتغلب على صغرها عندما يحين الوقت .

وكانت أول الصعاب التي صادفتني هي في تخصيص مكان لها، فلجأت إلى مديرة البيت المخلصة الداهية أغدا إيريكسون، فقلت لها : أننا في حاجة إلى سرير للطفلة يا أغدا .

وغابت ساعة من الزمن دون أن تحتاج لتعليمات أخرى ثم عادت ومعها سرير جميل .

فهتفت وأنا أكاد لا أصدق عيني : من أين أتيت بهذا يا أغدا؟

فقالت : إنه لموظف قديم كان يعيش هنا. وقد وجدته في غرفة المستودع. وسهرت بالطبع طول الليل، وأنا أحاول أن أغطي روكسان. ولم يخطر ببالي أن أربط الغطاء بالدبابيس الانكليزية. وذهبت في الصباح التالي إلى أبيها لأعرض عليه المشكلة الأولى .

– يا بادي إن الطفلة تحك وجهها بأظافرها الطويلة .

– لماذا لا تقصينها يا عزيزتي .

– إني أخشى أن أؤذيها .

– أنا لا أخشى ذلك، أعطني مقصاً صغيراً.

وأخجل أن أقول أنني لم أستطع رؤيته، فبين ما كان يركع بجانبها، انسللت من الغرفة. وكنت اسمعه وهو يحادثها :

–أنك طفلة صغيرة لطيفة .

ولكي اختصر هذه القصة الطويلة أقول أنها ربطته بحزمة لم تدعه يفلت بعدها أبداً. وعندما قالت روكسان لأول مرة، «أبي الصغير الغزيز» أصبح وجهه كما لو أنه قد من قطعة ثلج، ثم وضع في فرن حار .

وتحدث أحياناً في حالات التبني بعض الحوادث المربكة. فقد أتت مسز روجرز من كنساس لتحضر ولادة أول طفلل ابنة أختي غوين. وكان ذلك بعد تبني روني معي، وفي أثناء عودتنا جلست مسز روجرز في المقعد الخلفي وجلس روني بجانبي. وكان من الصغر لدرجة جعلت مسز روجرز تنسى وجوده .

فقالت : يجب أن تكوني سعيدة جداً بولادة طفل من آل بيكفورد. فراوغتها بإجابتي، ولكنها تابعت حديثها قائلة:

– تصوري طفل من لحمك ودمك .

فشعرت أن جسم روني تصلب بجانبي، فكان علي أن أفكر بسرعة فقلت :

نعم، ولكن لا يعلم أحد كيف يصبحون، ولايمكننا أن نكون أحراراً باختيارهم، كما نكون بالطريقة الأخرى .

فنظرت مسز روجرز إلي في المرآة، وأدركت في الحال ما أعني. وساد السكون لحظة، ثم قال روني :

– لقد حالفك الحظ يا أماه.

– نعم، إني أعرف، ولكن قل لي لماذا يا عزيزي؟

– لقد كان باستطاعتك أن تري ما أشبه، وهذا حظ كبير بالنسبة لك. ويسألني أصدقائي في كثير من الأحوال عن روني وروكسان. وفيما إذا كنت أعرف شيئاً عن أهلهما. نعم فقد كنت في الواقع أعرف، ليس فقط عن والديهما بل عن جديهما أيضاً. فقد مات والد روكسان في (غواد الكانال)، وماتت أمها من شدة الحزن عندما بلغت الطفلة خمسة أشهر من العمر، أي قبل شهر من مجيئها لبيتنا. وكانت دماؤهما تختلط بدماء والدي روني، فهي دماء الانكليز والإيرلنديين والأسكوتلنديين والفرنسيين. وأما روكسان ففيها الدم الهولندي. وقد نشأ طفلانا وكل منهما يشبه الأخر شبهاً عظيماً. وإني اعتبر نفسي وبادي سعيدين حقاً لأن تشملنا البركة التي شملتنا أكثر من مرة.

الفصل الخامس والعشرون

لا يحتاج المرء إلى قوة استنتاج عظيمة ليدرك أن اسم بيكفير مؤلف من المقطعين الأولين من اسمي واسم دوغلاس، ومع ذلك فالحقيقة إنه لم يكن لي ولا لدوغلاس يد بهذه التسمية، لقد كان هذا التمازج في الاسم من وحي صحفي مجهول. وتخيلته حين سمعته أول مرة اسماً ضخماً يصور لي قصراً عتيداً مع ما يتبعه من إصطبلات وحدائق ومرتفعات وغيرها، واعتقد أن البيوت بها شبه للناس، وأن لها انطباعات في نظر من يراها. وقد اعتاد ذلك الصحفي أن يشير إلى «بيكفير» كما لو كان يشير إلى قصر منيف. وأظن أني أخذت بتلك الفكرة فاعتقدت صحتها. ولم أصح على الحقيقة إلا حين أعادني أحد السادة الانكليز فجأة إلى الواقع حين سألني في أحد الأيام :

ألا زلت تعيشين في ذلك الكوخ الصغير الجميل، يا مس بيكفورد؟

لقد تربى أطفال الطرفين من العائلة في بيكفير، ثم أخذوا بأصدقائهم الأطفال ليلعبوا معهم في ساحاته الواسعة .

لم يكن دوغلاس يميل إلى الأولاد عندما كان في سن الثلاثين، وحين بلغ الأربعين. أما حين بلغ الخمسين من العمر فقد تغيرت حالته تماماً، فتحول بعدها نحو ابنه، وإني أشعر الآن بالرضا التام عن الحكمة والتعقل اللتين أبديتهما خلال السنين الأولى من زواجنا، فقد شجعت ابن دوغلاس الذي كنا ندعوه (جايار) وبنات أخيه الأربع، لكي دائماً نتناول العشاء باكراً أيام

الجمعة، ثم نشاهد أحد الأفلام، وكنت انسحب دائماً عندما يكون جايار مع أبيه، لأني كنت أرغب في أن ينفردا ببعضهما. وفي السنوات الأخيرة القليلة من حياة دوغلاس، أخذ ينشد في وحدته، صحبة ابنه، فيجد فيها راحة وسعادة عظيمتين. وكم آسف أن لا يعيش دوغلاس طويلاً ليرى حفيداته الثلاث بجمالهن الرائع وجاذبيتهن الأخاذة ويفخر بولده جايار وأعماله الحربية الجريئة التي رفعته إلى الذروة، حتى منحته الحكومة البريطانية وساماً رفيعاً كأحد أفراد فرقة الكوماندوس، تحت إمرة لويس مو نتباتن. وكم أشعر الآن باختلاف الحياة مع بادي والأولاد عن تلك الأيام القديمة مع دوغلاس .

لقد اختفت الآن الحفلات الصاخبة التي لم تكن تنقطع لتحل محلها حياة أكثر هدوءاً ومرحاً وسروراً نفسياً، كما بقي بيكفير مضيفاً فخوراً بزائريه. وكان أعظم ما يفخر به أنه جلب السرور إلى قلوب الفتيان الذين تركوا أرض الوطن، وأبحروا إلى جنوب الباسيفيكي، ثم عادوا إلينا مقعدين مشوهين. ولا يزال الكثيرون منهم يسبحون في بحيرة البيت، ويجلسون تحت ظلال الأشجار الوارفة في المرج المحيط بمنزلنا، فترى الأعمى والأعرج والذي فقد ذراعيه أو فقد ساقيه. في الوقت الذي يؤم المرج مشوهو الحرب العالمية الأولى. وفي خلال الصيف عام ١٩٤٩ نزل في ضيافتنا أربعون جندياً من جنود الحرب العالمية الأولى، من مستشفى محاربي سوتيل. وقد بلغني أن هؤلاء الرجال لم يفارقوا المستشفى مدة تزيد عن ثلاثة عشر شهراً وأضحت حفلتنا معهم في حدائق بيكفير عادة سنوية منذ ذلك الحين. وسيبقى أولئك الرجال برفقتنا في كل صيف وكل عيد ميلاد، مادمت أنا وبادي نملك بيكفير. ولن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذي قدمت فيه دينا شور، فغنت لهم وكيف جلسوا حولها على أرض المرج يصغون بشوق وتلهف إلى الأغاني المتنوعة التي كانت تنبعث من قلبها لتدخل رأسا إلى قلوبهم.

وفي يوم من الأيام قدم ضابط معه أحد المجندين، إلى بيكفير ليسألهما إذا كان يمكن الاستفادة من المكان لعقد اجتماع لهيئة المشوهين التي تشكلت حديثاً. لأنهما أوضحا، أنه ليس لديهم المال الكافي لاستئجار قاعة عمومية.

فأجبتهم أنني أكون مسرورة لاستقبالهم مع زوجاتهم وأطفالهم .

ولما حان يوم الاجتماع خانتني شجاعتي مع الأسف، فقد كنت أخشى رؤية جميع أولئك الفتيان المسرحين، يلتفون حول الحوض بدون أطرافهم. وسواء أكنت متصفة بالجبن أم لا، فقد قررت البقاء في غرفتي على الأقل إلى أن يستحم الرجال ويرتدوا ثيابهم. أما بادي، وكان قد وعدني بالبقاء معي برهة من الزمن، فقد جرته أعماله اليومية إلى أبعد مما كنت أتوقع عندما رأى بعض أوراق الأزهار بما عليها من النحل تطفو على سطح الحوض. فنزل وبيده المرغاة لينظف الحوض في الصباح الباكر، فاحتذى خفيه الباليين، ولبس سروال استحمام مرتق، ولم يكن قد حلق ذقنه. وبينما كان بادي ينظف سطح الحوض. وصل بعض العصافير فبقي معها طوال اليوم .

وفي تلك الأثناء قبعت يائسة في غرفتي أتساءل عما يجب أن أعمل. وكان من حقي أن أبتئس فقد فقدت اتزاني قبل بضعة أشهر في حفلة أقمتها في بيكفير لجمهور من الجنود الذين فقدوا بصرهم حديثاً. وكان باستطاعتي أن أقف لأرى اثنين أو ثلاثة من الفتيان، ولكن بعد ذلك انقطع صوتي، واحتجت إلى جهد عظيم لكي أسترد شجاعتي. فقد كنت أعلم أن آخر شيء يريده أو يحتاج إليه الرجل الجريح الشفقة وأن كلما يطلبه هو إعطاؤه الفرصة لكي يثبت جدارته في الحصول على مكان في الحياة الطبيعية للمجتمع وكان يجب علي أن أعتبر من تلك التجربة كي أستعد لأول لقاء مع أصدقائي المشوهين، ولكني لم أفعل. وعندما نزلت أخيراً، أدركت حماقتي، فمشيت إلى الحوض واختلطت بهم كما كنت أختلط مع أي جمع آخر يلتئم في مرجة بيكفير. ورأيت بنظرة سريعة مجموعة الأرجل الاصطناعية تغطيها الجوارب والأحذية، وأذرع وأيدي الأطفال تزحف جذلة بينها، والأمهات السعيدات يلاحقنهم. فأدركت فجأة أن كل شيء كان طبيعياً، ولم يكن هناك سبب لأية صدمة أو حزن، فقد كانت الشمس المشرقة تشع فوق زمرة من الأحياء أصحاء الأجسام والعقول .

ورأيت طفلاً في الثالثة من عمره يحمل ساق أبيه الاصطناعية مع ما يتصل به من جوارب وحذاء ورباط، ويدلف حول الحوض يتعثر تارة ويقف أخرى فكانت عاصفة من الضحك اشترك بها مئة من المشوهين عدا زوجاتهم ولا تزال أصوات ضحكهم ترن في أذني إلى اليوم. وضبطت نفسي تماماً ذلك المساء، لولا حدوث خطأ وقع عندما عنف أحد المشوهين ممن فقدوا ذراعهما مرأته حين همت أن تحمل له مقعداً، فصاح بها.

– يا للعنة، إنني لا أزال رجلاً.

ولكي يثبت ذلك حمل كرسيين بكلابتيه، وكانا من الكراسي الأمريكية التي يستحيل علي حملها، وبينما كانت الدموع تترقرق في عيني الزوجة، وعيني سار الرجل بعزم واجتاز المرج إلى الطرف الذي ستقام عليه حفلة السمر .

لقد تأثرت جداً عندما شرفوني بطلبهم أن أكون راعية لهذه الزمرة من الشبان الأمريكيين الجذلين، وكم كنت أتمنى أن أكون أكبر وأغنى وأعظم شأناً مما أنا عليه، لكي أرأس كل جمعية في هذا البلد والبلاد الأخرى في جميع أنحاء العالم. إن مجرد تقديم هذه الخدمات الضئيلة إلى هؤلاء الرجال وعائلاتهم يكفي ليجعل من بيكفير ومروجه مكاناً له ذكرى عزيزة وجميلة في نظري .

الفصل السادس والعشرون

أرقت في إحدى الليالي، فأخذت اقطع الوقت في تسجيل قائمة بمختلف الأسماء والألقاب التي ارتبطت بي منذ أيام طفولتي الأولى .وقد راعني العدد الذي تجمع منها منذ الماضي البعيد، وتساءلت عما إذا كان ذهاب كل اسم يلاشي معه الشخصية التي كانت تلائمه .

فقد كانوا يسموني في أيام البيوغراف القديمة، ذات الضفائر الذهبية، والفتاة ذات الضفائر، وفتاة البيوغراف. وكانت ابنة أختي غوين تشير إلي باسم المرأة العصفورة، وزوجها، الصغيرة القوية، أما جاك ولوتي فكانا ينادياني، العصا الكبيرة، تارة عن الحب وأخرى بدونه. ثم دعواني لفترة ما بلقب، الشرطي، وذلك حين كانا يريان مني تصنع العظمة، والقيصرة.

وكانا مستر غريفيث يسميني، بيكفورد، ومارشال نيلان يشير إلي ب، التاد، أي الطفلة، وهو اصطلاح ايرلندي. أما دافيد بلاسكو فكان يدعوني، بيتي. وايرول فلين يناديني، مو، لأن حاضنته كانت تدعى أيام طفولته، ماري، وكان لا يستطيع النطق إلا بكلمة، مو، أما لو يلابارسون فكانت تناديني، الطفلة مارتن، أو، ماري الابنة، نسبة لزوجها المتوفي الدكتورهاري مارتن الذي كان يناديني بابنته .

وأطلق دوغلاس علي مئة اسم. ومع ذلك فإن الاسم الوحيد الذي اعتاد أن يناديني به هو هيبر، ولا أعلم ما إذا كان ذلك اسماً لسفينة حربية ألمانية.

ودعاني أيضاً، الذكية والصغيرة والنافذة. وكان يناديني عندما يتضايق باسمين هما، فرين وفريت، ولا أعلم من أين أتى بهما .

وهناك لقب التصق بي منذ أيام الأولى في حياتي الفنية. وهو لقب يشتمل على شرف عظيم كان له أثر عميق في قلبي، ولكني قبلته ونلته بصعوبة.

لقد طلب مني أحد كبار المنتجين في هوليوود أن أتنازل عن لقب، حبيبة أمريكا لصالح فتاة موهوبة كان يرعاها. فأجبته أن اللقب ليس ملكاً لي حتى أهبه لغيري. وأني في الواقع لم أقبله أبداً، ولكنه كما هو، كان هدية منحني إياها صديق عزيز قديم .

وكان هذا اللقب من وحي، «بوب غرومان» أحد العاملين القدماء في المعرض السينمائي في سان فرنسيسكو ووالد سيد غرمان أعظم عارض أنجبته هذه الصناعة. وقد أعلن بوب لقب، حبيبة أمريكا، بالأنوار الكهربائية لأول مرة عام ١٩١٤ عندما عرض النسخة الأولى لفيلمي، «تس في بلاد العواصف» في سان فرنسيسكو. ولم يكن ذلك مجرد دعاية مما جعله ألطف وقعاً في نظري .

وفي أثناء الحرب عام ١٩١٨، كنت أسير في شارع ماركت، في سان فرنسيسكو على رأس استعراض الصليب الأحمر. وكان مئات الجنود يسيرون معي، والأعلام ترفرف، والفرق الموسيقية تعزف، وورق الكونفيتي يتطاير في الهواء، وأفراد الشرطة يدفعون الناس إلى الخلف، رأيت فجأة رجلاً مسناً ابيض شعره يندفع من خلف أفراد الشرطة، ويركض نحوي صائحاً :

« ماري أيتها الحبيبة ».

فاندفع الشرطي خلفه ليمنعه من التقدم خشية أن يكون شخصاً خطراً ورفع هراوته عندما أسرعت إليه وصحت :

– لا تفعل أيها الضابط إنه صديق لي !

وفي الحقيقة لم تكن عندي أية فكرة عن شخصية هذا الرجل. واضطررت أن أركض لكي ألحق برفاقي، وأعود لمكاني الأصلي على رأس الاستعراض .

وكان الرجل يسير بجانبي .

وسألني فجأة : كيف حال ابني، هل هو بحالة جيدة؟

فأجبته : أوه، إنه على أحسن حال، دون أن التفت إليه. وقد اقتنعت أنه أحد المجانين.

فسألني : كيف حال تياترو سيديس مليون دولار في لوس أنجلوس؟ عندئذ فقط، عرفت أن الرجل الذي يسير بجانبي هو بوب غرومان العزيز الذي لم أقابله من قبل أبداً الرجل الذي أعلن خطبتي للبلد الذي نحبه ونخدمه نحن الاثنين. وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة عدت إلى تورنتو، ضيفة شرف على ثمانمئة من طياري الحرب العالمية الثانية. وكان كل شيء على مايرام إلى أن بدؤوا ينشدون : «دعيني أناديك يا حبيبتي».

عندئذ رفعت نظري إلى الوجوه البراقة الموردة لأولئك الفتيان الذاهبين إلى ما وراء البحار، الذين قد يفقد البعض منهم حياته، ويتمنى البعض الأخر ألا يعود. وكان ذلك أقوى من أن أتحمله. فانهمرت الدموع من عيني، على الرغم من الجهد الذي كنت أبذله لكي أتمالك نفسي، وكنت أقول لنفسي أنه من نعم الله علي أن أعيش حتى أعلم، بعد تلك الأعوام التي مضت على انتهاء عملي على الشاشة، أن هناك فتياناً من الجنود الذين هم على وشك الإبحار في رحلة قد تكون الأخيرة لهم، يستطيعون أن يقدموا إلي أعظم وأجمل التحيات، بأن يسألوني السماح لهم أن يطلقوا علي اسم حبيبتهم .

الخاتمة

جلست منذ بضع سنوات لكي يأخذ أحدهم رسماً لي، ولم يكن الفنان رساماً أو مصوراً بل عازفاً على البيان. لم تكن أدواته الدهان والفرشاة، بل أصابع البيان السوداء والبيضاء. وكان ذلك المصور بالأنغام هو الفنان الأعمى الموهوب (إلك تمبلتون).

وفي رأيي أن تأثيره كان مدعاة للتسلية والاستغراب، فلم استطع أن أفهم النوطات العالية المتواترة. وسألت مستر تمبلتون عما تعنيه إحداها في العرف الموسيقي فقال:

– إن تلك النوطة يا مس بيكفورد تدل على موقفك القوي من الحياة وعملك الفني، وتعبر أيضاً عن استعداد وقوة عزيمتك في مجابهة الأمور بصراحة .

فقلت : هذا مهم، غير أني أظن أنك تفكر في شيء أخر .

فأجاب : إن ذلك صحيح، إن تلك النوطة هي القوة الدافعة العالية لوجودك، هي الحاجة إلى العمل والامتناع عن التوقف، وتدل تلك النوطة العالية على بغضك للنهاية .

ربما تكون هذه الصورة حقيقية، أولاً، فقد عرفت نور الشمس والظل، وفتحت كثيراً من الفصول، ثم أغلقتها. فإن نياليو مزوجة وأم سعيدة، بيتنا

يدعو إلى حياة ملؤها الراحة والرفاه. وسأبقى مدينة ماحييت للماضي الذي لم أكن لأحصل عليه لولا إخلاص وتفاني عائلتي وأصدقائي الكثيرين، وحفلات العرض السينمائي في جميع أنحاء العالم، هذه هي حياتي حتى الآن، وهذا هو كتابي. وإذا كنت لم أفقد تلك الأيام الخالية فإني لا أريد أن أحياها مرة ثانية. فإني لا أنظر الآن إلا إلى الحاضر العظيم والمستقبل المشرق.

الفهرس

الصفحة

فن السينما ٥
توطئة ٩
الفصل الأول ١٥
الفصل الثاني ٢٣
الفصل الثالث ٣٥
الفصل الرابع ٤١
الفصل الخامس ٤٧
الفصل السادس ٥١
الفصل السابع ٦٥
الفصل الثامن ٧٥
الفصل التاسع ٧٩
الفصل العاشر ٨٣
الفصل الحادي عشر ٩١
الفصل الثاني عشر ١٠٣
الفصل الثالث عشر ١١٣
الفصل الرابع عشر ١٢٣
الفصل الخامس عشر ١٢٩

الصفحة

الفصل السادس عشر ١٥١
الفصل السابع عشر ١٥٣
الفصل الثامن عشر ١٦٧
الفصل التاسع عشر ١٧٥
الفصل العشرون ١٨٧
الفصل الحادي والعشرون ١٩٣
الفصل الثاني والعشرون ١٩٩
الفصل الثالث والعشرون ٢١٥
الفصل الرابع والعشرون ٢٢٣
الفصل الخامس والعشرون ٢٣٧
الفصل السادس والعشرون ٢٤١
الخاتمة ٢٤٥

الطبعة الأولى / ٢٠١٤م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

مذكرات النجمة الأولى في تاريخ السينما
ماري بيكفورد

شروق وظلال

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٤م

سعر النسخة ٤٢٠ ل.س أو ما يعادلها